نال هذا الكتاب جائزة مجمع اللغة العربية للبحوث الأدبية عن سنة ١٩٥٥

دراسات فى تاريخ الجبرتى

مصر فى القرن الثامن عشر

الجزء الثالث

١- شعب مصر وكفاحه

٢- صفحات من سيرة محمد على

تأليف

محمود الشرقاوى

١٩٥٦

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد بك فريد (عماد الدين سابقا)



مقدمة

إذا عرف الشعب تاريخه الحق . وكفاحه فى سبيل العدل والحرية والكرامة . كان اعتزازه بماضيه أقوى . وإدراكه لحاضره أشمل وأعمق . وكان إقدامه واقتحامه لمستقبله ، أشد صلابة وجــــرأة وإصرارا . ولكنه أقوم نهجا ، وأهدى سبيلا .

وهذه صفحات من تاريخ مصر الحديث . قصصت فيها طائفة من الثورات التى قام بها الشعب فى سبيل الحرية والعدل .

ثورات ولدت فى حجر الشعب. ثم نمت،وزكت ، واشتد عودها . وأوشكت أن تثمر ثمرة الحرية .

وقد جمع هـــــذا الجزء من الكتاب — إلى أبعد غاية — بين تشويق القصة ، وحقائق التاريخ .

وهذه الصفحات تلخص ، فى استيعاب كامل ، مناهضة الشعب للظالمين من حكامه الأتراك فى القرنين السابع عشر والثامن عشر، وثوراته عليهم . كما تلخص مقاومة الشعب للحملة الفرنسية فى نهاية هذا القرن الأخير ، وصده للغزو الإنجليزى فى أول القرن التاسع عشر .

ويجب أن نلاحظ ، فيما يختص بمناهضة الشعب لظلم حكامه الأتراك ، أن العاطفة الدينية كانت لهـا الغلبـة القوية والسطوة الجارفة على شعور الناس وإحساسهم . وقد كانت هـذه العاطفة ، والرباط الذى توثـق به بين المصريين والأتراك ، عاملا ملطفا ، بل مثبطاً لشعور الأولين نحو ما يقع عليهم من ظـلم الآخرين وقسوتهم وجبروتهم . كان حالهم فى هذا شبيها بذلك الذى قال فيـه الشاعر الجاهلى :

قومى هم قتلوا أميم أخى ... فإذا رميت ، يصيبنى سهمى
فلئن عفوت ، لأعفُوَنْ جللاً ... ولئن سطوت لأوهنْ عظمى

أو ذلك الشعر الذى كان يتمثله الإمام على ، متوجها إلى الله ، وهو ينظر إلى مصارع أنصاره ومصارع خصومه ، فى يوم الجمل :

أشكو إليك عُجَرى وبُجَرى ... شفيتُ نفسى ، وقتلت معشرى

فقد كانت الوشائج الدينية ، ولهـا من القوة مالها فى ذلك الزمن ، تجعل المصريين على أمل دائم فى أن تفيء الآخرون إلى أمر الله ، من الاستقامة فى الناس ، والعدل فى الرعية . وتجعلهم أقرب أيضا إلى التسامح والرفق والاحتمال لمـا يلقون من شر كثير ونـكر .

فالمصريون ، فى واقع الأمر ، لم يكونوا يقاومون ظالميهم من الأتراك أو المماليك فقط . بل كانوا يقاومون شعورهم النفسى ، وإيمانهم بمـا يجب على المسلم نحو أخيه . ولعل هذا — إلى جانب عوامل أخرى — من أسباب هـذا الاحتمال الطويل والصبر العجيب الذى نجده عند شعب مصر أمام مالقى من مظالم ومحن .

على أن القدر الذى نجده من كفاحه للظالمين من أبناء دينه ، قدر غير قليل ولا مجحود . كما ترى بعد قليل .

فلما جاءت الحملة الفرنسية ، إنقضى هذا العامل ، بل وجد عامل مضاد له . فكانت هذه الثورات الجارفة القوية المتلاحقة ، التى نرى تفصيلها فى هذا الـكتاب .

* * *

ولقد كان لشعب مصر كفاح ، وكانت له هبّات وثورات . تتفاوت عنفاً وضعفاً . بعد هذا الـكفاح الذى وقفنا به عند خروج الفرنسيين من مصر .

كانت لشعبنا ثورات ، كالثورة العرابية ، وثورة سنة ١٩١٩ وكانت له بينهما هبـات شعبيـة ، أو دستورية ، أو برلمانيـة . وكانت له بعد ذلك ثورات

شعبية عنيفة أو ضعيفة أيضا ، ضد الاحتلال الإنجليزى ، وضـــد الظلمة من سلاطينه وملوكه ، ومن كانوا يحكمون لهم الشعب ، بالقوة والجبروت . وكانت له هبات برلمانية أو دستورية أيضا . حتى جاءت ثورة ٢٣ يوليو ســـنة ١٩٥٢ فبطشت — باسم الشعب — بطشتها الـكبرى .

ولـكننا وقفنا فى كتابنا هذا — كما قلت — فى تفصيل هذا الـكفاح ، عند خروج الفرنسيين من مصر .

ثم نجد بعد ذلك الفصل الثانى من هذا الجزء ، والأخير من الـكتاب ، وهو صفحات من سيرة محمد على ، كما سجلها الجبرتى .

القاهرة فى { ٣٠ شوال ١٣٧٥ / ٩ يونيو ١٩٥٦ }

محمود الشرقاوى



الفصل الأول

شعب مصر وكفاحه



شـــعبنا وماضيـــه

لقى شعب مصر ، فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، كما لقى فى القرنين الأخيرين ، ألوانا من الظلم ، والعنت ، والعدوان ، قل أن لقيها شعب سواه . وكانت حياة الناس ، فى هذين القرنين ، تـكاد تـكون حلقة متصلة ، مثيرة ، مؤلمة ، من المظالم والنـكبات . مظالم من الحاكم المستبد الجاهل . ونـكبات من الطبيعة القاسية . نـكبات قد يكون ظلم الحاكم سببا فى فداحتها ، وقسوتها وتـكرار حدوثها .

وفى ختام هذين القرنين ، تعرضت مصر لأول غزو أوربى منظم . بحملة نابليون عليها ، واحتلالها .

ولـكن شعب مصر ، فى غمار هذه المظالم والظلمات . لم يكُفّ عن الـكفاح . ليدفع عن نفسه وشرفه ظلم الظالمين ، وليرد عن وطنه عدوان المعتدين . وقد صمد لهذا كله . وقاوم الظلم والعنت ، والعدوان ، مقاومة باسلة مشرفة كريمة .

ومن يعتقد ، أو يظن ، أن شعب مصر كان فى تاريخه ذاك ، مستسلما للظلم ، راضيا بالهوان . أو أنه استـكان للمستبدين . أو خشى بأسهم — وبأسهم شديد — أو صبر عليهم وتركهم لقضاء الله . كما زعم كثير من الناس ومن المؤرخين . من ظنّ أن شعب مصر كان كذلك ، فقد ظلم نفسه ، وظلم وطنه .

أما ظلمه لنفسه ، فلأنه لم يعرف ، أو لم يقدر جهاد آبائه وأجداده فى كفاح الظالمين ورد المعتدين . ولم يدرك ما بذل هؤلاء وهؤلاء ، من قوة ومن عزم وصبر ، وما تحملوا من تضحيات غالية ، فى سبيل الحياة الـكريمة القوية الحرة ، التى كانوا يبغونها لأنفسهم ووطنهم .

وأما ظلمه لوطنه ، فلأنه يضمه وضماً غير كريم ، وغير صادق معاً . ويقبل ، فى تاريخ هذا الوطن ، ما لبّس المستعمرون والمستبدون ، وما دلسوا وزيفوا من هذا التاريخ الملفق الذى وضعوه لوطننا . فأظهروه ضعيفا متخاذلا ، مستـكينا

يقيم على الضيم . ولا يغضب لهوان . ولا يرد كيد الكائدين ، ولا جور الجائرين ، ولا عدوان المعتدين . وحاشاه ذلك .

هذه العقيدة الظالمة الخاطئة ، عقيدة الاستكانة للظلم ، والصبر على البلاء ، والتسليم بحكم القدر . روّج لها فى مصر المستبدون والمستعمرون . ومكّنوا لها فى نفوس الناس وعقولهم دهرا طويلا . حتى أوشكت أن تكون من الحقائق التى تعلو على المناقشة والجدل . والتمكين لهذه العقيدة ، والإيمان بها يفيد هؤلاء المستبدين والمستعمرين . ويوهم شعب مصر بأن قد صدق فيه قول المتنبي :

لكل امرىء من دهره ما تعودا

وقد آن لنا ، أن نراجع تاريخنا ، وأن ننقّ منه الزيوف والعقائد الضارة الخاطئة . وأن ندرك قيمة هذا الشعب الصبور فى غير جبن ، المتسامح فى غير تخاذل ، اللين فى غير ضعف ، الكريم فى غير مذلة ، والذى كان يثور كما يثور الإعصار ، إذا لم يجد سبيلا إلى حقه إلا الثورة والغضب .

آن لنا أن ندرك ، ويدرك الشعب ، قيمة نفسه ، ونخار ماضيه . خاصة فى هذه الفترة الحاسمة ، التى تحاول مصر فيها ، صابرة مثابرة جاهدة ، أن تبنى المستقبل وأن تبعث فى نفوس أبنائها من جديد ، إحساس الحرية ، والعزة ، والحياة الكريمة .

فى هذه الفترة الحاسمة ، يجب — أكثر من كل وقت آخر — أن نسترجع صور الفخار من تاريخ هذا الكفاح القوى الدائب المشرف لشعب مصر . وأن نقلب صفحات ماضينا ، وما كان لوطننا فيه من بذل وتضحية . ومن إباء وعزة ، على رغم ما كان فيه من بلاء وجهد ، وأن تمتلىء قلوبنا ، وعزائمنا ، بما توحيه هذه الصفحات من فخار ، ومن قوة وتصميم . حتى نواجه مستقبلنا ، ونحن على ذخيرة كافية من العزم والفهم والإدراك . وهى ذخيرة لابد منها لكل كفاح .

وهذا ما نحن بسبيله إذ نكتب هذه الفصول .

في سبيل العــــدل

سردار الإسكندرية وجند بولاق

كانت مصر ، في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، لا تكاد تجد حكومة منظمة ، مستقرة . بل كانت خاضعة لطائفة من أصحاب النفوذ والسطوة . يحكم كل منهم قطعة منها ، أو بلدا . حسبما يشاء ويشتهي . وكان هؤلاء الحاكمون ، من الأتراك أو من المماليك . وكلهم ، في الجملة ، كان شرا من صاحبه وأشد ظلما ، وأفحش عدوانا .

ولكن شعب مصر ، لم يكن على الدوام ، صابرا على هذا الشر والظلم والعدوان . بل كانت له غضبات شداد على هذا الظلم .

فمن هذه الغضبات ما فعله أهل الإسكندرية بحاكمين من حكامها الأتراك ، ففي شهر يونيو من سنة ١٧٨٥ كان يحكم المدينة رجلان ، قائد الجند التركي ، وكان يسمى أغات القلعة ، والسردار . وكان هؤلاء الجند يعتدون على الناس ، ويسلبون أموالهم ، وينهبون بيوتهم ، ويقتلونهم أيضا إذا شاءوا . ويعلم القائد والسردار أمر هذا الذي يفعله جنودهما بالناس ، فلا يغضبان عليهم . ولا يمنعانهم منه ، ويطلب الناس من القائدين أن يحفظا عليهم أمنهم ، وأموالهم ، وحياتهم من عدوان جندهم ، فلا يستجيبان لهم . ولا يسمعان .

وفي يوم من أيام هذا الشهر ، قتل جند السردار رجلا من أهل المدينة ، عدوانا وظلما . فلم يشتك الناس ، ولم يطلبوا أمنا ولا عدلا . بل دفعهم الغضب لأن يأخذوا بثأر قتيلهم ، وثأرهم ، بأيديهم ، فثاروا ، وقصدوا إلى حيث كان السردار فقبضوا عليه ، وضربوه ، واشتدوا في إهانته وتحقيره . ثم جرّسوه — وكانت عقوبة « التجريس » هذه ذائعة في تلك العهود — حلقوا نصف لحيته ،

وأركبوه على ظهر حمار ، وأخذوا يطوفون به على هـــذه الصورة شوارع الإسكندرية وطرقاتها ، عارى الرأس ، وهم يصفعونه ، ويضربونه بالنعال .

وهكذا كان ثأر الشعب لنفسه ، وغضبه على من يجور عليه ، ويمتهنه .

ومن هذه الغضبات ما فعله أهل بولاق بجند الدولة . فقد حاربوهم ، وظهروا عليهم .

كان ذلك فى بدء حكم محمد على . وكان هذا يستعين فى ذلك الوقت بطوائف الجند، من الأتراك ، والأرنؤود ، وجند الشام ، الذين كانوا يعرفون «بالدلاة» ، وغيرهم . وكان يضرب هؤلاء الأجناس المختلفة المتنافرة بعضها ببعض . ليستريح منها جميعا . كما يضربها بالمماليك ، ويضرب بها المماليك . فكان الناس فى هذه الفوضى الشاملة ، لا يجدون أمنا ولا سلاما . فيفزعون إلى زعيمهم عمر مكرم ، نصير محمد على وصديقه فى ذلك الوقت ، ولكن محمد على لا يستطيع ، أو لا يريد ، أن يزجر الجند ، ويكفهم عن الإضرار بالشعب ، وعن إيذائه . فلما كثرت شكاية الناس من عدوان الجند ، وأخذهم بيوتهم بالقهر والقوة . أمر محمد على بأن يترك الناس سلاحهم نهارا ، حتى لا يشتبكوا بالجند . وأن يحملوه ليلا ، لحماية أنفسهم . ولكن الشعب أبى أن يترك سلاحه . وقال الناس : إننا عندئذ نكون طعمة للجند نهارا ، وخفراء بالليل ، نحفظ الأمن فى بلد لا يستطيع حاكمه أن يحكم على جنده ورجاله . ووافق زعيمهم عمر مكرم على ماقالوا . بل أمرهم بالدفاع عن أنفسهم ، وألا يلقوا سلاحهم نهارا ولا ليلا .

وقدم جماعة من الجند الدلاة إلى بولاق ، فى شهر يوليو سنة ١٨٠٥ فدخلوا بيوت الناس ، وأخرجوا منها أهلها ، وسكنوها ، وربطوا فيها خيولهم . فهب أهل بولاق للدفاع عن أنفسهم وحرماتهم ، وكرامة بيوتهم . وحاربوا هؤلاء الجند . وقتل من هؤلاء وهؤلاء قتلى . ولكن أهل بولاق هزموا جند الدولة وظهروا عليهم . وأخرجوهم من بيوتهم .

قتل ياسف

ولم يكن غضب الشعب ولا ثورته ، يقفان عند حد التجريس والحرب . بل كان أيضاً يجازى الظالمين بإهدار دمهم ، وقتلهم . كما نرى فى قصة ياسف .

ففى رمضــان من سنة ١١٠٨ (ابريل سنة ١٦٩٧) طلب ملتزم دار الضرب — سك النقود — للسفر إلى إسلامبول . وكان هذا الملتزم اسمه « ياسف » اليهودى . فلما سافر سأله رجال الدولة عن أحوال مصر ، وهل يمكن أن تزاد الجبايات والضرائب على أهلها ... ؟ فقال بإمكان ذلك . وإنه كفيل بتحصيلها . ونظم لهم أمر هذه الزيادة . ففرح رجال الدولة بذلك ، وأعجبهم إخلاصه وتدبيره ، وكتبوا له الفرمانات والأوامر السلطانية ، بزيادة الضرائب . ثم عاد إلى مصر لينفذ مشيئة الدولة . فلما قدم مصر ، تلقاه قومه فى بولاق . وصمدوا به إلى الديوان . وقرئت الأوامر التى قدم بها . ووافقه الباشا على تنفيذها . ونادى رجاله بذلك على الناس فى الطرقات والشوارع .

يقول الجبرتى فاغتم الناس ، وتوجه التجار وأعيان البلد إلى الأمراء — يعنى المماليك — وراجعوهم فى ذلك . فركب الأمراء ، والصناجق وطلعوا إلى القلعة . وفاوضوا الباشا ، فجاوبهم بما لا يرضيهم . فقاموا عليه قومة واحدة ، وسألوه أن يسلمهم ياسفا ، فامتنع من تسليمه . فأغلظوا عليه وصمموا على أخذه منه . فلما لم يجد بداً من تسليمه ، طلب إليهم أن يضعوه فى العرقانة — السجن — ولا يشوشوا عليه ، حتى ينظروا فى أمره . ففعلوا به ذلك . ولـكن الجند قاموا على الباشا وطلبوا أن يسلمهم ياسفا ليقتلوه ، فامتنع . فمضوا إلى السجن وأخرجوه ، وقتلوه . وجروه من رجله ، وطرحوه فى الرميلة[1] . وقامت الرعايا — أى الشعب — فجمعوا حطبا وأحرقوه .

وذلك جزاء الظالمين .

---

(١) الآن ميدان المنشية .

وفى حادث ياسف هذا يروى الجبرتى شعرا ظريفا لشاعر معاصر هو الشيخ حسن البدرى الحجازى . فهو يصف ياسفا ، ومتى ، وكيف دخل القاهرة ، على ظهر جواده . ثم ماجرى له بعد ذلك من قصّ رقبته ، فيقول :

فظٌّ ، غليظ ، عنيف	سوء ، كريه لقاه
بعشر صوم أتانا	له جـــواد علاه
والناس تشتدّ سعياً	أمامـــه ووراه
ومنه أمر وفيـــه	ما قـــاده لرداه
لحين قصّ عليهم	ماقص ، قصّوا قفـاه
بصـارم ذى صقال	أزال عنا عنـــاه

الشيخ الدردير يقود الثورة

وفى هذه الثورات الشعبية التى كان يهب فيها أهل مصر لرد عدوان الظالمين عنهم ، وعقابهم أيضاً . كان العلماء والقادة يشاركون الشعب إحساسه وثورته . بل كثيرا ما كانوا يقودونه فى ثورته ، ويحرضونه . وللشيخ أحمد الدردير — وكان من أكبر العلماء ، ومفتيا للمالكية — فى ذلك مواقف كريمة ، نذكر بعضاً منها : —

فى يوم من أيام ربيـــع الأول من سنة ١٢٠٠ (يناير ١٧٨٦) قام حسين بك شفت[1] أحد كبار المماليك ، و معه طائفة من جنوده قاصدا منطقة الحسينية واقتحم دار رجل اسمه أحمد سالم الجزار ، كان رئيسا على دراويش الشيخ البيومى ، ونهب الأمير حسين دار هذا الشيخ . وفى صباح اليوم التالى ثار جماعة من الحسينية ، وخرجوا إلى الأزهر ، وشكوا أمرهم إلى الشيخ أحمد الدردير ، فشجعهم فى ثورتهم ، وغضب لهم وقال لهم أنا معكم . فقام الغاضبون

(١) يقول الجبرتى إن « شفت » معناها اليهودى . والأرجح أنها محرفة من كلمة « جفت » التركية . بهذا المعنى .

إلى أبواب الأزهر فغلقوها ، وصعدت طائفة منهم على المآذن يصيحون ، ويدقون الطبول ، وانتشر الناس فى الأسواق وقد ظهر عليهم الغضب والتحفز ، وأقفل التجار متاجرهم . فلما رأى الشيخ الدردير ثورتهم هذه قال لهم : موعدنا غد ، لنجمع الناس من أطراف المدينة ، وبولاق ومصر القديمة . وأسير معكم إلى بيوت هؤلاء الأمراء ننهبها كما ينهبون بيوتنا . وسينصرنا الله عليهم ، أونموت شهداء ، وبعد ساعات من النهار ، أرسل إبراهيم بك ، شيخ البلد وكبير المماليك، ونائبه ، أميرا آخر ، إلى الشيخ الدردير يرجوه أن يرسل إليه قائمة بجميع ما نهب من بيت الشيخ الجزار حتى يرده إليه .

وفى شهر جمادى الآخرة ، من السنة نفسها كان مولد السيد البدوى ، فى طنطا ، وكان الشيخ الدردير فى المولد ، وجاء كاشف الغربية ، أى حاكمها ، من قبل إبراهيم بك ، ففرض على الناس مغارم ثقيلة . وأخذ إبلا لبعض الأعراب كانوا يبيعونها فى المولد . فشكوا أمرهم إلى الشيخ . فأمر بعض أتباعه أن يذهبوا إلى الكاشف ، فخشوا بطشه ، ولم يذهبوا . فركب الشيخ بنفسه ، ومعه بعض أتباعه ، وكثير من العامة . فلما أقبل على خيمة الكاشف ناداه فحضر إليه . وكلمه الشيخ ، وهو على ظهر بغلته وقال له : إنكم لاتخافون الله . واشتد عليه بالتأنيب والزجر . فلما رأى الناس ذلك خرجوا عن طورهم . وضربوا نائب الكاشف . وقامت فتنة بينهم وبين الجند ضرب فيها وأسر واحد من أتباع الشيخ . وذهبّ كاشف المنوفية وكاشف الغربية بعـــد ذلك يعتذران إلى الشيخ . ولما عاد إلى القاهرة قدم إبراهيم بك بنفسه إلى منزله معتذرا ومعه كبار المماليك .

وقبل ذلك بعشر سنين ، آلت بعض الأوقاف المحبوسة على طلبة العلم إلى الطلبة المغاربة . ولكن واضع اليد جحد هذه الأيلولة ، وأبى أن يسلم الحق لأصحابه . ولجأ فى ذلك إلى الأمير يوسف بك ، أمير الحاج ، فنصره هذا على باطله . وأقام المغاربة دعواهم أمام القاضى ، فأثبت لهم حقهم . ولكن الأمر كبر

على يوسف بك وأبى أن يمتثل لحكم القضاء . بل أمر بالشيخ عباس — زعيم المطالبين بوقف المغاربة — أن يساق إلى السجن . فلما ذهب رسل الأمير يوسف بك إلى الأزهر لأخذ الشيخ عباس ، طردهم الأزهريون ، وسبّوهم ، ولم يمكنوهم منه . ثم قصدوا إلى الشيخ أحمد الدردير فأخبروه الخبر . فكتب الشيخ إلى يوسف بك ألا يتعرض لأهل العلم ، وألا يعاند فى حكم أصدره القاضى . وأرسل الشيخ كتابه هذا إلى يوسف بك مع شيخين اختارهما لذلك . فلما وصل الشيخان برسالة الدردير ، أمر يوسف بك بالقبض عليهما ، وزجرهما ، زجرا شديدا . ثم سجنهما .

ووصل خبر ذلك إلى الشيخ الدردير ، وأهل الأزهر . فاجتمعوا عند الصباح وأبطلوا دروس العلم ، والأذان ، والصلاة . وأقفلوا أبواب الجامع . وجلس العلماء عند القبلة القديمة . وكان الأزهر يموج بالناس ، فصعد الصغار منهم إلى المنارات والمآذن يكثرون من الدعاء على الأمراء . وشارك الشعب أهل الأزهر شعورهم بالسخط واحتجاجهم على الظلم ، فغلقت الحوانيت والمتاجر . وعرف الأمراء ماجرى فأرسلوا إلى يوسف بك ليطلق سراح الشيخين ، فأطلقهما ، وأرسل شيخ البلد إبراهيم بك ، كبيرا من رجاله إلى العلماء ، فلم يستطع إرضاءهم . وجاء كبير آخر يطلب إلى الناس أن يفتحوا متاجرهم ، وينصرفوا لشأنهم . فذهب إليه طلبة الأزهر ، وجموع من الشعب بأيديهم العصى والمساوق . وضربوا أتباع هذا الكبير ورجموهم بالحجارة . فأطلق عليهم هو ورجاله الرصاص . وقتل ثلاثة من الطلبة ، وجرح بعض أفراد الشعب . وخشى الأمراء بعد ذلك أن يتفاقم الخطب ، وتزيد ثورة الشعب والعلماء اشتعالا ، فأرسلوا فى اليوم التالى كبيرا منهم ، مع الشيخ السادات ، وآخرين من الأمراء . ورأوا من الحكمة ألا يذهبوا إلى الأزهر ، فى وسط هذه الفتنة . فجلسوا فى مسجد الأشرف ، وأرسلوا إلى أهل الأزهر ومن معهم من الثائرين ، أنّ طلباتهم أجيبت ، فلم يقنعهم ذلك ، ولم يتركوا أماكنهم . فلم ير إسماعيل بك ، كبير الأمراء ، بداً من أن يذهب بنفسه إليهم . فنزل مع الشيخ السادات . ولم يستطع أن يواجه الثائرين

داخل الأزهر ، فجلس مع السادات فى مسجد المؤيد ، وأرسلا إليهم كتابا تعهد فيه إسماعيل بك بأن يجيب رغائبهم ، ويقبل جميع مايطلبون ، وقال : إن ضمينه فى ذلك الشيخ السادات . وظل إسماعيل بك يراسل المترسين داخل الأزهر يوما كاملا حتى استجابوا ، وفتحوا أبواب الأزهر ، وكان مما شرطوه على إسماعيل بك ألا يمرّ الأغا ، ولا الوالى أو المحتسب قريبا من الأزهر .

واعظ من الروم

وفى سنة ١٧١١ كان فى القاهرة واعظ رومى ، أى تركى ، جلس فى مسجد المؤيد يدعو الناس إلى ترك البدعة، والمغالاة فى زيارة الأضرحة والقبور، والتوسل. وقام بينه وبين مخالفيه فى هذه الدعوة نزاع شديد . استعان فيه المخالفون بفتوى أصدرها بعض العلماء ، واستعان فيه الواعظ الرومى بأنصاره الذين آمنوا بفكرته واعتقدوها . وكانوا جمعا عظيما ، يقرب من الألاف . فسار بهم إلى أن دخل بيت القاضى . فلما رآهم القاضى ، وشاهد كثرتهم ، انزعج منهم . ثم سألهم عما يريدون ، فقالوا : نريد أن تحضر الذين أصدروا هذه الفتوى لنباحثهم أمامك. فاحتال عليهم القاضى ليتخلص منهم . ولكنهم لم يتركوه حتى استصدروا منه فتوى بصحة رأى الواعظ وغلط مخالفيه . وكانت بين القاضى وترجمانه ، وبين جماهير الشعب ، موقعة صغيرة . ضرب فيها الترجمان ، واختفى القاضى وحريمه . ولكن الواعظ الرومى اختفى أيضا : مُنع من إلقاء درسه . فلما ذهب الناس إلى مسجد المؤيد ولم يجدوه ، ذهبوا بجمعهم إلى المحكمة . فلما رآهم القاضى ومن فيها ، طارت عقولهم من الخوف ، وفر من بالمحكمة من الشهود . ولم يبق إلا القاضى . فدخلوا عليه وقالوا له : أين شيخنا . . . . ؟ فقال لا أدرى . فطلبوا إليه أن يذهب معهم إلى الوالى ليحدثه فى هذا الشأن . ويطلب إليه أن يحضر المخالفين للواعظ ليناقشوهم . فإن أثبتوا دعواهم ، نجوا ، وإلا قتلناهم . فركب معهم القاضى ، وهم يحيطون به ، إلى أن صعدوا إلى القلعة لمقابلة الباشا الوالى . فتحدث هـــذا إلى القاضى ، حديثا فيه لوم على حضوره مع هــذه

الجموع الكثيرة الغاضبة . وفيه توجس وخوف من غضب هؤلاء الثائرين . فقال له القاضي : — انظر إليهم . فهم الذين أرغمونى على أن أجيء معهم إليك .

ونظر الباشا إلى الثائرين على خطف شيخهم . ورأى فى عيونهم نظرة الشر والغضب والتحدى . ولم يستطع أن يصطدم بهم . فأمر بما يريدون . أن يحضر الشيخان اللذان عارضا الواعظ ليجادلاه . وأن يمكن هذامن إلقاء وعظه . وذهب الناس فجاءوا بواعظهم وأجلسوه على مقعده فى مسجد المؤيد[1] .

أحمد باشا الدفتردار

ولم تكن ثورة الشعب على الأمراء ، والجند ، والحكام ، وخدمهم . بل كان يثور على الولاة أنفسهم . يتحداهم ويحاربهم ، وهو بذلك يحارب سلطان الدولة التى ولتهم فى إسلامبول . ونجد فى تاريخ هذه الفترة كثيرا من الثورات الشعبية التى عصفت بحكم الوالى نفسه . ونجد أن أهل القاهرة استطاعوا ، غير مرة ، أن يعزلوا الظلمة من الولاة . وأن ينزلوهم من القلعة ، مقر الحكم إذ ذاك ، وأن يرغموا السلطان على إقالتهم وإخراجهم من مصر ، مقهورين ، مهانين .

فمن ذلك ما حدث للوالى أحمد باشا الدفتردار . فى سنة ١٠٨٦ هـ ١٦٧٥ م ، اختارته الدولة واليا على مصر . وعرف الناس أنه سيحدث أحداثا من الضرائب والمظالم . وكان له صديق اسمه عبد الفتاح أفندى الشعراوى قدم معه من إسلامبول ، وكان الناس يعتقدون أنه يحرضه على هذه الأحداث . فوقفوا فى طريقه عند نزوله من القلعة وقتلوه وقطعوا أوصاله . ثم ذهبوا إلى أحمد باشا فى القلعة ، وساعدهم الجند والأمراء ، وطلبوا إليه أن يعتزل ، فأبى ، فهددوه بالقتل ، وأن يصنعوا به مثل ما صنعوا بصديقه الشعراوى . ثم نظر فرأى ثورة الشعب ،

(١) تفصيل قصة هذا الواعظ فى الجزء الأول من هذا الكتاب ، ص ٩٧ — ١٠٠

وتربصهم به ، وأنهم يحيطون بالقلعة ، يزيد عددهم ولاينقص . فآثر السلامة ، ونزل ، فوضع فى بيت يحى الصليبة ، حتى جاء خلفه وصعد إلى القلعة .

زحف الجياع

بل نجد أن الفقراء ، والنساء ، والشحاذين . كانت لهم ثورة عزل بسببها وال ظالم .

فقد جاءت سنة ١١٠٧ (١٦٩٥م) ومصر تعانى غلاء شديدا ، ومجاعة ، والناس فى كرب عظيم ، بالقاهرة والأقاليم . ونزح أهل القرى إلى مصر ، حتى امتلأت منهم الأزقة . وأكل الناس الجيف ، ومات الكثير من الجوع . وخلت القرى من أهلها . وخطف الفقراء الخبز من الأسواق ، ومن الأفران ، ومن فوق رؤوس الخبازين . يذهب الرجلان والثلاثة مع طبق الخبز يحرسونه وبأيديهم العصى ، حتى يخبزوه بالفرن ثم يعودوا به . وكانت مع ذلك ، خزائن الوالى وكبار رجاله ملآى بالقمح ، وغيره من خيرات مصر .

يقول الجبرتى : « وفى منتصف المحرم ، اجتمع الفقراء والشحاذون ، رجالا ، ونساء ، وصبيانا . وطلعوا إلى القلعة ، ووقفوا بحوش الديوان ، وصاحوا من الجوع . فلم يجبهم أحد ، فرجموا بالأحجار . فركب الوالى وطردهم فنزلوا إلى الرميلة ونهبوا حواصل الغلة التى بها ، ووكالة القمح ، وحاصل كتخدا (أى نائب الباشا) وكان ملآنا بالشعير والفول . وكانت من هذه الحادثة ابتداء الغلاء[1] » .

وكان من نتيجة هذه السياسة الظالمة ، العجيبة . وتخفيفا لغضب الشعب ، أن عزل هـذا الوالى الظالم ، على باشا خازن دار ، واستبدل به إسماعيل باشا ، فلما استقر بالقلعة ، فى يوم الخميس السابع عشر من صفر ، ورأى ما فيه الناس من الكرب والجوع ، أمر بجمع الفقراء والشحاذين ، بقراميدان . فلما اجتمعوا أمر بتوزيعهم على الأمراء والأعيان . كل إنسان على قدر حاله . واختص هو

(١) ما أقتبسه من الجبرتى أنقله بنصه ، وما قد يكون فيه من خطأ .

وأعيان دولته بفريق منهم ، وعيّن لهم ما يكفيهم من الخبز والطعام ، صبحا ومساء ، إلى أن انقضى الغلاء . وجاء بعد ذلك وباء عظيم . فأمر هذا الوالى بتكفين الموتى من الفقراء والغرباء ، من بيت المال . فصاروا يحملونهم من الطرقات ، ويذهبون بهم إلى مغسل السلطان ، عند سبيل المؤمن .

وقد عزل على باشا الظالم ، بعد ثلاثة أيام من زحف الجياع .

وقد نقلت ما وصف به الجبرتى حال الناس من الجوع والمرض ، لنستطيع أن ندرك ما كان عليه الشعب من التلاشى . ومع ذلك فقد كان يثور ، ويفتك بظالميه ، ويعزلهم من الولاية .

وثيقة حقوق الإنسان

واستطاع شعب مصر ، فى ثوراته القوية المتعددة على الظلم والظالمين ، أن ينتزع منهم « وثيقة حقوق الإنسان » فى الحرية ، والعدل ، والأمن . قبل أن يستتب الأمر للثورات الكبرى ، فى أوربا .

ففى شهر ذى الحجة من سنة ١٢٠٩ (١٧٩٥ م) جاء إلى الشيخ عبد الله الشرقاوى جماعة من فلاحى مدينة بلبيس — وكان له أرض بها — فشكوا إليه محمد بك الألفى ، وأنه يفرض عليهم مالا قدرة لهم به . فغضب الشيخ وتوجه إلى الأزهر فجمع شيوخه وأقفلوا أبواب الجامع وأمروا الناس بترك الأسواق والمتاجر .

وركب الشيوخ فى اليوم التالى ، وتبعهم كثير من الناس ، إلى بيت الشيخ محمد السادات . واجتمع جمهور كبير من الشعب . وكان بيت إبراهيم بك ، شيخ البلد ، قريبا من بيت السادات . فلما رأى زحمة الناس وتكاثرهم ، أرسل أيوب بك الدفتردار إلى العلماء ، فوقف بين يديهم ، يسألهم عن مرادهم . فقالوا : نريد العدل، ورفع الظلم والجور ، وإقامة الشرع ، وإبطال الحوادث والمكوسات . أى الضرائب .

وكانت ملحمة كلامية شديدة ، بين العلماء وأيوب بك . قال العلماء فيها مخاطبين الحكام : إن ما تدّعونه من كثرة النفقات : ليس بعذر عند الله ، ولا عند الناس ، وما الباعث على الإكثار من النفقات والأمير يكون أميرا بالإعطاء لا بالأخذ ... ؟

وبلغ الأمر غايته ، وخاف إبراهيم بك مغبة الثورة . فأرسل إلى العلماء — وكانوا يقضون ليلتهم داخل الأزهر — : أنه يؤيدهم في غضبهم ويبرئ نفسه من تبعة الظلم ، ويلقيها على كاهل شريكه مراد بك . وأرسل في الوقت نفسه ، إلى مراد يحذره عاقبة الثورة . واستسلم مراد بك ، فأرسل إلى العلماء ، والشعب من ورائهم ، يجيبهم إلى مايطلبون .

وفي اليوم الثالث — وكان العلماء والناس معهم لايزالون مرابطين داخل الأزهر — حضر الوالى إلى منزل إبراهيم بك ، واجتمع الأمراء أيضا ، وأرسلوا إلى العلماء ، فحضر منهم الشيخ السادات ، والسيد عمر مكرم ، والشيخ الشرقاوى ، والشيخ البكرى ، والشيخ الأمير . وكان هؤلاء رسل الثورة وقوادها ، وطال الجدل بين الشيوخ وبين الأمراء ، ثم انتهى بأن أعلن الظالمون أنهم تابوا ورجعوا ، والتزموا ماشرطه العلماء عليهم . وأعلنوا أنهم سيبطلون المظالم والضرائب المحدثة ، ويأمرون أتباعهم بالكف عن سلب أموال الناس ، ويرسلون أوقاف الحرمين الشريفين ، والعوائد المقررة إليهما . ويسيرون فى الناس سيرة حسنة .

وكان قاضى القضاة حاضرا هذا المجلس . فكتب على الأمراء وثيقة بذلك . أمضاها الوالى وإبراهيم بك ، ومراد بك . وخرج العلماء من هذا المجلس التاريخى تحيط بكل واحد منهم جماعة عظيمة ، وهم ينادون : لقد رسم سادتنا العلماء ، أن المظالم رفعت عن مملكة الديار المصرية ، وفرح الناس .

وهذه وثيقة حقوق الإنسان . أعلنها شعب مصر ، وقهر حاكميه ، على توقيعها منذ ١٦٠ عاما .

خورشيد باشا والفلاحون

أما كفاح الشعب للوالى أحمد باشا خورشيد ، وحصاره له ، وحربه الطويلة الشاقة معه ، ثم عزله . فهو كفاح جدير بشعب مصر حقاً ، وهذه قصته .

كانت مصر فى مستهل القرن التاسع عشر نهبا للأعاصير والزعازع والفتن ، بعد خروج الحملة الفرنسية منها ، وبعد هذه السنين القاسية ، التى كافحت مصر فيها كفاح الأبطال للتخلص من هذه الحملة .

وجاءت سنة ١٨٠٥ وفى ولاية مصر أحمد باشا خورشيد . وكان رجلا ظالماً يستعين على ظلم المصريين بجند « الدلاة » أو « الدلاتية » وكانوا أكثر طوائف الجند قسوة ، وتنكيلا ، وجورا على أهل مصر . كما رأينا من وصفهم فى الجزء الأول .

وارتفع صوت الشعب ، طالبا إلى هذا الحاكم الظالم أن يعتزل حكمه . ولكنه أبى أن يستمع . بل أدلّ بقوته وجبروته . وطلب إلى السيد عمر مكرم — زعيم مصر إذ ذاك — وإلى العلماء أن يجيئوا إليه . فلما جاءوه ، قال لهم بصوت الحاكم المطلق : إنى موَلى بأمر السلطان (وكيل مفوض ودستور مكرم أعزل من أشاء وأولّى من أشاء) ولكن صاحب هذه السطوة كلها لم يفلح فى إرهاب الشعب ، فقد بدأ العلماء يجتمعون ويتشاورون ، ثم انتهوا إلى الامتناع عن إلقاء دروسهم فى الأزهر ، وبدأ الشعب بقيادة زعيمه عمر مكرم ، يتحفز للثورة على مفوض السلطان وصاحب الدستور المكرم ..!

وعندما رأى خورشيد هذه القوة من روح الشعب ، أرسل نائبه إلى العلماء ، وإلى السيد عمر ، يتودّد إليهم فلم ينخدعوا له ، وتربص الشعب بنائب الوالى فأوسعه رجما بالحجارة ، وسبوه ، وشتموه .

ثم اجتمع العلماء والناس ، حتى الصبيان ، فى بيت قاضى القضاة . وأجمعوا أمرهم على التخلص من هذا الباشا الظالم . واتفق رأى الجميع على أن يكتب القاضى إلى كبار أهل الدولة ، فحضروا جميعا ، وطفقوا يتزلفون إلى ممثلى الشعب من العلماء والقادة . ثم جعلوا أنفسهم وسطاء بين الشعب والوالى . وأرسل خورشيد ، بعد أن نقل إليه أنصاره ماشهدوا من غضب العلماء والشعب ، أرسل يطلب إليه القاضى

والعلماء بزعم أنه يستشيرهم . ولـكن السيد عمر ، منعهم من الذهاب . فامتنعوا .
وفى اليوم التالى لهذا الرفض اجتمع الزعيم عمر مكرم بالعلماء ، وبكثير من الشعب فعزلوا خورشيد ، ثم أبلغوه قرارهم ، فـكان جوابه أن قال : إنى موَلى من طرف السلطان فلا أعزل بأمر الفلاحين ... !

عند ذلك خرج الناس ، حتى العلماء ، يحملون سلاحهم وعصيهم . فامتلأت بهم بركة الأزبكية . وكتب قاضى القضاة إلى خورشيد يحذره نتيجة عناده وشططه . وقال له : إنه حضر إلىّ نحو أربعين ألفا من الناس يطالبون بعزلـكم أو حربكم . وأخذ مكرم والعلماء يحرضون الناس على الحرب ، ويأمرونهم بحصار القلعة ، حتى ينزل منها خورشيد . وأطاع الشعب أمر قادته ، فخرج الناس أفواجاً يتسابقون ويقيمون المتاريس ، ويحكمون الحصار ، وينيرون فى الليل المشاعل ، ساهرين يرقبون مايفعله خورشيد وجنده . وجاءت جموع المحاربين ثائرة من الحسينية والعطوف والقلعة والأزهر والقرافة والصليبة ومن أطراف القاهرة ، ومعهم طبولهم وبيارقهم وأسلحتهم ملبين أمر قادتهم . وقد بلغت حماسة الشعب حدا فائقا ، حتى كان الفقير يبيع ثيابه أو يستدين ليشترى سلاحا . وشارك القبط إخوانهم المسلمين موقفهم وشعورهم ، وكان كبيرهم المعلم جرجس الجوهرى ، يجتمع بالعلماء الشيوخ : الشرقاوى والأمير وقاضى القضاة فى بيت السيد عمر لتنظيم الثورة وتوجيهها .

وفى غمار هذه الحماسة الفياضة ، جاء كبير من رجال خورشيد . يريد أن يوهن عزيمة السيد عمر مكرم . وأن يثير شـكوكه فى صواب مافعلوا ، وأن يوقع الفتنة بينه وبين غيره من العلماء والقادة . قال الـكبير من رجال خورشيد للسيد عمر : كيف تعزلون من ولاه السلطان عليـكم . وقد قال الله تعالى : — وأطيعوا الله ، وأطيعوا الرسول ، وأولى الأمر منـكم ؟ ولـكن الزعيم مكرما أجابه بما أسكته ، ولم يكن يخطر له ببال ، فقال : أولوا الأمر ، العلماء ، وحملة الشريعة ، والسلطان العادل . وهذا الرجل ظالم . وللناس أن يعزلوا الحاكم الظالم ، وأن يخلعوه . حتى الخليفة والسلطان إذا سار فيهم بالجور ، فإنهم يعزلونه ويخلعونه .

وهذا الجواب من عمر مكرم ، يدلنا على مستوى الإدراك السياسى والحرص على حقوق الشعب وسيادته ، عند أهل وطننا منذ مئة وخمسين سنة .

ثم سار عمر مكرم ، بعد هذه المناقشة المفحمة ، على رأس الجموع المسلحة من أبناء الشعب ، ليحكم الحصار على القلعة . وتخلّف بعض من الجند كان يحاصر القلعة مع المحاصرين — وكان ذلك بسبب رواتبهم — فذهب جماعة من المتطوعين فأقاموا مقامهم .

وطال الحصار بخورشيد وأوشك أن يفتك به وبقومه الجوع والعطش . فأرسل كتابا إلى بعض أنصاره ، فى قليوب ، يطلب إليهم أن يخرجوه من حصار « الفلاحين » « صيانة لعرض السلطنة . وناموس الدين » ولكنهم ، خشية من غضب الشعب ، بعثوا برسالته إلى السيد عمر مكرم .

وبقى الشعب يحاصر خورشيد باشا ومن معه فى القلعة زمناً يقرب من شهرين حتى ضاق به وبهم الحال . وكان بعض رجاله يتسلل إلى خارجها لينال شيئا من طعام أوماء ، فكان الناس يأخذونه أسيرا ، أو يقتلونه ، وفى كثير من أيام هذا الحصار الطويل كانت مدافع القلعة ترمى قنابلها على الناس والبيوت ، وبعض هذه القنابل كان يزن قنطارين ، فكان المحاصرون والمتطوعون من أبناء الشعب يرمون قنابل مدافعهم كذلك على القلعة .

ثم جاء بعد ذلك « فرمان » من السلطان بعزل خورشيد ، نزولا على إرادة الشعب . وقدم بالفرمان من إسطنبول رسول خاص هو بشير أغا . ولكن خورشيد أصر على عناده ، ولم يمتثل أمر السلطان وقال إنى وليت حكم مصر « بخطوط شريفة ، وأوامر منيفة ، ولاأنعزل بورقة . . ! » .

وبقيت الحرب ، وبقى الحصار أياما أخرى حتى جاء إلى خورشيد باشا مرة ثانية « سلحدار » من قبل السلطان ومعه أمر بالنزول من القلعة لساعته حيث لم يرض العلماء والناس أن يظل والياً عليهم . وصعد رسولا السلطان ، بشير أغا

والسلحدار ، إلى القلعة فاجتمعا بخورشيد ، وشكا إليهما ما أصابه من حرب أهل مصر وحصارهم له حتى لم يبق عنده غير الثوب الذى يلبسه . !

وأرسل السيد عمر مكرم مائتين من الإبل فحملت متاع المحاصرين ونساء خورشيد ثم نزل هو فاستضافه مكرم . ولعله أراد أمراً آخر غير الضيافة زيادة فى الحذر والحيطة . لأنه حذر الناس من ترك سلاحهم ومتاريسهم حتى يرحل خورشيد ومن معه ، وقال : — هؤلاء قوم لاعهد لهم ولا ذمة ، ولا يؤمنون .

وبقى خورشيد فى بيت الزعيم مكرم خمسة أيام ثم خرج — فى ١٣ أغسطس سنة ١٨٠٥ — فركب النيل من بولاق، بعد أن حاربه أهل مصر ، وحصروه فى القلعة حوالى ثلاثة أشهر. خرج الحاكم الظالم مقهورا بعزيمة من كان يسميهم «الفلاحين» .

وعاد العلماء ففتحوا أبواب الأزهر ، وقرأوا دروسهم ، وفتح الناس متاجرهم ، وتركوا سلاحهم فرحين ، وانصرف كل لشأنه .

لقد انتصرت إرادة الشعب .

ويجب أن نلاحظ ونحن نسجل هذا النصر الحاسم لشعب مصر ، أنه كان ثمرة لاتحاد الشعب كله ، قادته وأفراده .

فقد رأينا أصحاب الرأى والسيادة ، وهم العلماء ، يقودون الشعب ويحملون — إذا لزم الأمر — سلاحهم يقاتلون .

ورأينا ممثل السلطة الروحية العليا ، وهو قاضى القضاة ، ولو أنه كان تركيا ، يستجيب لصوت الشعب ، وينصاع له وينصره . ورأينا القبط مع المسلمين يدا واحدة ، وإحساسا واحدا . يشترك كبيرهم مع العلماء والقاضى ، فى السعى والتدبير لنصرة الشعب ، ونجاح ثورته .

ورأينا قبل هؤلاء زعيم مصر السياسى ، عمر مكرم ، يقود هذه الثورة بفكره الراجح ، وشجاعته وفطنته .

ورأينا هؤلاء جميعاً ، يؤمنون بفكرتهم ، وبالشعب . ويؤثرونها ويؤثرونه ،

على راحتهم ، وأموالهم ، وحياتهم . ليس فى نفوسهم حسد ، ولا ضغينة ، ولا أنانية . ولا تستتر فى ضمائرهم أحاسيس خفية ، ولا شهوات ، ولا مطامع .

ورأينا ، خلف هؤلاء وهؤلاء ، شعب مصر المكافح ، يثق بقادته . ويؤمن بهم ، ويطيعهم . كان الشعب ينظر إلى قادته نظرة الرضى ، والثقة ، والأمن والطمأنينة . وكان القادة ينظرون إلى الشعب نظرة المودّة ، والمحبّة والتضحية ، والصدق ، فنجحوا ، ونجح الشعب .

وقد أبرزت هذه الروح بطلا شعبيا كان له أثر عظيم فى هذا النجاح ، وهو حجاج الخضرى[1] .

وصدق مهيار الديلمى إذ يقول :

نام ، على الهـــون ، الذليلُ ، ودَرى

جفن العزيز ، لم بات يسهد

(١) ترجمة حجاج الخضرى فى أواخر هذا الفصل .

فى سبيل الحرية



توجد فى العالم قوتان ، قوة المادة ، وقوة الروح · وقوة الروح دائماً هى الغالبة .

نابليون



الإنجليز والفرنسيون (*)

بدأ الجبرتي حديثه عن سنة ١٢١٣ ، (١٧٩٨ م) وهى السنة التى قدمت فيها حملة نابليون ، بهذه الفقرات القوية المؤثرة . والتى هى فى الوقت نفسه ، صادقة كل الصدق : — (هى أول سنى الملاحم العظيمة ، والحوادث الجسيمة ، والوقائع النازلة ، والنوازل الهائلة . وتضاعف الشرور . وترادف الأمور ، وتوالى المحن ، واختلال الزمن ، وانعكاس المطبوع ، وانقلاب الموضوع ، وتتابع الأهوال ، واختلاف الأحوال . وفساد التدبير ، وحصول التدمير . وعموم الخراب ، وتواتر الأسباب . وما كان ربك مهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون)

والحق أن حملة نابليون على مصر ، كانت نقطة تحول فى تاريخها . وكانت ذات أثر بالغ فى حياة أهلها ، ومستقبلهم . كما كانت محنة من أشد المحن ، التى لقيتها مصر .

وقد تلقى المصريون حملة نابليون ، كما تلقوا الحملة الإنجليزية بعد ذلك ، بعزيمة الرجال ، ودافعوا عن وطنهم دفاع الأبطال . فلم يمكنوا للإنجليز من البقاء فى الإسكندرية ، وجعلوا إقامة نابليون وجنوده فى بلادهم غير سائغة ، ولا مستطاعة . بعد أن مكنهم مراد وإبراهيم ، بحماقتهم . وجبنهم ، وسوء تدبيرهم . من دخول القاهرة ، بعد مقاومة لم تدم ساعة واحدة .

وكانت المقاومة التى لقيها الإنجليز والفرنسيون ، من شعب مصر . صفحة فخار ومجد وبطولة . قل أن نجد لها نظيرا فى تاريخ الشعوب المكافحة عن حريتها ، وكرامتها ، وأوطانها . وكانت الظروف التى يخضع لها شعب مصر فى ذلك الوقت ،

(*) اعتمدت فى هذا الفصل على مصادر أخرى كثيرة ، غير الجبرتى . لقصوره فى كثير من النواحى .

ظروفاً غريبة ، شاذة . تضاعف من قيمة هذا الكفاح . وتزيد فى فخارها به .

فقد كانت البلاد خاضعة لحكم فاسد ، كله ظلم ، وظلمات . وكان أهلها بين شقَّىْ الرَّحىَ . من منازعات المماليك ، بين بعضهم وبعض تارة ، وبينهم وبين الدولة تارة أخرى ، أو بينهم وبين محمد على . ومن ظلم الولاة الأتراك وجنودهم . وكان مراد قد تسلط عليها هو وشريكه إبراهيم ، وأذاق أهلها من الظلم ما لم يروه فى تاريخهم الطويل ، فلما قدم الإنجليز ، والفرنسيون من قبلهم ، هب المصريون ، من الفلاحين ، والفقراء ، والعامة ، وطلبة الأزهر ، والنساء . للدفاع عن وطنهم ، الذى لم يجدوا فيه أمناً ، ولاسلاما ، ولاطمأنينة . بل لم يجدوا فيه لقمة العيش . فقد كان الظالمون ينزعونها من أفواههم . ولكن المصريين أيقنوا أنه وطنهم ، فلا بد أن يدافعوا عن ترابه . ولو لم ينالوا منه غير هذا التراب . وأن هؤلاء الظالمين لن يدافعوا عنه لأنهم لا يستحقون شرف هذا الدفاع . وأنهم سيجلون عنه يوما ، عاجلا أو آجلا ، كما تنجلى الظلمات .

وهذه الصفحات ، التى نلخصها عن « كفاح الشعب » ضد الغزو الإنجليزى ، والاحتلال الفرنسى . يجب أن تملأ قلوبنا بالفخار ، والعزة والشمم . كما يجب أن ندرسها بوعى جديد .

ومع أن الحملة الفرنسية على مصر كانت ، من الوجهة التاريخية ، أسبق من الغزو الإنجليزى . فقد قدمته عليها . لأن الحديث عن هذه الحملة طويل .

الإنجليز فى الإسكندرية ورشيد

فى يوم الخميس ١٨ من المحرم سنة ١٢١٣ (٢١ يونيو سنة ١٧٩٨ م) قدمت خمس وعشرون سفينة إنجليزية إلى الإسكندرية . ثم نزل عشرة من رجالها إلى المدينة فالتقوا بكبار رجالها . وسألهم السيد محمد كريم ، حاكم الإسكندرية من قبل مراد بك ، عن خبرهم ، فأجابوه بأنهم يبحثون عن الفرنسيين . لأنهم قدموا بأسطول كبير ، وجيش عظيم . لا يستطيع المصريون أن يحاربوه . ثم قالوا : ونحن نكفيكم مؤونة هذه الحرب . فأجابهم السيد كريم بجواب خشن ، وأغلظ لهم القول . فعرضوا

عليه أن يقفوا فى البحر ، يحرسون المدينة ، وأن يمدهم بالزاد والماء بثمنه ، فرفض. وأقلع الأسطول الإنجليزى . وكانت هـذه هى المحاولة الأولى ، من الإنجليز ، لغزو مصر .

وبعد ذلك بثمانى سنوات ، وكان نابليون قد غادر مصر ، وغادرتها الجيوش الفرنسية . عاد الأسطول الإنجليزى ، مرة أخرى ، إلى الإسكندرية . ولكنهم فى هـــذه المرة ، لم ينصرفوا عنها حين ردهم أهلها . بل أطلقوا عليها المدافع ، ودخلوها . بحجة المحافظة عليها من الفرنسيين . . ! ويحـــدد الجبرتى لدخولهم الإسكندرية يوم الخميس التاسع من شهر المحرم سنة ١٢٢٢ (١٩ مارس ١٨٠٧ م) أى بعد ثمانى سنوات هجرية من المحاولة الأولى .

وكان الإنجليز ، فى هذه المرة ، قدموا مصر باستدعاء محمد بك الألفى ، كبير المماليك وزعيمهم فى ذلك الوقت . فقد سافر الألفى إلى إنجلترا ، وأقام فيها زمنا . وتحالف معهم على أن يسيّروا حملة على مصر ، لنصرته على محمد على . وقدم الإنجليز بناء على هذا الاستدعاء . وكان الألفى قد سبقهم إلى مصر ، ليجمع أنصاره ، ويكمل تسليح جيوشه ، ويمهد لدخول الإنجليز . وبعد أن أتم ذلك . قدم إلى دمنهور ينتظر جيوشهم . ولكن أهل هذه المدينة حاربوه ، ومنعوه من دخولها . فلما لم يستطع الاستيلاء على دمنهور ، وطال انتظاره للحملة الإنجليزية . اعتقد أنها لن تجىء ، فترك دمنهور قاصدا الصعيد . ولكنه مات فى الجيزة[1] . وعلم الإنجليز بموته . فاتصلوا بأنصاره ، وبزعماء المماليك الذين كان يحاربهم محمد على . وأسرع محمد على حين أُخبر وهو فى أسيوط بقدوم الإنجليز ، فاستعان بالعلماء حتى عقد صلحا مع المماليك . ليفرغ لملاقاة الإنجليز ، وقد كفاه الشعب مؤونة هذه الملاقاة .

وقد وقف بعض المماليك من مصر ، موقفا كريما ، أو قل هو الموقف الطبيعى ، فأبى ن يحارب مع الإنجليز أو يساعدهم . فقد أرسلوا إلى عثمان بك حسن ، وكان معه جيش كبير ، فقال إننى رجل مسلم ، هاجرت ، وجاهدت ، وقاتلت الفرنسيين .

(١) تجد تفصيل ذلك وترجمة وافية للالفى فى الجزء الثانى من هـذا الكتاب ص ٩٢ — ١٠٨ .

فلا أختم حياتى بمحاربة إخوانى ، والإستعانة عليهم بالأجانب . وكذلك فعل أيضا كبير من المماليك ، هو عثمان بك يوسف .

وقد جزع محمد على أشد الجزع ، واستولى عليه الخوف . عنـــد ما علم أن الإنجليز دخلوا الإسكندرية . فصالح المماليك ، وأجابهم لما شرطوا من شروط . وسار فى طريق عودته من أسيوط إلى القاهرة ، متثاقلا ، يتلقف الأخبار . فإذا علم أن الإنجليز تقدموا ، ودخلوا القاهرة . سار إلى الشام . ولـكن الأنباء جاءت بما لقيه الإنجليز على أيدى أهل رشيد ، فتشجع محمد على ، واطمأن .

أما جند الدولة ، فإنه لما شاع بينهم دخول الانجليز ، داخلهم خوف عظيم ، وتهيأ أكثرهم للفرار ، وأخذوا يستخلصون أموالهم التى كانوا يقرضونها للناس بالربا ، ويستبدلون الدراهم والقروش بالذهب ، ليخف حمله عليهم . وتسابقوا إلى شراء أدوات الرحيل ، وبيع متاعهم وفرشهم ، وطلق كثير منهــم نساءهم ، ليرحلوا إلى الشام . وخرجت طائفة ، على رأسها حسن باشا طاهر ، من القاهرة إلى بولاق . موهمة أنها خارجة لحرب الإنجليز . ولـكنهم تسلطوا على الناس . فاستولوا على حميرهم ، وجمالهم ، غصباً . وأطلقوا خيولهم فى مزارعهم فأكلتها . ثم انتقلوا بعد ذلك إلى منية السيرج ، وشبرا ، والزاوية الحمراء ، والمطرية . ففعلوا فيها مثل ذلك . وزادوا ، فخطفوا دوابهم ، ومواشيهم ، وفجروا بنسائهم . وافتضّوا أبكارهم . والغلمان أيضا ، وأخذوهم فباعوهم ، بعضهم لبعض .

ويعلق الجبرتى على ذلك بهـــذه الجملة التى تفيض بالحسرة ، والسخرية : « وهكذا يفعل المجاهدون ... ! » .

ثم يقول إن بعض الجنود كان يشق المدينة إلى بولاق . ثم يعودون متسللين . ويراهم الناس يخرجون مرة أخرى . ثم يعودون .

وكذلك كان أمر الوالى فى القاهرة ، ونائبه ، والخازندار ، والدفتردار ، وأشباه هؤلاء من الحـكام . فإنهم ، عندما وردت أنباء الغزو ، اكتفوا بأن أبلغوه إلى محمد على .

أما أهل الإسكندرية ، فقد دافعوا ، عن بلدهم ، وشرفهم ؛ ما وسعهم الجهد . ثم سلموا فى اليوم التالى . ودخـل الإنجليز المدينة ، على شروط عقدوها معهم .

ولما وصلت هذه الأنباء إلى أهل دمنهور ، أرسلوا إلى السيد عمر مكرم ، زعيم مصر فى ذلك الوقت ، يستنجدونه . ويبلغونه أن حاكم المدينة أخرج منها جنوده ، ومدافعه وأثقاله هاربا من الإنجليز ، وأنه رفض أن يدافع معهم عنها .

وبعد أيام قليلة . كانت طلائع الحملة الإنجليزية فى رشيد . وكان أهلها فى انتظارهم ، يعاونهم جند الدولة . فتركوا جند الحملة حتى دخلوا المدينة ، ثم صبوا عليهم النيران من كل جانب . وضيقوا عليهم فى الشوارع ، والدروب ، والحارات الضيقة حتى طلبوا من أهل رشيد الأمان ، فأمّنوهم وأسروا من نجا من الموت .

وكانت شجاعة رشيد . وبطولة أهلها سببا فى إثارة الحماسة عند غيرهم . حتى حاكم دمنهور الذى تركها قبل أن يصلها الإنجليز ، عاد إليها ، بعدما سمع أنباء رشيد . ولقى فى طريق عودته بعض الجنود الإنجليز فحاربهم ، وقتل من قتل ، ثم أسر الباقين .

وجاء المبشرون بهذه الأنباء إلى القاهرة . فتلقاها رجالها الرسميون بالفرح والغبطة . وأمروا بإطلاق «الشّنّك[1]» ابتهاجا . وأباحوا لرجالهم أن يطوفوا على بيوت الأغنياء يطالبون منهم البشارة . أما أهل القاهرة فقد أخذوا فى الاستعداد للمقاومة . وانطلق زعيمهم السيد عمر مكرم ، يأمرهم بحمل السلاح ، والتأهب للكفاح . حتى أنه أمر طلبة الأزهر ، وعلماءه ، بترك الدروس . والاشتغال بما يشتغل به الناس من أمر الحرب . واجتمع العلماء ، وكبار الجند ، فى بيت القاضى ، يتشاورون . ويدعون للألفة والصفاء بين أهل القاهرة والجند . حتى يكونوا يدا واحدة ضد المعتدى . ثم انتقلوا بعد ذلك بأنفسهم ، ومعهم كثير من الناس ، بأسلحتهم ، لإقامة خندق فى طريق الإنجليز .

(١) المدافع التى تطلق للابتهاج ، أو للتحية .

وبعد أيام دخل القادمون من رشيد ، ودمنهور ، بأسرى الإنجليز ، وقتلاهم . وكان الكبار من هؤلاء الأسرى يركبون الحمير . وفرح القاهريون بذلك فرحا كبيرا . ثم تواتر ورود المبشرين ، ومعهم الأسرى ، ورؤوس القتلى . فيطاف بهم في شوارع القاهرة ويقف الناس لمشاهدتهم فرحين متهللين . ولا يكاد يمر يوم من شهر صفر ، في هذه السنة ، من غير أن يذكر فيه الجبرتي خبرا من ذلك .

ولكن فرح القاهريين بنصر إخوانهم ، وتهللهم عند مسير هذه المواكب من الأسرى ، أو رؤوس القتلى ، لم يلههم ولم يقعد بهم عن الاستعداد لملاقاة الغزاة . فقد شرعوا في تحصين القاهرة . وقام بينهم شعور رائع من التكافل الاجتماعي ، والتساند ، أوجده ، ونماه ، الاشتراك في المحنة ، ومواجهة الخطر . فكان أهل اليسار يجمعون العمال ، بعضهم يستأجر المائة ، وبعضهم أقل ، ويدفعون لهم أجورهم ليقيموا الخنادق والمتاريس . والفقراء يعملون بأيديهم . وشرع أهل بولاق في إقامة حائط في أسفل قلعة السبتية . اشترك فيه المسلمون وغيرهم ، من الأروام ، والسوريين ، والقبط ، والنصارى .

وتلقى أهل القاهرة رسالة من السيد حسن كريت ، نقيب الأشراف في رشيد ، وزعيم المقاومة الشعبية فيها ، وفي هذه الرسالة يقول : إن الإنجليز عادوا للانتقام من أهلها ، على ما لقيه جنودهم الذين دخلوها من قتل وأسر . وقال : إنهم أقاموا استحكاماتهم حول البلدة ، ونصبوا عليها المدافع الثقيلة . فلما قرأ عمر مكرم هذه الرسالة على الناس ، واستنفرهم للجهاد ، حملوا أسلحتهم ، وخرج كثير منهم ، من المغاربة ، والأتراك ، تجارا وجنودا ، وأهل الصعيد الذين يقيمون في القاهرة . وذهب عمر مكرم إلى نائب محمد علي يستأذن لهم في السفر إلى رشيد ، ومعاونة أهلها . فلم يأذن ، وقال حتى يعود الوالي ويرى رأيه في ذلك . ولكن كثيرين من أهل القاهرة سارعوا لنجدة إخوانهم ، ولم ينتظروا إذن الباشا .

وتعرض أهل رشيد في هذه الحرب لأشد المحن . فإن الإنجليز الذين يحاصرونها

هدموا بمدافعهم كثيرا من بيوتها . وقتلوا كثيرين . ومن لم يقتل منهم أضناه السهر والجهد وملازمة الحراسة ليلا ونهارا .

ثم جاءت بعد ذلك ، لمساعدة أهل رشيد ، وفك حصارها ، جموع كثيرة من أهل مديرية البحيرة ، من قرى أبي منصور ، والحماد ، ودمنهور . ومن أهل القاهرة أيضاً . وحارب هؤلاء وهؤلاء حتى أجلوا المحاصرين عن رشيد . ثم ساقوهم أمامهم إلى العراء ، فأسروا من بقي منهم ، وغنموا سلاحهم ومدافعهم . وأرسلت هذه الغنائم ومعها الأسرى ، ورؤوس القتلى ، إلى القاهرة في عدة سفن . فلما وصلت هذه الأنباء إلى محمد علي ، وكان قد عاد إلى القاهرة ، أمر بإطلاق المدافع من القلعة ، وبولاق ، والأزبكية ، والجيزة ابتهاجا بالنصر الذي أحرزه أهل رشيد والبحيرة .

وتذكر المصادر الإنجليزية أنه قد قتل في معركة رشيد الأولى ١٨٥ منهم قائد ، وجرح ٢٨١ بينهم جنرال و ١٩ ضابطا . كما خسروا في معركتها الثانية نحو ٩٠٠ بين قتيل وجريح وأسير . كما قال الجنرال السير جون مور إن هذه الخسائر الفادحة ، وهذه الهزائم ، أدخلت الرعب في قلوب الجند الإنجليز .

ولم يحاول الإنجليز بعد هزيمتهم في رشيد مرتين أن يتقدموا . بل فرّ من نجا منهم إلى الإسكندرية . ثم تركوا البلاد إلى البحر . ولم يتقدم منهم إلى القاهرة إلا الأسرى .

ففي يوم الأربعاء الثالث عشر من شهر صفر ، أي بعد شهر وأيام من بدء الحملة ، وصلت السفن إلى ساحل بولاق ، تحمل آخر فوج من أسرى الإنجليز ، وقتلاهم ، وجرحاهم ، فلما نزلوا ، مروا بهم من طريق باب النصر ، وشقوا بهم المدينة إلى الأزبكية ، وقد أحصاهم الجبرتي ، فكانوا أربعمائة وستة وستين أسيرا ، وثلاثمـائة وأربعين رأس قتيل . وقد رشقت الرؤوس في نبابيت ، وعلقت في الأزبكية مع من سبقها من رؤوس القتلى . وكان بين الأسرى عشرون من كبار الضباط . ثم يقول : إن من وقع من صغار هؤلاء الأسرى ، في يد الجند الأتراك «اختصّوا بهم ، وألبسوهم من ملابسهم ، وباعوهم فيما بينهم . ومنهم من

احتال على الخلاص من يد الفاسق بحيلة» وأورد الجبرتى بعض حيل الأسرى الصغار للخلاص من يد جند الدولة ·

ولكى نستطيع الحكم على الأثر الذى أوجدته فى نفوس الشعب، هذه المقاومة الباسلة من أهل رشيد ، ننقل هذه الفقرة التى وصف بها الجبرتى كيف استقبل القاهريون أسرى الإنجليز ، ورؤوس قتلاهم . وكيف أثار ذلك حميتهم وشجاعتهم . فهو يقول : إن محمدا عليا « تراجعت إليه نفسه ، وأسرع فى الحضور . وتراجعت نفوس العساكر . وطمعوا عند ذلك فى الإنجليز . وتجاسروا عليهم . وكذلك أهل البلاد قويت هممهم . وتأهبوا للبروز والمحاربة ، واشتروا الأسلحة ، ونادوا على بعضهم بالجهاد · وكثر المتطوعون ونصبوا لهم بيارق وأعلاما ، وجمعوا من بعضهم دراهم ، وصرفوا على من انضم منهم من الفقراء . وخرجوا فى مواكب، وطبول ، وزمور ، فلما وصلوا إلى متاريس الإنجليز ، دهموهم من كل ناحية . وصدقوا فى الحملة عليهم · وألقوا أنفسهم فى النيران ولم يبالوا برميهم · وهجموا عليهم ، واختلطوا بهم ، وأدهشوهم بالتكبير ، والصياح . حتى أبطلوا رميهم ونيرانهم. فألقوا سلاحهم ، وطلبوا الأمان». وكان الجبرتى معاصرا هذه الأحداث، ورجلا ذا مكانة مرموقة فى ذلك الوقت .

وهنا يجب أن نلاحظ عدة أشياء . منها أن جند الدولة · وهم المسئولون عن الدفاع عن البلاد ، والمستعدون للحرب ، لم يشتركوا فى ردّ الإنجليز ، وإن كان بعضهم خرج مع المصريين المجاهدين · ومنها أن المماليك ، وهم الذين كانوا أهل السيادة ، والثروة ، والجاه . والمتمتعين بخيرات مصر ، وأموالها . لم يشاركوا أهلها فى رد الإنجليز . بل إن هؤلاء قدموا بدعوة كبيرهم الألفى · وكل مافعله المماليك ، أن بعضهم رفض المعاونة التى طلبها منه الإنجليز . ولعل خروج حاكم دمنهور ، ومعه جنده ، وإخراجه المدافع ، والأثقال ، عندما قدم الإنجليز إليها ، ورفض هذا الحاكم أن يبقى حيث بقى أهلها — وقد طلبوا منه ذلك — يحارب

معهم . لعل هذا كله كان معاونة للإنجليز ، وبالاتفاق معهم . وقد صالح المماليك محمدا عليا ليتفرغ ، فى ظاهر الأمر ، لحرب الإنجليز . ولعلهم تمنوا أن يغلبوه . ليبقى لهم حكم مصر ، ولو تحت سيادة الإنجليز . كما حكم مراد الصعيد ، تحت سيادة الفرنسيين . ولكن محمدا عليا ، لم يحارب الإنجليز ، ولم يتوجه إليهم . وترك مواجهتهم للشعب ليدّخر قوته لحرب المماليك .

بل إن محمدا عليا لم يكن راضيا كل الرضى ، عن هذه الحماسة الجارفة ، التى أبداها الشعب فى المقاومة . لأنه ما كان يرضيه أن يرى شعبا قويا ، متوثبا ، شجاعا ، بل كان يريده « رعية » يأمرها فتطيع ، ويتوجه بها حيثما يشاء هواه ، أو تشاء مطامعه . فقد ذهب السيد عمر مكرم والعلماء إلى محمد على عند ما قدم القاهرة من الصعيد . وتحدثوا إليه فى أمر هؤلاء الإنجليز . وطلبوا إليه أن يخرج المصريون والجند ، ومعهم العلماء والسيد عمر مكرم ، لحربهم . فقال لهم محمد على : «ليس على رعية البلد خروج . وإنما عليهم المساعدة بالمال لعلائف العسكر » ثم خرج مكرم والعلماء من عنده ، ولم يستقر رأيهم على شىء . فالمصريون وحدهم ، هم الذين دفعوا عن بلادهم عدوان الإنجليز ، وهم الذين غلبوهم ، وقهروهم . على الرغم من هذه الملابسات العجيبة ، الشاذة ، التى كانت فيها بلادهم ، وعلى الرغم من نقص الكفاية الحربية ونقص الاستعداد . ومما كانوا قد لقوه ، على يد نابليون وجنده ، من حرب ، وتدمير ومصادرة ، واستنزاف المال والجهد . قبل ذلك بسنين قليلة .

وعند ما انتصرت هذه «الرعية» على الإنجليز الغزاة ، وردتّهم على أعقابهم . استغل محمد على هذا الانتصار إلى أبعد حدود الاستغلال . فأرسل المبشرين من رجاله إلى الدولة يبلغها أنباء هـذا النصر . وأرسل مع هؤلاء المبشرين ، كتابا يصف فيه هذه الحرب مع الانجليز بما يشاء . وقطع آذان القتلى من الإنجليز فدُبغت وملّحت ، ووضعت فى صندوق أرسله إلى الآستانة ، مع هؤلاء المبشرين . ومعهم أسيران من كبار الأسرى .

أما هذا الشعب الذى كافح ، وصبر ، وانتصر . فكان جزاءه عجبا . . .

تسلّط عليه الجند بالقتل ، والنهب ، والاعتداء . فقد نزل هؤلاء على رشيد ، وما جاورها من البلاد، بعد خروج الإنجليز منها . فاستباحوا أموالها ، ونساءها ، ومواشيها ، قائلين : إنها صارت « دار حرب » بدخول الإنجليز فيها . . . ! ثم أحاط الجند برشيد نفسها ، وفرضوا عليها الضرائب والكلف الشاقة ، وأخذوا ما وجدوه فيها من الأرز . حتى ترك أهل رشيد بلدهم هاربين ، إلى القاهرة . فروا من ظلم الجند . وهم الذين لم يتركوها فرارا من مدافع الإنجليز ونيرانهم .

وهكذا حارب شعب مصر الحملة الإنجليزية ، ولم يمكن لها من دخول البلاد .

الحملة الفرنسية

قبل أن نلخص تاريخ هذه الفترة الحاسمة ، فترة دخول نابليون مصر ، وحكمه لها ، وما لقى جنده فيهامن مقاومة باسلة ، مثابرة ، قوية . نعود قليلا لنذكر شيئاً عن حكام مصر عند قدوم الحملة الفرنسية .

مراد وإبراهيم

بعد وفاة محمد بك أبو الذهب في عكا ، سنة ١١٨٩ (١٧٧٥ م) خلص حكم مصر لمراد وإبراهيم ، بالاشتراك بينهما . وكان كلاهما من مماليك أبي الذهب .

أما إبراهيم فكان غلاما جركسيا . أعتقه سيده أبوالذهب وزوجه أخته . وكان شجاعاً ، فارساً ، ساكن الجأش ، صبوراً ، فيه حلم وتؤدة ، قريب الانقياد للحق ، متجنباً للهزل ، إلا نادراً ، مع الكمال والحشمة . وكان لطيف المعاشرة ، متساهلا مع مماليكه . حتى طغوا ، وزاد جبروتهم ، وظلمهم .

وأما مراد ، فكان قاسياً ، متهوراً ، مغروراً بنفسه ، متجبراً ، حاد الخلق ، عصبي المزاج ، ظالماً ، غيوراً . وكان يجمع إلىهذه الصفات ، جهلا فاضحاً ، معيباً ، وقصر نظر قلّ أن وصل إليه واحد من حكام مصر .

وقد حكم مراد وإبراهيم مصر فترة طويلة . لعلها لم تر في تاريخها حكما أسوأ منه . ولا حاكمين فيمثل قسوتهما ، وجبروتهما ، وظلمهما ، وأنانيتهما ، وجهلهما .

وكانت صفات إبراهيم ، وشخصيته اللينة المتساهلة ، كفيلة بإطلاق يد شريكه الطاغية مراد . في أغلب أوقات حكمهما الذي دام نحو ثلاثين سنة .

وكان لإبراهيم ومراد من النفوذ والسطوة ، ما لم يتح لغيرهما من المماليك . حتى إن الدولة العثمانية أرسلت لحربهما حملة بقيادة حسن باشا قبطان . واستطاع هذا أن يهزمهما ، وأن يستقر في القلمة بعد هربهما إلى الصعيد . ولكن الدولة

عادت بعد ذلك فأصدرت عنهما عفـــواً . وأمرت حسن باشا قبطان بترك مصر — فى سنة ١٧٨٧ — وأن يسافر لحرب روسيا .

وكان لإبراهيم ستمائة مملوك ، ولمراد أربعمائة . وكان ما يملكه غيرهما من كبار المماليك يتراوح ما بين خمسين ومائتين .

ولـكن هذه السطوة كلها كانت مسلّطة على أهل مصر . حتى ترك كثير من مالكي الأرض بلادهم ، وزروعهم ، ومواشيهم ، فراراً من الظلم . وكثرت الأوبئة والفتن والمجاعات ، وانعدم الأمن . فـكان المسافر يستأجر الأعراب لحراسته . وهاجر الفلاحون إلى القاهرة بنسائهم وأولادهم يضجون من الجوع . ويأكلون قشر البطيخ ، وأوراق الشجر . حتى لا يجد الـكناسون شيئاً من ذلك يكنسونه . وأكل الناس لحوم الأطفال ، والخيل ، والحمير ، والبغال . وكان هذا شأن الناس فى القاهرة وغيرها . أما مراد وإبراهيم ، فـكانا يعيشان فى قصور زاهرة . وبنى أولهما قصراً شامخاً فى الجيزة ، كما بنى غيره فى الروضـة ، وجزيرة الذهب ، والعادلية ، وترسا .

وكان مراد رجلا جاهلا ، ضيق الأفق . يأمر بهدم الـكنائس . ويفرض على الأجانب ضرائب باهظة . وكانت سياسته الطائشة نحوهم ، سبباً ، أو ذريعة ، اتخذها نابليون للحملة على مصر . وكانت للفرنسيين خاصة متاجر رابحة ، فى القاهرة والإسكندرية ورشيد . فأثقل مراد على أصحابهـا بالمغارم والمظالم ، والمصادرات . حتى كثرت شكواهم إلى الدولة فى إسطمبول ، فلم تستطع أن تـكف مرادا عن ظلمه لهم . ثم كثرت شكواهم إلى حكومة الجمهورية فى باريس . وقد تـكون هذه الشكوى متفقاً عليها بين هذه الحـكومة وبين التجار الفرنسيين ، حتى تبرر بهـا الحملة على مصر . ولـكن الذى لا شك فيه أنه كان لهذه الشكوى أكثر من مبرر . وقد أدرك المصريون أنفسهم هذه الحقيقة ، وواجه الشيخ السادات مرادا بها . فقال له بعد قدوم الحملة : «إنك بظلمك واعتدائك على الإفرنج ، ملّـكت البلاد للأجانب» أى الفرنسيين .

ولما علم مراد بقدوم حملة نابليون استهزأ به وبها ، وقال لصديقه قنصل النمسا

كيف نخاف هؤلاء الرعاع الذين لا فرق بينهم وبين الواقفين على بابنا ... ! إنهم ليسوا إلا « فستق » خلق للأكل لا للحرب ... ! وسنقضى عليهم بقوة حرسنا الخاص .

هكذا كان يتحدث مراد ، أما موقفه من هؤلاء « الفستق » وحربه معهم فسنعرفه فى موضع آخر من هذا الفصل .

وقد أحسن الجبرتى فى وصف مراد عندما قال إنه: « يغلب على طبيعته الخوف والجبن . مع التهور والطيش . والتورط فى الإقدام ، مع عدم الشجاعة[1] » .

هذه كانت حال مصر فترة طويلة ، وهذا كان حال حكامها ، عندما قدم نابليون بجيوشه لغزوها .

---

(١) فى الجزء الثانى من هذا الكتاب ترجمة وافية لكل من مراد وإبراهيم ص ٨٠ — ٩٢

نابليون في مصر

ينسب إلى نابليون أنه قال : «توجد فى العالم قوتان . قوة المادة ، وقوة الروح . وقوة الروح دائماً هى الغالبة » .

ولعل هذه الكلمة — وقائلها من أعظم رجال القوة المادية الذين شهدهم العالم — لم تصدق ولم يؤيدها الواقع ، مثلما صدقت ، وتأيدت ، مع نابليون نفسه ، ومع جيوشه التى غزا بها مصر . فقد قهرت قوة الروح عند المصريين العزل ، أو ضعاف التسلح ، قوة نابليون القاهرة .

وسنجد تفصيل ذلك فى حديثنا عن المقاومة العجيبة التى لقيتها جيوش نابليون فى الإسكندرية ، عند نزولها فيها ، وفى القاهرة . وفى بلاد مصر وقراها . من دمياط إلى أسوان . وسنجد ، عندئذ ، أن المصريين لم يستكينوا يوما واحدا ، ولم يخضعوا لحكم نابليون . بل كانت ثوراتهم عليه ، وعلى قواده من بعده ، دائمة ، قوية متصلة ، شاملة ، فى مدى السنوات الثلاث التى أقامتها جنوده فى بلادنا .

وقد أظهر نابليون كل ما فى قدرته من الحيل ، واستنفد كل ما عنده وعند رجاله من بلاغة فى اللفظ ، وبراعة فى البيان ، لكى يؤثر على الناس فى مصر ، ويترضى عواطفهم حتى يسالموه . فهو يقول فى منشوراته إليهم تارة ، إنه محب للإسلام ، وصديق دولة آل عثمان . وتارة أخرى إنه عازم « على إقامة مسجد عظيم لا نظير له فى الأقطار ، والدخول فى دين النبى المختار » وتارة إنه ما جاء مصر إلا ليخلصها من ظلم المماليك . وليجعل خيرها لأهلها . فلا يستأثر به « الأباظة » وغيرهم من الأجناس . وهو عند احتلاله جزيرة مالطة ، يجد فيها عدداً من أسرى المسلمين ، يحتجزهم « فرسان مالطة » فيطلق سراحهم — وكانوا سبعمائة — منهم التركى ، والمغربى ، والسورى .

أطلق نابليون سراحهم ، وأمر بأن يعطى لهم اللباس الحسن ، والغذاء الجيد ،

وأن يكرموا . وأعطاهم ما يكفيهم من النفقة ليرجعوا إلى بلادهم • واستبقى طائفة منهم تعرف اللغة العربية ليكونوا عيونا له • أرسل فريقا منهم فسبقوه إلى مصر ، ليبشروا أهلها برحمته وعدله ، وميله إلى الإسلام وحبه أهل مصر ، أو كما يقول نقولا الترك « يبشروا بذلك فى جميع بلدان المسلمين . ويشكروا بذلك فضل الفرنساوية » .

وحرص فى أوامره إلى جنوده ، أن يبتعدوا عن مساجد المسلمين • وأن يمكنوهم من صلاتهم . وأن يحترموا دينهم ، وأموالهم • فلا يعتدى أحد من الجند على ما يملك الأفراد . وأن يدفعوا ثمن ما يشترون منهم . ثم يقول إنه خرّب كرسى البابا ، فى روما ، لأنه كان يحرِّض على حرب المسلمين .

قال نابليون ذلك ، وفعله • يترضى به ، بل يتملق ، عواطف المصريين . حتى لا يقاوموه . ولكنهم قاوموه أعنف المقاومة وأشدها . لم يكفوا عن ذلك يوما أو بعض يوم .

* عند ذلك سلط عليهم نابليون وخلفاؤه من بعده ، النار ، والعذاب ،والقتل والمغارم الفادحة . ولكن القسوة ، وحرق القرى والبلاد ، والقتل بالجملة ، حتى الأطفال ، والشيوخ ، والنساء . كل ذلك لم يُخف المصريين ، ولم يضعف عندهم شيئاً من روح المقاومة ، والصلابة ، والعناد .

فى الإسكندرية ورشيد والبحيرة

عندما علم أهل الإسكندرية أن نابليون نزل جزيرة مالطة ، أدركوا أنه قادم إليهم بعد حين • فاستعدوا لمقاومته . بتحصين القلاع ، وجمع المتطوعين من أهل المدينة ، والبلاد القريبة إليها ، ومن العرب . ولم ينتظروا نجدة مراد بك لهم . فقد كان يقيم فى قصره الفخم بالجيزة ، يقول ما يقول عن الفرنسيين .

فلما ألح عليه السيد محمد كريم ، حاكم الإسكندرية الوطنى ، فى أن يرسل لهم البارود ، أرسل إليه قنطارين ... ولم يرسل له هذا القدر المزرى من البارود ،

إلا بعد أن أرسل كريم له ثلاثة عشر رسولا يستنجزه . وقد ذكر نقولا الترك ، أنه كان لا يوجد فى قلاع الإسكندرية إلا قليل من البارود ، أكثره كالتراب ، من طول الأيام .

وفى ضحى يوم ٢ يوليو سنة ١٧٩٨ بدأ الهجوم الفرنسى على الإسكندرية . فقاومه أهلها بكل ما يملكون من قوة، بمواردهم المحدودة القليلة، البالغة الضّعف. ولكنهم ، مع ذلك، استطاعوا أن ينالوا منه ومن جنوده . حتى أوشك نابليون نفسه أن يقتل . فقد ذكر مسيو بورين، سكرتيره الخاص ، أنه دخل مع نابليون من حارة لا تكاد ، لضيقها ، تسع شخصين متجانبين . فأوقفتهما طلقات الرصاص . التى كان يسدّدها إليهم رجل وامرأة ، من إحدى النوافذ . ولم يستطع نابليون المسير ، إلا بعد أن هاجم عدد من جنوده المنزل ، وقتلوا الرجل والمرأة. وجرح — جرحا بليغاً — الجنرال كليبر .

كان دفاع أهل الإسكندرية مشرفا ، رائعاً . ولكنه لم يكن مجديا . فهم قلة، وسلاحهم قليل . وحصونهم قديمة ، تكاد تكون عزلاء . ولم يكن للعثمانيين فى مياهها سوى ثلاث سفن . إستأذن قائدها « إدريس بك » من نابليون فى أن يخرج بها إلى الآستانة فأذنه . وكان نابليون فى عنفوان قوته ، وكامل عدته . فقهرت قوته أهل الإسكندرية ، ودخل مدينتهم . ومع ذلك ، فقد ظل فريق من أهلها ، بقيادة محمد كريم ، معتصما بقلعة قايتباى ، يقاتل . ولم يكن هذا الفريق أكثر من عشرين مجاهدا . استطاع أن يعوق طليعة الجيش الفرنسى ، وأن يقتل قائدها . ثم سلم مقهورا .

وخسرت الإسكندرية من شهدائها فى هذا الدفاع ، بين سبعمائة وثمانمائة ، قتيل وجريح .

شهادة الفرنسيين

وقد شهد الفرنسيون لأهل الإسكندرية بأنهم كانوا أبطالا ، شجعانا ، في مقاومتهم . فكتب الجنرال برتييه ، رئيس أركان حرب الحملة الفرنسية ، في رسالة منه لوزارة الحربية يقول : « إن الأهالي دافعوا عن أسوار المدينة دفاع المستميت . وقد أصيب في هذه الموقعة الجنرال كليبر بعيار ناري في جبهته ، فجرح جرحا بليغا . وأصيب الجنرال منو بضربة حجر أسقطته من أعلى السور ، فنالته رضوض شديدة . وأصيب الأدجودان جنرال أسكال بجرح بليغ في ذراعه من عيار ناري . وقتل اللواء ماس ، وخمسة ضباط آخرون[1] .

وكتب الجنرال منو إلى نابليون يقول : إن الجنود الفرنسيين واجهوا مخاطر عظيمة : لأن الأهالي دافعوا عن المدينة بشجاعة كبيرة ، وثبات عظيم[2] .

نزلت جيوش نابليون الإسكندرية يوم ٢ يوليو سنة ١٧٩٨ . فاجتمع بكبير علمائها الشيخ محمد المسيري ، وحاكمها المجاهد ، السيد محمد كريم . ثم ألف منهما ومن خمسة من أعيان المدينة مجلسا يتولى الحكم فيها . وبعد أيام تركها نابليون ، في طريقه إلى القاهرة . وترك الجنرال كليبر حاكما عليها ، وقائدا لنحو تسعة آلاف من الجنود ، تركهم لحمايتها .

وكان عدد جنود الحملة ستة وثلاثين ألفا ، تحملهم ، وتحملهم مع معداتهم ، وأدوات قتالهم ، ومدافعهم ، أكثر من ثلثمائة سفينة نقل . وخمس وخمسون سفينة حربية . منها ثلاث عشرة بارجة[3] . وعند استيلاء نابليون على مالطة ،

---

(١)، (٢) ص ١٧٩ جزء أول من تاريخ الحركة القومية . للأستاذ عبد الرحمن الرافعي . الطبعة الأولى.

(٣) ذكر المعلم نقولا الترك أن عدد السفن كان ٥٠٠ ؛ وأن عدد رجال الحملة كان ستين ألفا ، منهم ستة وثلاثون ألفاً من المحاربين . والباقون من الصناع ، والبحارة .

أما نقولا الترك هذا ، أو نقولا الأرمني، فيؤخذ من الترجمة الفرنسية لكتابه ، ومن مصادر أخرى ، أنه ابن يوسف الترك ، ولد في سنة ١٧٦٣ في دير القمر بلبنان . وأصل أسرته من يونانيي القسطنطينية . هاجرت إلى جبل الدروز واعتنقت المذهب الكاثوليكي . وكان المعلم نقولا يشتغل بخدمة الأمير بشير الشهابي الكبير . فأرسله الأمير إلى مصر قبيل الحملة الفرنسية =

وجد فيها ١٢٠٠ مدفع ، فاستولى عليها وأضافها إلى مدافعه . كما وجد فيها قدرا كبيرا من الذخيرة .

وكانت سفينة القائد نابليون ، التي سماها « الشرق » — ويسميها الجبرتي « نصف الدنيا » — تحمل مائة وعشرين مدفعاً .

ولكن هذه القوة الجبارة ، التي لم تر مصر مثلها من قبل ، لم ترهب أهلها، ولم تخفهم . فلم تمض أيام ، أفاق فيها أهل الإسكندرية من بغتة المفاجأة والتسليم. حتى بدءوا ينظمون صفوفهم للمقاومة . ويأخذون أهبتهم لحرب سرية أعلنوها على الغزاة ، وابتدعوا في صنوفها طرائق كثيرة .

لم تمض عشرة أيام على دخول نابليون الإسكندرية ، حتى بدأت هذه المقاومة السرية . فقتل أحد جنود الأسطول الفرنسي في أحد الشوارع . وفي الوقت نفسه ألقي في البحر خادم لأحد الضباط وغرق . وغضب كليبر لهذه الحوادث أشد الغضب . فاعتقل بعض أعيان المدينة ، واستدعى حاكمها السيد محمد كريم ، والقاضي الشرعي وغيرهما فطلب إليهم البحث عن القتلة . وهددهم بشنق من تقع عليه القرعة من المعتقلين ، إذا لم يسلم له القتلة في خمسة أيام . ولكن ذلك كله لم

عليها ليطلعه على أخبارها . ويقول بعض المؤرخين : إنه أقام في دمياط ثلاث سنين — المدة التي أقامها الفرنسيون في مصر — وكان يراسل الأمير بشيرا بأخبار نابليون وحملته . لأن الأمير كان يتوقع غزو نابليون الشام . فلما خرج الفرنسيون من مصر عاد نقولا إلى دير القمر ، وكف بصره في آخر عمره . فكان يملي على بنته مايريد أن يكتب . ومات في سنة ١٨٢٨ .

وقد وضع نقولا كتابه « ذكر تملك جمهور الفرنساوية الأقطار المصرية والبلاد الشامية » وطبع في دار الطباعة السلطانية بباريس سنة ١٨٣٩ وطبعت معه ترجمته الفرنسية بعنوان « تاريخ الحملة الفرنسية في مصر » ترجمه مسيو ديجرانج إينيه . ثم طبعه مرة أخرى المعهد الفرنسي للآثار الشرقية في القاهرة في سنة ١٩٥٠ بتعليقات للمسيو جاستون فييت . وهذه الطبعة تزيد عن الأولى ، وتنتهي حوادثها إلى أغسطس سنة ١٨٠٤ وتتحدث عن مقدمات عهد محمد علي .

ونقولا الترك واضح الميل بل التعصب للفرنسيين . له في كتابه شعر مضحك في مدح نابليون والإشادة بكفايته وشجاعته ، وشعر في رثاء الجنرال كليبر . لذلك نجد لشهادته — التي سنذكرها في مكانها — قيمة كبيرة ، فيما يتعلق بمقاومة المصريين لنابليون وحملته ، واستبسالهم في هذه المقاومة . لأنها شهادة ليس من الهين عليه الاعتراف بها .

يُجد نفعا. فقد تستر الناس عليهم حتى هربوا . وعرف فيما بعد أن السيد محمد كريم كان عونا لرجال المقاومة السرية .

وبعد ذلك بأيام، أراد الجنرال كليبرأن يسيّر كتيبة إلى بعض البلادفي البحيرة. فلم تجد هذه الكتيبة ، في اليوم الذى حدده لسفرها، ماتحمل عليه أثقالها، وأزوادها، وماءها ، من الإبل . لأن أهل الإسكندرية وماجاورها ، أخفوا إبلهم وهربوها ، حتى لايستعين بها الفرنسيون . وسارت الكتيبة بلا ماء . وبعد يوم واحد من سفرها ، ظهرت الإبل فى الإسكندرية . وعندما سافرت كان العرب يهاجمونها فى الطريق ، ويعرفون سيرها ، وطريقها ، وغايتها . وظهر للفرنسيين أن المهاجمين كانوا على اتصال برجال المقاومة فى الإسكندرية .

ولما وصلت الكتيبة إلى دمنهور . وجدت ستة آلاف من المصريين على استعداد لملاقاتها ، فهابت أن تحاربهم . ولم تتم سيرها ، بل رجعت إلى الإسكندرية بعد أن فقدت عددا غير قليل من رجالها . وسجل قائدها الجنرال ديوى ، غضبه وسخطه على الروح العدائية التى لقيها من الجميع ، فى الإسكندرية ، والبحيرة .

وكان الماء ، فى ذلك الوقت ، لايجرى فى ترعة الإسكندرية « المحمودية » إلا فى زمن الفيضان . فكان الناس يستقون هم ودوابهم ، من الآبار . فأتلف المجاهدون هذه الآبار فى طريق الفرنسيين . وسببوا لهم بذلك مشقة عظيمة ، ومتاعب جمة . وعلم الفرنسيون أن أهل قرية « بركة غطاس » سدّوا مجرى الماء فى الترعة فأحرقوها ونهبوها .

وكما وقف رجال المقـــاومة بالمرصاد لجنود نابليون ، يعتدون عليهم ، ويقتلونهم حيثما وجدوهم . وقفوا كذلك لرسله ، يتصيدونهم ، ويفتكون بهم .

أرسل نابليون رسالة من القاهرة ، إلى الجنرال كليبر فى الإسكندرية ، مع الكابتن جوليان . يأمره فيها بالقبض على السيد محمد كريم . فلم تصل إليه الرسالة لأن رجال المقاومة قتلوا الكابتن جوليان فى طريقه إليها .

وخرجت سفينة فرنسية من رشيد ، يحمل قائدها رسالة أخرى من كليبر

إلى نابليون . فلم تكد تبتعد عنها قليلا ، حتى هاجمها أهالى مطوبس ، وإدفينا فأرغموها على العودة إلى رشيد . ثم خرجت مرة أخرى إلى وجهتها . ولكن الفلاحين أطلقوا عليها نيرانهم من جانبى النيل ، حتى أرغموها للمرة الثانية على العودة . وأعدم الفرنسيون بالرصاص عمدة إدفينا .

وكان المماليك ، عندما علموا بنزول نابليون الإسكندرية، قد تركوا مدينة رشيد . هاربين ، تركوها بلا سلطة ، ولا حماية ، فأقام أهلها حكومة منهم ، من ثلاثة أعضاء . تولت الأمر فى المديرية — وكانت رشيد مديرية فى ذلك الوقت — ولم تكف هذه الحكومة الأهلية ، ومعها الأهالى ، عن مقاومة الفرنسيين . وإثارة المتاعب فى طريقهم ، والانقضاض عليهم . فلم تكن سلطة الجنرال دوجا ، حاكم رشيد ، تتعدى حدود المدينة نفسها .

وقام الجنرال منو برحلة ، ومعه بعض قواده ، وكتيبة من الجند ، فلما وصلوا بلدة « شباس عمير » وجدوا أهلها متحصنين بالأبراج ، وبدءوا يطلقون عليهم النار . فقتل من الفرنسيين عدد غير قليل ، وأصابت رصاصة جواد الجنرال منو . واشتدت مقاومة المجاهدين حتى لم ير منو سبيلا للغلبة عليهم إلا بإحراق البلدة فأحرقها ليلا ، وكان الفلاحون قد تجمعوا من القرى المجاورة لنصرة شباس عمير . حتى بلغ عددهم ثلاثة آلاف . فلما رأى الجنرال منو ذلك تسلل عائدا إلى رشيد ، ولم يتم رحلته

وخرجت سرية فرنسية تحمل بريد القائد إلى نابليون فى القاهرة ، فهاجمها أهل قرية « السالمية » — مركز فوة — وقتلوا ثمانية من رجالها . فعاقبها الجنرال منو بقتل جميع من يحمل السلاح فيها . ومصادرة سكانها فى مواشيهم ، ثم أضرم النار فيها . وكان من أبطال هذه القرية الذين أعدمهم الفرنسيون ، عمدتها الشيخ سلامة العقدة .

ومن قرى الغربية، التى كان لها قسط كبير فى شرف المقاومة ، برنبال، والقنى. والسمدة ، ومطوبس .

وقد أزعجت نابليون هذه المقاومة التى أبداها أهل رشيد والبحيرة ، والغربية فأرسل إليها ١٥٠٠ جندى تعزيزا لحاميتها ، وأمر قائده فيها أن يغلظ لهم العقاب، وأن يأخذهم بالصرامة والقسوة .

هذا هو نصيب المصريين من أهل الإسكندرية ورشيد والبحيرة والغربية ، أو بعض نصيبهم من المقاومة الشعبية . أما الحرب ، فقد اتفق مراد وإبراهيم على أن يقف أولهم فى وجه نابليون عند دمنهور . ثم كانت بينهما موقعة شبراخيت المعروفة، التى هزم فيها مراد . أو كما يقول الجبرتى « داخله الرعب ، وولى منهزما ، وترك الأثقال والمدافع » .

وقد ذكر بعض المؤرخين أن جيش مراد فى هذه الوقعة كان عشرين ألفا ، وذكر بعضهم أنه كان اثنى عشر ألفا، كان منهم تسعة آلاف من الفلاحين والعرب . والباقون من المماليك . فهم على أقل تقدير ، كانوا قريبا من نصف الجيش أو كثرته الغالبة ، على التقدير الآخر . وهو أوثق .

أما من قعد به العجز أو المرض عن هذه الوقعة ، أو فقد السلاح . فكان يسير خلف الجيش الفرنسى يقتنص من يستطيع اقتناصه من جنود المؤخرة ، فيقتله ويجرده من سلاحه . أو يقصد إلى بئر فى طريق الفرنسيين فيسبقهم إليه ويلقى فى مائه ملح النطرون ، حتى لايستقون منه . أو يتطوع لنقل الرسائل إلى المجاهدين ، وزعماء المقاومة ، فى البلاد التى تقع على طريق نابليون إلى القاهرة .

وقد أزعجت نابليون أيما إزعاج، أنباء هذه المقاومة السرية ، فأمر، زيادة على ما أوقعه بأهل رشيد والبحيرة والغربية ، بأن يعلن استياءه من سلوك أهل الإسكندرية خاصة . وأن يسلموا جميع سلاحهم ، ومن لم يسلمه فى ثمان وأربعين ساعة ، فجزاؤه الإعدام ، كما أمر بهدم منزل المتهم بقتل جندى الأسطول، وارتهان خمسين رجلا من الأهالى ، إلى أن يحسن أهل المدينة سلوكهم ، وكان نائبه على الإسكندرية ، الجنرال كليبر ، فرض على أهلها ضريبة قدرها مئة وخمسون ألف فرنك . فزادها نابليون إلى الضعف .

نابليون فى القاهرة

لاأريد أن أؤرخ الوقائع التى جرت بين نابليون والمماليك ، ولا بينه وبين جند الدولة العثمانية . ولا أن أدون تفاصيل هذه الحروب والأحداث الجسيمة فى تاريخنا ، بل أكتب هذه الصفحات لأسجل ، فقط ، كفاح شعبنا وعناده ، وصلابة عوده، أمام هذه الأحداث الجسام ، التى كانت فوق طاقته ٠ وأعظم ، إلى حد كبير ، من قدرته وجهده . ولكنه لقيها بقلب شجاع ، وصمد لها كما يصمد القوى الجلد أمام الخطوب والنكبات. يؤدى فيها واجب الرجولة والشرف ٠ مهما تكن النتائج ، ومهما يلقَ فى سبيل هذا الواجب من محنة وشقاء ٠

ومامن شعب من شعوب الأرض إلا لقى مثل هذه الخطوب والأحداث الجسام التى تفوق طاقته ، وتعلو على قدرته وجهده ٠ ثم هزم أمام هذه الخطوب والأحداث ٠ ولكن الشعب العزيز الكريم ، هو الذى يواجه جسيم الأحداث وعظيم الكوارث بالقلب الشجاع القوى ، والإيمان والصلابة التى لاتعرف إلا الواجب ، وما يقتضيه الشرف والرجولة . ثم لتكن النتائج ما تكون . وهى عند ذلك لاتكون إلا خيراً ٠ ولو طال عليه الأمد .

وكذلك كان شعب مصر ، عندما نزل عليه نابليون وجنده فى القاهرة ٠ « حضر العلماء ورؤوس الناس ، وأعملوا رأيهم فى الحادث العظيم ٠ فاتفق رأيهم على عمل متاريس من بولاق إلى شبرا . وكانت العلماء تجتمع بالأزهر كل يوم ويقرؤون البخارى وغيره من الدعوات . وكذلك مشايخ الفقراء من أرباب الطرق وأطفال المكاتب . ويذكرون الاسم اللطيف ، وغيره من الأسماء ٠ وجلس مشايخ العلماء بزاوية على بك ببولاق يدعون ويبتهلون إلى الله بالنصر » ٠

وترك الناسُ الشيوخَ والعلماء والأطفال، يقرؤون ويستغيثون . وأخذوا يتنادون بالنفير العام ، ويخرجون فى كل يوم لإقامة المتاريس . فكانت كل طائفة من أهل

الصناعات ، يجمع بعضها المال من بعض ، وينصبون لهم خياما . أو يجلسون في مسجد أو مكان خرب ، يتدارسون أمر الدفاع عن مدينتهم ، وينظمون كيف تنفق هذه الأموال في شراء السلاح ، وتجهيز الجند ، وملبسهم وغذائهم . وتطوّع القادرون بالإنفاق على غير القادرين . ومنهم من جهز جماعة للحرب ، فاشترى لهم سلاحهم وطعامهم « بحيث إن جميع الناس بذلوا وسعهم ، وفعلوا ما في قوتهم وطاقتهم . وسمحت نفوسهم بإنفاق أموالهم ، فلم يشحّ في ذلك الوقت أحد بشيء يملكه . » وخلت القاهرة من القادرين على حمل السلاح ، فقد ذهبوا جميعاً إلى بولاق للدفاع عن القاهرة .

وصعد السيد عمر مكرم ، نقيب الأشراف وزعيم الشعب ، إلى القلعة . فأنزل البيرق النبوى ، فسار به المتطوعون فى شوارع القاهرة يثيرون بذلك حماسة أهلها ، فلما مروا به من القلعة إلى بولاق ، خرج القادرون من الرجال جميعاً يتصايحون بالحرب . ولم يبق فى القاهرة غير النساء والأطفال وضعفاء الرجال الذين لا يقدرون على الحركة .

وقدم إلى القاهرة كثير من عرب البحيرة والجيزة والصعيد ، والخبيرية والقيمان وأولاد على والهنادى ، فسارعوا إلى معسكر مراد بك .

كان أهل القاهرة إذن ، وكثيرون من خارجها ، متهيئين للدفاع عنها ، وبذل ما يملكون من قوة وحول لحرب عدوهم . ولكن مراداً وإبراهيم ومن معهما من المماليك . لم يكونوا جادين فى حربهم أو دفاعهم . واجتمع إلى ضعف عزيمتهم، جهلهم بالحرب الحديثة التى كان يتبعها نابليون . وجهلهم كذلك بما جد من آلات القتال فى ذلك الزمان .

ويكفيك لتدرك سريرة المماليك وحقيقة شعورهم ، أن تعرف أنهم منذ عرفوا أن نابليون نزل الإسكندرية ، شرعوا ينقلون متاعهم من بيوتهم فى القاهرة ، ويخفونها فى بيوت أتباعهم ، أو فى خارج المدينة . وكانوا لا يستحيون من فعل

ذلك أمام الناس . أما العثمانيون وعلى رأسهم بكير باشا الوالى ، فلا يكاد يذكرلهم شأن فى الدفاع عن القاهرة .

وهزم مراد فى موقعة إمبابة ، أو الأهرام . بعد ساعة أو بعض ساعة من بدئها . ثم أسرع بالهرب إلى بيته فبقى فيه خمس عشرة دقيقة ، أخذ فيها مااستطاع أن يأخذ ، من أمواله وجواهره . ثم فر إلى الصعيد .

أما إبراهيم بك ، ومعه الباشا التركى ، فقد ترك المعركة عندما رأى هزيمة مراد ، وفر إلى خارج القاهرة ، فلما وصل إلى العادلية «الوايلية الآن» أرسل فأخذ حريمه. ثم سار إلى الشام . فإبراهيم إذن لم يشترك بأقل مقدار فى الدفاع عن القاهرة. وقد أثارت هذه الخيانة شعور الناس ، فنهبوا بيوت مراد وإبراهيم ، وغيرهما من كبار المماليك . عندما علموا أنهم فروا[1] .

وقد كان المماليك فى جيش مراد عشرة آلاف . وكان معهم أربعة وعشرون ألفا من المصريين ، وعدة آلاف من الفرسان العرب . قتل منهم ، بشهادة نابليون ، سبعة آلاف . وشهدت المصادر الفرنسية بما أبلى هؤلاء المصريون فى هذه الموقعة . على الرغم من ضعف السلاح ، وسوء القيادة ، وفقدان النظام . فذكر الجنرال برتييه أن قرية إمبابة ، دافع عنها ألف وخمسمائة مملوك ، ومثلهم من الفلاحين ، دافعوا عنها دفاع الأبطال ورفضوا التسليم . فماتوا قتلا وغرقا . وقد شهد الجنرال برتييه الموقعة إلى جنب نابليون .

وذكر ريبو — أحد مؤرخى الحملة — أنه كان فى إمبابة أثنا عشر ألفا من الفلاحين ، معهم أربعون مدفعا . وكان منهم كثير من العرب ، والأقباط ، والأحباش .

وقال لاجونكيير — أحد قواد الحملة — إن خسائر الأهالى فى موقعة الأهرام كانت عظيمة . حيث غرق معظمهم فى النيل .

---

(١) يقول الجبرتى فى « مظهر التقديس » إن فرقة الأرنؤود التى قدمت من دمياط هى التى ثبتت حتى قتل معظم رجالها .

القاهرة بعد الهزيمة

استسلمت القاهرة ، بعد فرار المماليك ، للجنرال ديبوى ، فدخلها قبل نابليون ونزل فى بيت إبراهيم بك الصغير . ودخل نابليون القاهرة بعده بيوم واحد ، يوم ٢٤ يوليو سنة ١٧٩٨ ، بعد أن قصده العلماء مستشفعين يطلبون الصلح ، وسكن منزل محمد بك الألفى ، على بركة الأزبكية . وكان الألفى قد أتم بناءه قبل ذلك بقليل . وزخرفه بالزخارف الشائقة ، وجلب إليه أفخر الرياش . فأنفق فى ذلك أموالا طائلة . فكأنه كان يفعل ذلك كله لنابليون خاصة .

وقد وصف الجبرتى ، وكان يقيم فى القاهرة يوم ذاك ، شعور أهلها ، ووقع هذه الهزيمة فى نفوسهم . وما أصابهم من حزن وقلق ، وصفاً مؤثرا شيقا يثير الحزن والغصّة والمرارة . ثم وصف فرار القادرين من سكانهـا ، واستكانة العاجزين واستسلامهم لقضاء الله . ثم وصف ، فى مرارة وحزن ، ما لقيه الهاربون من سطو اللصوص والأعراب عليهم ، وسلبهم جميع ما معهم من مال ومتاع . وتجريدهم مما يلبسون من ثياب . ثم يقول « إن الأموال والذخائر التى خرجت من مصر فى تلك الليلة ، أضعاف ما بقى فيها بلا شك » .

وبدأ نابليون ، بعد استقراره فى القاهرة ، يداهن المصريين ، ويتودد إليهم ، ويتملقهم . فأمر بأن ينشأ ديوان لحكم مصر ، حتى يوهمهم بأنهم يحكمون أنفسهم بأنفسهم ، وجعل أعضاءه عشرة من كبار العلماء ، برياسة الشيخ عبد الله الشرقاوى . وضم إليهم القاضى ، ونائب الوالى العثمانى — الذى عاد بعد أن فر مع إبراهيم بك — وبعد أن عاد نابليون من مطاردته لإبراهيم بك فى بلبيس ثم الصالحية . تجددت له المناسبات ليزيد فى مداهنة المصريين وملقهم . فلما حل وفاء النيل ، فى ١٧ أغسطس من تلك السنة ، أمر بأن يجرى له احتفال رائع يفوق ما كان يقام فى عهد المماليك . وصفّ جنوده من الفرنسيين على حذاء النيل ، وحضر بنفسه ، وحوله قواده ، فجلس وإلى جانبه نائب الوالى ، وقاضى

القضاة ، وأعضاء الديوان ووجوه أهل القاهرة ، أو من بقى منهم . وأطلقت المدافع ، وزينت السفن التى تسير فى النيل . ولكن الناس لم يبتهجوا بذلك ، ولم يشاركوا فيه .

ثم جاءت مناسبة أخرى ، وهى ذكرى مولد النبى الكريم ، الذى وافق يوم ٢٤ أغسطس . فأمر نابليون السيد خليل البكرى بأن يقيمه على أبهج صورة . وأعظم عناية ، وأعطاه ثلاثمائة ريال لينفق منها على ذلك . واشترك أفراد الجيش الفرنسى فى المولد بطبولهم وموسيقاهم وألعابهم . وذهب نابليون بنفسه إلى منزل البكرى فألبسه خلعة النقابة على الأشراف — بدلا من السيد عمر مكرم الذى هاجر إلى الشام — وشهد نابليون فى منزل البكرى الليلة الختامية للمولد ، واستمع إلى حفلة الذكر من أولها إلى ختامها . ثم تناول عنده طعام العشاء ، على صحائف من الفضة .

فعل نابليون ذلك وغيره ، ليرضى عنه المصريون . ولكنه من ناحية أخرى، فرض على أهل القاهرة ٢٤٠ ألف جنيه ، على أن يردها إليهم — كما يقول الجبرتى — « عندما يروق الحال ، ويتسع المجال » . وسلط جباته على نساء المماليك حتى يفتدين أنفسهن بالمال . فأخذ من السيدة نفيسة ، زوجة مراد بك ، وحدها أربعة وعشرين ألف جنيه . كما أخذ أموالا طائلة من غيرها من نسائهم . وفرضوا ضرائب أخرى على أهل الحرف والصناعات ، وأخذوا يفتشون البيوت يستخرجون منها مخبآتها من الأموال والودائع والسلاح ، ويستعينون بالخدم على معرفة أسرار أسيادهم . ويستولون على الخيل والجمال ، والحمير والأبقار والثيران ، أو يدفع أصحابها فدية . فأخذوا من ذلك شيئا كثيرا . وأخذ نابليون فى سبيل تحصين مواقعه ، يهدم كثيرا من البيوت والأرصفة والمساجد أيضا . ويدك أبواب القاهرة ومساطبها . وسلط على أهل القاهرة رجلا أجنبيا هو برطلمين . وكانت العامة تسميه فرط الرمان — كان أصله مدفعيا عند محمد بك الألفى ، وله حانوت فى شارع الموسكى يبيع فيه قوارير الزجاج . وكان هذا الرجل معروفا بحقده

على المصريين ، وشدة كراهته لهم . فاختاره « كتخدا مستحفظان » أى نائبا لمحافظة القاهرة .

كما أمر نابليون بأن يضع المصريون جميعا شارة الجمهورية الفرنسية على صدورهم أو رؤوسهم . فأبى أكثر الناس ذلك . ولبسها فريق منهم ليدخل عليهم إذا كان له عندهم شأن . وأراد نابليون أن يلبس أعضاء الديوان طيلسانا بألوان هذه الشارة . فلما وضعه على كتف رئيسه الشيخ الشرقاوى ، ألقاه على الأرض غاضبا محتدا ، ولم يعبأ بثورة نابليون عليه .

المحفز للثورة

لم تجد وسائل نابليون فى ترضى المصريين شيئا . وبدءوا بعد أن أفاقوا من أثر الهزيمة التى جلبها عليهم المماليك ، يجمعون قوتهم ، ويثوبون لرشدهم ، ويتحفزون للثورة . وألهبت هذه المظالم وهذا التحدى شعورهم بالنضب . وجاءتهم أنباء موقعة أبى قير البحرية التى حطم فيها أسطول نابليون ، فى أول أغسطس ، فقوت من عزيمتهم .

وقد ذكر الجبرتى قصة طريفة ، تدل على حقيقة الشعور الذى كان يجده عوام القاهرة فى نفوسهم نحو نابليون . فهو يقول : إن نابليون وهو يخرج من بيت الشيخ السادات فى المشهد الحسينى ، مر بعسكره وحاشيته فى زحمة الناس « وهم يلغطون ويخلطون فلما نظروه ، وشاهد هو جمعيتهم ، داخله أمر من ذلك . فصاحوا بأجمعهم وقالوا بصوت عال : الفاتحة . فشخص إليهم وصار يسأل من معه عن ازدحامهم ، فلطفوا له القول . وقالوا إنهم يدعون لك . . . ! » فهؤلاء الناس من أهل القاهرة ، وقد شاهدوا نابليون بينهم فى حى الحسين ، يريدون أن يظهروا سخطهم عليه . ولكنهم يعلمون أنه لا حول لهم ولا قوة . وهو صاحب الحول والقوة . فلا يجدون متنفسا يعبرون به عن سخطهم وغضبهم إلا هذه الإشارة اللطيفة ، التى تفصح عما يريدون ، ولا تجلب عليهم ضرا ولا شرا . وهى قراءة الفاتحة . فلم تفارق أهل القاهرة فى ذلك لباقتهم ولا ظرفهم . وقد أحس

نابليون من نظراتهم وأصواتهم ، بدخيلة نفوسهم · ولكن مرافقيه هوّنوا عليه ذلك · وقالوا إن القوم يدعون له . . . !

وكان شخوص نابليون بنفسه إلى منزل الشيخ السادات ، فى وقت غير ملائم ، وبلا موعد ، أمرا ذا دلالة أيضاً · فقد نقل إلى نابليون أن رسائل وردت من إبراهيم بك تدعو أهل القاهرة للثورة ، وكان السادات شيخا ذا مكانة كبيرة ، وممن نقل إليه أنهم تلقوا رسائل إبراهيم · فكان ذلك سببا لقلق نابليون وخوفه ، حتى شخص بنفسه بعد الظهر ، إلى منزل الشيخ . ليسأله حقيقة الأمر ·

وبدا شعور المصريين واضحا أيضاً فى موقفهم السلبى إزاء نابليون ، فإنهم لم يشاركوا فى مهرجان وفاء النيل الذى أشرنا إليه ، ولم يشاركوا فى حفلات المولد النبوى أيضاً ، على الرغم من مجاملة نابليون لهم فيه ، وعنايته الفائقة به . وكذلك لم يشاركوا فى تلك الحفلات البهيجة التى أقامها بعد ذلك لمناسبة عيد الجمهورية الفرنسية ، يوم ٢٢ سبتمبر من تلك السنة · وأمر بأن تظهر بمظهر غاية فى الفخامة والعظمة · بل إن أهل القاهرة أيضاً اتخذوا من هذه الحفلة مادة لسخريتهم المعروفة . فقد أقام الفرنسيون عمودا عظيما فى وسط بركة الأزبكية ، ألقى نابليون تحت قاعدته خطبة ، وسموه شجرة الحرية · ويقول نقولا الترك فى ذلك « أما أهالى مصر فكانوا يقولون إن هذه إشارة « الخازوق » الذى أدخلوه فينا ، واستيلائهم على مملكتنا . . . ! واستمر هذا العمود نحو عشرة أشهر · وحينما رفعوه ، استبشرت أهل مصر ، وابتهجت بالفرح[1] » ·

ومما يدل على ذلك أيضاً ، ما أظهروه من الفرح والتشفى ، عندما وردت إليهم أنباء معركة أبى قير ، وتحطيم الأسطول الفرنسى فيها · حتى أغاظ هذا الفرح نابليون ، وقتل بسببه بعض القاهريين .

---

(١) ص ٥٤ من كتاب « ذكر تملك جمهور الفرنساوية الأقطار المصرية والشامية » طبع باريس سنة ١٨٣٩ .

ونستطيع أن نذكر في باب المقاومة السلبية ، ما فعله الشيخ السادات ، من عدم قبوله عضوية الديوان بعد انتخابه له ، وصدور أمر نابليون بتعيينه . مع أنه كان من أعظم العلماء شأنا في ذلك الوقت . وكان نابليون يقبل شفاعته ، ويزوره في بيته ، فكان هذا الموقف منه إباء عن الاشتراك في الحكم تحت إمرة نابليون. ويدل على هذه النية أيضاً ما بدا منه ضد الفرنسيين ، في ثورة القاهرة عليهم ، كما نرى ذلك فيما بعد .

كانت نفوس الناس في القاهرة على هذه الحال ، من التحفز ، والسخط ، والكراهية المكبوتة للفرنسيين . وجاءهم نبأ إعدام السيد محمد كريم ، حاكم الإسكندرية وزعيمها الوطني، فزاد من سخطهم وغضبهم وكراهيتهم . وهيّأ هذا الشعور المكبوت للانفجار .

ثورة القاهرة الأولى

بدأ أهل القاهرة يتجمعون للثورة ، ويتحفزون للوثوب على جند نابليون ، حتى انطلقت ثورتهم الجارفة يوم ٢١ أكتوبر . أى بعد أقل من ثلاثة أشهر من هزيمتهم .

الأزهر والثورة

يقول دى لاجونكيير « كانت الدعوة إلى الثورة تختلط عاما بأذان المؤذنين ، فيدعون إلى الله وإلى الثورة على المآذن ، صباح مساء . فبلغ تهييج النفوس أشده ، حتى لتكفى حادثة واحدة لتضرم بركان الهياج القومى[1] » .

ويقول الجبرتى « ... فتجمع الكثير من الغوغاء ، من غير رئيس يسوسهم ، ولا قائد يقودهم . وأصبحوا يوم الأحد — ٢١ أكتوبر — متحزبين ، وعلى الجهاد عازمين . وأبرزوا ما كانوا أخفوه من السلاح ، وآلات الحرب والكفاح . ولهم صياح عظيم ، وهول جسيم . وكذلك اجتمع بالأزهر ، العالم الأكبر » .

وسجل نابليون فى مذكراته أنه كانت هناك « لجنة للثورة » تنظم شئونها ، وتجمع المتطوعين ، وتسلحهم . وأن الشيخ السادات كان رئيس هذه اللجنة . كما ذكر فى تقرير له أن هذه اللجنة كانت تجتمع فى الأزهر .

ويقول نقولا الترك إن عالما من رجال الأزهر خرج قبل الثورة بيوم ، ينادى فى شوارع القاهرة بأن يتجمع الناس فى الأزهر للحرب ، وقد قتله الفرنسيون فيما بعد . وقدرت بعض المصادر الفرنسية عدد الثائرين الذين تجمعوا فى الأزهر بخمسة عشر ألفا .

كانت الدعوة إذن من الأزهر ، وكانت قيادة الثورة من رجاله ، ومن داخله . فلما جاء وقت العمل ، تجمع الناس فى الشوارع المحيطة به ، وقصدوا إلى بيت القاضى التركى ، إبراهيم أفندى أدهم ، أو « جقمش زاده » ، كما يسميه

---

(١) ص ٢٨٤ جزء ١ من تاريخ الحركة القومية للأستاذ عبد الرحمن الرافعى .

الجبرتى ، فطلبوا إليه أن يذهب معهم إلى نابليون . فأطاعهم القاضى ، ثم رأى أن الجماهير تتكاثر . وأن ثورتها قوية جارفة ، فتركهم بعد أن ركب فرسه ، فضربه الثائرون بالعصى والحجارة ، ونهبوا منزله . ثم ساروا فى طريقهم .

وبعد قليل التقى بهم الجنرال ديبوى ، حاكم القاهرة الفرنسى ،فأراد أن يفرق جمعهم بالقوة ، عند باب القصرين — بالنحاسين — ولكن الثائرين أطبقوا عليه من كل جانب . وما إن أطلق عليهم برطلمين الأجنبى أول رصاصة ، حتى أخذوا ديبوى رجما بالحجارة وضربا بالعصى وطعنا بالسيوف والرماح . حتى أثخنوا جسمه بالجراح ، وأصابوا ياوره الكابتن مورى . ومات ديبوى بعد قليل . بضربة رمح فى ثديه .

وسمع نابليون أنباء الثورة وقتل قائده الجنرال ديبوى ، فجاء إلى حيث يرى بنفسه . وأراد أن يدخل القاهرة — قادما من الجيزة — من جهة مصر القديمة ، فلم يستطع ، لتجمع الثائرين . فدخلها من باب اللوق . حيث كانت الثورة على أشدها . واختار نابليون الجنرال بون خليفة لديبوى ، وأمره أن يحبط الثورة بأى ثمن . وانتهى اليوم الأول للثورة . بعد أن جرت فيه مواقع عديدة بين الثائرين والفرنسيين ، فى أحياء القاهرة .

ثم جاء اليوم الثانى وقد أصبح الأزهر ، مقر القيادة ، يعج بالثائرين . وأحيطت جميع الشوارع والمنافذ الموصلة إليه بالمتاريس . كما أخذت القيادة الفرنسية أهبتها لتحطيم الثورة ، وقمعها . وطلب القائد الجديد ، بون ، إلى نابليون أن يأذن له فى اتخاذ أقسى الوسائل ، وأشدها صرامة ، مع الأزهر وقيادة الثورة فيه . وكان الفرنسيون قد نصبوا مدافعهم الثقيلة على التلال والأماكن العالية التى تحيط بالقاهرة .

فلما أصبح الصبح ، كانت آلاف كثيرة قد دخلت القاهرة ، قادمة لنصرة الثورة فيها من البلاد المجاورة لها . وكان الثائرون قد اتصلوا بأهلها ، وأوقفوا على أبواب المدينة حرساً منهم يأذن لهم بالدخول ويوجههم إلى أماكنهم لتعزيز الثورة .

وكان من الزعماء الذين قدموا لنصرة الثورة من «قليوب» الشيخ سليمان الشواربي، زعيم هذه الأسرة إذ ذاك • وقدم الفلاحون أيضا من الجيزة لهذا الغرض • وقدر نابليون عددهم في تقرير له بأربعة آلاف أو خمسة ، ولكن الفرنسيين حاربوهم ، وردوهم فلم يدخلوا القاهرة • وقدمت آلاف أخرى في اليوم التالي، من باب النصر، فذهب الجنرال سلكوسكي لردهم . وطاردهم خارج القاهرة على طريق بلبيس • فلما عاد يدخل من باب النصر ، تلقاه الثائرون . وفي أثناء المركة كباجوادُه، فهجموا عليه وقتلوه • وقتلوا من معه من الجند ، ولم ينج منهم إلا واحد •

وكذلك ردّ الفرنسيون آلافا كثيرة كانت قادمة من الزيتون،والقبة، والمرج، والمطرية ، والقطا ، وسرياقوس ، وقليوب . ويقول أمين باشا سامي إن سكان القاهرة زادوا إذ ذاك إلى مليون نسمة . وكانت هذه الزيادة بلاشك بسبب القادمين لمساعدة الثورة[1] .

ومع حرمان الثائرين من معونة هذه الآلاف العديدة ، فقد استطاعوا أن ينالوا من الفرنسيين منالا شديدا • ولولا المدافع الثقيلة التي نصبها الفرنسيون على المرتفعات، وأطلقوا قذائفها على البيوت ، والمساجد ، والناس جميعا ، لنالوا منهم منالا أشد وأعنف وأقسى .

ففي مذكرات نابليون أن سبعة آلاف من الثائرين كانوا في منطقة باب الفتوح ، يهاجمون مواقع هذه المدافع ، ببنادقهم ، وعصيهم ، ورماحهم . فكانت قنابلها تفتك بهم أشد الفتك ، وتقتلهم جماعات .

واستطاع فريق من الثائرين أن يصل إلى مقر القيادة الفرنسية ، في الأزبكية . وتسلقوا مسجدا يشرف عليها فسلطوا على جنودها نيرانهم وقتلوا منهم عددا كبيرا • ولم يستطع الفرنسيون التغلب عليهم إلا باقتحام المسجد ، وقتل من فيه من الثائرين .

---

(١) ص ١٢١ تقويم النيل ، الجزء الثاني . طبع دار الكتب المصرية .

واشترك كل قادر فى هذه الثورة ، حتى النساء . وسنرى بعد قليل أن الفرنسيين أعدموا عدداً منهن ، لاشتراكهن فيها .

وكان شعلة الثورة المتأججة ، هو الأزهر ؛ والأحياء المجاورة له . وعلم نابليون أن رجال الثورة تغلبوا على جنده فى أحياء متفرقة ، وأنهم هاجموا مقر البعثة العلمية فى بيت مصطفى كاشف بالدرب الأحمر ، فأراد أن يتخذ كل مايستطيع من وسائل العنف ، والجبروت ، والقسوة ، ليتغلب على الثورة .

أمر بأن يضرب الأزهر بقنابل المدافع ضربا شديدا . وأن يقتحمه الجند بعد ذلك تحت حماية هذه المدافع . وأمر بأن يقتل كل مصرى تلقاه جنوده فى الشوارع المحيطة به . وأن يقتلوا جميع من يجدوه داخل الأزهر . وأن يحرق كل بيت تاتى منه الحجارة على جنوده .

وأطلقت المدافع على الأزهر ، وعلى من فيه . فسقطت أول قنبلة فى داخله . وظل إطلاقها عليه من الظهر إلى الليل . فتسقط على المسجد ، وفى أحياء الغورية ، والفحامين والصنادقية ؛ وماجاورها . وكان الجند يستولون على كل شارع أو حارة تهدمها القنابل وهم يتقدمون صوب الأزهر .

وقد وصف ريبو أثر هذه القنابل بقوله : « أوشك الأزهر أن يتداعى من شدة الضرب فتدفن تحت أنقاضه الجماهير الحاشدة فيه . وأصبح الحى المجاور للأزهر صورة من الخراب والتدمير . فلم يكن يُرى إلا بيوت مدمرة ودور محترقة . ومات تحت الأنقاض آلاف من السكان الآمنين ، كان يسمع لهم أنين موجع ، وصيحات مرعبة[1] .

ويقول الجبرتى : « . . . ضربوا بالمدافع والبنبات ، على البيوت والحارات . وتعمدوا بالخصوص الجامع الأزهر . وحرروا عليه المدافع والقنبر « القنابل » . . فلما سقط عليهم ذلك ورأوه ، ولم يكونوا فى عمرهم عاينوه ، نادوا ياسلام . . . ! من

(١) ص ٢٩٧ جزء ١ تاريخ الحركة القومية للرافعى .

هذه الآلام ...! ياخفيّ الألطاف ، نجّنا مما نخاف ... وتتابع الرمى من القلعـة والـكيمان . حتى تزعزعت الأركان » .

وكان من الطبيعى أن يُغلب الثائرون أمام هذه القوة التى لا قبل لهم بها . ولـكنهم قبل أن يغلبوا ، ويستسلموا ، أدّوا واجبهم كما يؤديه الأبطال .

فى مساء اليوم انتهت المقاومة فى جملتها . ولـكن أهل الحسينية ، والعطوف ظلوا يقاتلون وحدهم بعد ذلك ثلاث ساعات . حتى نفدت ذخيرتهم .

خيل الفرنسيين داخل الأزهر

وبدأ الجنود الفرنسيون يتقدمون فى حذر ، حتى دخلوا معقل الثـــورة ، « ... دخلوا إلى الجامع الأزهر ، وهم راكبون الخيول ، وبينهم المشاة كالوعول . وتفرقوا بصحنه ومقصورته . وربطوا خيولهم بقبلته . وعاثوا بالأروقة والحارات . وكسروا القناديل والسهّارات . وهشموا خزائن الطلبة ، والمجاورين والـكتبة ، ونهبوا ما وجدوه من المتاع ، والأوانى والقصاع ، والودائع والمخبئات ، بالدواليب والخزانات . ودشتوا الـكتب والمصاحف ، وعلى الأرض طرحوها ، وبأرجلهم ونعالهم داسوها . وأحدثوا فيه وتغوّطوا ، وبالوا وتمخطوا ، وشربوا الشراب وكسروا أوانيه ، وألقوها بصحنه ونواحيه . وكل من صادفوه به عرّوه ، ومن ثيابه أخرجوه » . بذلك وصف الجبرتى هذه المحنة التى لقيها الأزهر وأهله من الفرنسيين .

وكان ذلك فى يوم ١٣ من جمادى الأولى من سنة ١٢١٣ هـ — ٢٢ أكتوبر ١٧٩٨ م .

وبذلك انحلت الثورة وسلمت ، عاجزة ، مقهورة . ولم يبق منها فى اليوم الثالث إلا مناوشات قليلة ، متفرقة ، ضعيفة . فيها من العناد أكثر مما فيها من السداد .

ويقول الشيخ عبد الله الشرقاوى : إن الفرنسيين عندما دخلوا الأزهر « نهبوا منه أموالا كثيرة ، وسبب وجودها فيه أن أهل البلد ظنوا أن العسكر لا يدخله . فحوّلوا فيه أمتعة بيوتهم [1] » .

(١) ص ٧٦ من كتاب « تحفة الناظرين ، فيمن ولى مصر من الولاة والسلاطين .

أما روح الثورة وقوتها المعنوية ، وحماسة أهل القاهرة فيها ، على الرغم من قصورهم المادى ، وضعفهم ، فقد وصفها ريبو فى هذه الكلمات ، التى يذكر فيها بدء تجمعهم ، وظهور سخطهم فى اليوم الأول : « سادت الجلبة ، واختلطت الأصوات ، وعلت الصيحات فكان هذا المنظر يبعث الرهبة فى نفوس أشجع الناس[1] » .

ويصف نقولا الترك هذه الثورة بقوله : « وكان أولئك الأمم — يعنى المصريين — هايجين هيجات وحشية · فتهاربت الفرنساوية، إلى بركة الأزبكية »[2] أى أن الفرنسيين كانوا يفرون أمام رجال الثورة هاربين إلى مقر قيادتهم فى الأزبكية ·

ونستطيع أن ندرك عنف هذه الثورة إذا عرفنا عدد من قتل فيها من الجانبين . فقد أحصى نابليون القتلى من المصريين ، فى أيام الثورة الثلاثة ، بما يتراوح بين ألفين ، وألفين وخمسمائة · وقدرهم ريبو بأربعة آلاف . وهو التقدير الأوفق . وقتل من الفرنسيين مائتان[3] — منهم قائدان من أعظم قواد نابليون هما ديبوى وسلكوسكى . أما أولهما فكان من أعظم قواد نابليون شجاعة ، وجسارة ، وكفاية ، منحه نابليون رتبة جنرال وهو فى الثانية والثلاثين ، تقديرا لبلائه فى حملته على مصر . وأما ثانيهما فكان بولونيا تطوع فى جيش نابليون . فاختاره ياورا له ، لنبله ، وشجاعته ، وذكائه . وكان إلى ذلك عالما وعضوا بالمجمع العلمى الفرنسى · وقد حزن نابليون لقتله حزنا شديدا .

كما كان من قتلى الفرنسيين عدد من الضباط ، والمهندسين ، والأطباء ، والعلماء ، والرسامين . فقد هاجم الثائرون ، فى فورة غضبهم ، مقر العلماء المرافقين للحملة فى بيت مصطفى كاشف ، بالدرب الأحمر ، وكسروا آلاتهم الهندسية ، وأجهزتهم العلمية والفلكية ، وقتلوا بعضا منهم .

بقى جند نابليون داخل الأزهر يوما وليلة ، ثم ذهب إليه العلماء يرجونه

(١) ص ٢٨٧ جزء — ١ — من تاريخ الحركة القومية .
(٢) ص ٦٧ من ذكر تملك جمهور الفرنساوية .
(٣) قدر نقولا الترك قتلى المصريين بخمسة آلاف والفرنسيين بألفين .

أن يخرجهم فأمر بخروجهم منه ، على أن يبقى بعض منهم فى الأماكن القريبة منه .

وبعد أن سلّم الثائرون ، أمام القوة الساحقة ، سلط عليهم نابليون سيف القهر والغلبة والانتقام . بالقتل ، والمصادرة ، والسجن . حتى إنه أصدر أمرا إلى الجنرال بون — بعد تسليم الثائرين ، واحتلال جنوده الأزهر — يأمره بهدم الأزهر ليلا ، لو استطاع . وأعدم لجنة الثورة ، وكانت ثمانين من الزعماء والمجاهدين . كما أعدم غيرهم كثيرين . قتلوا ، ووضعت جثثهم فى زكائب ، ثم ألقيت فى النيل ، مابين بولاق ومصر القديمة . وكثير من هؤلاء أعدم بلا محاكمة . وكتب نابليون فى رسالة منه إلى الجنرال رينيه ، الذى كان قائد حاميته فى الشرقية ، يقول : إنه فى كل ليلة ، يقطع رؤوس نحو ثلاثين من الرجال ، وكثير من زعماء الأهالى . وأن هذا سيكون درساً قاسياً لهم .

وكتب الجنرال برتييه فى رسالة له إلى الجنرال دوجا ، قائد حامية المنصورة . إنهم قد نكلوا بالثائرين ، فى مذبحة رهيبة .

وذكر مسيو بورين ، سكرتير نابليون الخاص ، أنه كان يتولى مساء كل يوم كتابة الأوامر القاضية بإعدام اثنى عشر سجينا من سجناء الثورة فى كل ليلة . وأن ذلك استمر ليالى عدّة . وذكر أن نساء كثيرات ، نفذت فيهن أحكام الإعدام . وذكر الشيخ عبد الله الشرقاوى . أنهم قتلوا من العلماء نحو ثلاثة عشر عالما . ذكر الجبرتى بعضاً منهم . سُجن هؤلاء العلماء فى بيت البكرى أياما . ثم عُرّوا من ثيابهم ونقلوا إلى القلعة فقتلوا وألقيت جثثهم فى النيل . وكان قد تشفع فيهم العلماء والشيخ السادات ، فلم تقبل منهم شفاعة .

وقد أوشك نابليون أن يأمر بقتل السادات ، لما رابه من أمره . بل إنه قال فى مذكراته : إن الدلائل قامت عنده على أن الشيخ السادات كان زعيم الثورة ، ورئيس لجنتها . ولكنه خشى من عواقب قتله ، ومن أثر ذلك فى الناس ، لما كان للسادات من حرمة ، ومكانة .

انتقام نابليون

ومما يدل على مبلغ القسوة التي اتخذها نابليون لعقاب أهل القاهرة على ثورتهم ، تلك الرسالة التي بعث بها إلى الجنرال زيونشك . حاكم المنوفية ، والتي يقول فيها : إنه كان — في القاهرة — يقتل كل يوم ثلاثة ، ويأمر بأن يطاف برؤوسهم في الشوارع . وأن هذه هي الطريقة الوحيدة لإخضاع هؤلاء الناس . ثم يأمر نابليون قائده زيونشك ، في هذه الرسالة ، أن يتخذ مع المصريين كل وسائل البطش والقسوة . وأن يجرد سكان البلاد جميعاً من سلاحهم . وتلك الرسالة التي بعث بها إلى الجنرال منو ، في رشيد ، يقول فيهـا : إنه يأمر في كل ليلة بقتل خمسة ، أو ستة ، لإرهاب المصريين .

أما الذين لم يقتلوا من أهل القاهرة ، حربا أو غدرا . فلم يسلموا من عنت الفرنسيين وانتقامهم أيضا . فقد ظل جند نابليون أياما طويلة يقفون لهم في شوارع المدينة ودروبها صفوفا متراصة . لتفتيش الناس وأخذ ما معهم ، وربما قتلوهم . وتسلط عليهم برطلمين يبث أعوانه وعسسه بحجة البحث عن السلاح ، ثم يفعل بهم ما يشاء حقده . فكانت ترى في أيام كثيرة ، قوافل من المصريين تسير موثقة بالحبال إلى السجن ، حيث تلقى صنوفا من العذاب ، ثم تفرض عليها المغارم الثقيلة . أو تقتل حيث لا يعلم بمصيرها أحد . ويقول الجبرتي : إنه « مات في هذين اليومين . وما بعدهما ، أمم كثيرة ، لا يحصي عددها إلا الله » وكذلك فعل بهم مصطفى أغا الذي اختاره نابليون محافظا للقاهرة .

ولم يكن انتقام نابليون قاصراً على أهل القاهرة وحدهم . بل تجاوزهم إلى أهل البلاد القريبة إليهـا . وخاصة تلك التي اشتركت ، أو حاولت أن تشترك ، في معاونة الثائرين . فقد أرسل حملة إلى عرب القليوبية . فحرقت خيامهم وبيوتهم . وذبحت رجالهم ذبحا . وقتلت نساءهم ، وأولادهم . ثم أمر نابليون بأن تحمل

رؤوس قتلاهم إلى القاهرة . فحمل منها مائتان ، وضعت فى « أكياس » ونقلت على ظهور الحمير . ثم أفرغت فى شوارع القاهرة ، أمام أهلها ، نكاية بهم ، وتخويفاً . وليروا بعيونهم انتقام نابليون فيخشعوا ، ويخضعوا ، ويذلوا .

وسارت حملة أخرى إلى « سرياقوس » فنهبت البلاد ، وأحرقت القرى ، وفرضت على أهلها أفدح المغارم . وجاء بالشيخ سليمان الشواربى ، كبير هذه الأسرة ، وثلاثة من رجاله ، فقتلهم . لأنه وجد كتابا منه إلى أهل سرياقوس ، يحرضهم على الثورة .

وسارت فرقة المغاربة ، التى ألفهـا نابليون فى القاهرة ، إلى كفر عشما ، بالمنوفية ، فقتلوا كبيرها ، ابن شمير ، ونهبوا داره — وكان فيها شىء كثير — ثم قتلوا أولاده وإخوته . ويقول الجبرتى : إن الفرنسيين أحضروا إخوته وأولاده إلى القاهرة ، فقتلوهم فيها .

ولمـا قتل الفرنسيون ابن شمير . طافوا برأسه فى قرى المنوفية — وكان صاحب النفوذ الأكبر فيها — ليصدق الناس موته .

وكذلك أحرقت قرية « القطا » فى إمبابة ، عقابا لها .

وقد اشترك فى هذه الثورة العامةُ ، فهدم نابليون بيوتهم على رؤوسهم ورؤوس أطفالهـم ، ونسائهم . وخاصة من كان منهم فى أحياء الحسينية ، والأزهر . واشترك فيها رجال الأزهر ، فقتل علماءه ، من غير محاكمة ، وألقى جثثهم فى النيل . وامتهن قداسته بمـا رأينا من صور الامتهان ، والتحقير . واشترك فيها الخاصة ؛ فقتل كبارهم ، كالشواربى ، وشمير . فقد قتلهما ومثل بهما شر تمثيل .

وعاقب الخاصة ، والعلماء ، والمصريين جميعاً بما فرض عليهم من ضرائب ظالمة ثقيلة . وبإبطال جلسات الديوان . ولعله أراد بهذا أيضاً عقاب أعضائه أنفسهم . لأنهم لم يحاولوا تهدئة الثورة ، ولم يحولوا دون وقوعها . بل كانوا يتشفعون عنده فى بعض زعمائها وقادتها .

والحق أن العلماء من أعضاء الديوان ، قصدوا إلى الازهر ، بتكليف من نابليون ، ليتحدثوا إلى قيادة الثورة فيه . علّهم يجدون وسيلة يحفظون بها دماء التعساء من الأطفال والنساء والعجزة ، بإقامة صلح بين الثورة ونابليون . ولكن المتترّسين خارج الأزهر ، والمعتصمين فى داخله من رجالها ، ردوا علماء الديوان ردا قبيحا ، واعتدوا عليهم . ومنعوهم من الدخول عليهم فى مقر ثورتهم بالأزهر .

وأراد نابليون أن يأخذ الحذر والحيطة ، حتى لاتقوم ثورة أخرى فىالقاهرة . وفى الوقت نفسه ، يمعن فى الانتقام من أهلها . فهدم كثيرا من المساجد ، منها مسجد أولاد عنان ، والكزرونى ، فى الروضة ، ومسجد فى قنطرة الدكة . وآخر فى إمبابة ، واتخذ من مسجد الظاهر قلعة وجعل مئذنته مرصدا . وأقام فى داخله عدة مساكن لجنده ، وحظائر لخيلهم . ووضع على أسواره المدافع .

وأحاط القاهرة كلها بالحصون ، والقلاع ، والمعاقل . فهدم فى سبيل ذلك ، كثيرا جدا من البيوت والقصور ، أو خربها ، وقطع آلافا من الأشجار . وأمر سكان المناطق القريبة من مقر قيادته فى الأزبكية ، أن يتركوا مساكنهم ليسكن فيها جنده ، ورجاله ، وأنصاره .

وقد بلغ عدد القلاع والحصون ، التى أقامها نابليون ، حول القاهرة ، وفى ضواحيها ليسيطر عليها ، وليحول دونها ودون ثورة أخرى ، أو يهدمها بالقنابل إذا ثارت ، تسع عشرة قلعة .

ولكن ذلك كله لم يجد شيئا ، فقدثارت القاهرة بعد ذلك ثورتها الكبرى ، كما نرى بعد .

الثورة فى الوجه البحرى

لم تكن القاهرة وحدها هى الغاضبة من عدوان نابليون على أرض مصر ، ولا الثائرة وحدها فى وجه جيوشه . بل شاركتها فى الغضب والثورة بلاد الريف كلها ، فى الوجهين البحرى والقبلى على السواء . ونكاد نجد — ونحن نسجل صفحات هذه المقاومة الباسلة — أن كل مدينة ، وكل قرية فى هذا الريف كله ، كان لها نصيب فى شرف هذه الثورة وهذا الغضب .

فعندما خرجت جنود نابليون لتعقب جيش إبراهيم بك ، وهو فى طريقه إلى « بلبيس » خرج عليهم الناس من قرية « أبو زعبل » بالبنادق والعصى . حتى ردوهم إلى الخانكة . ثم قام أهل الخانكة أيضا فصاروا يقتلون كل من يلقونه من الفرنسيين . ودمروا الأفران التى بناها ميو ، مدير اللوازم لجيش نابليون ، وكان قد بناها لتموين الجيش الزاحف لمطاردة إبراهيم . ودام القتال بين المجاهدين من أهل هاتين القريتين من صباح يوم ٥ أغسطس ١٧٩٨ إلى مسائه ، حتى كادت الدائرة تدور على الفرنسيين ، فانسحبوا من الخانكة . ووثب المجاهدون على الحامية التى بقيت فيها فجردوا أفرادها من السلاح ، وقتلوهم . وارتد من بقى من الجند وقد استولى عليهم الفزع ، إلى المطرية ، والمرج . عائدين إلى القاهرة . ولكن الفرنسيين عادوا بعد ذلك بجيش كبير ، وتغلبوا على المجاهدين ونهبوا قرية أبى زعبل ، وحرقوها ، ثم ساروا إلى بلبيس .

فى الشرقية

وبعد هزيمة إبراهيم بك ، فى بلبيس ، وفراره إلى الشام . بدأت مقاومة أهل مديرية الشرقية فى الظهور والشدة . فأخذوا يرفعون السلاح فى وجه الفرنسيين . ويمتنعون أن يبيعوهم الخيول ، والأطعمة ، وحيوانات الذبح . ويغيرون على مواصلاتهم مع قيادتهم فى القاهرة ، فيقطعونها . ويهاجمون مخافرهم فى الليل والنهار . وقتلوا ترجمان الجنرال رينيه الخاص ، على مقربة من معسكرهم فى بلبيس .

وحارب أهل قرية « بيشة قايد » فرقة فرنسية ، أرادت أن تغتصب منها خيلا .

وقد تطورت مقاومة المجاهدين بعد ذلك ، إلى هجوم على معسكر الفرنسيين الرئيسى ، فى بلبيس ، وتكرر هذا الهجوم أكثر من مرة . واشترك فى بعض الهجمات ١٢٠٠ من المشاة ، و٢٥٠ من الفرسان . واستطاع الجنرال رينيه ، بمن معه من الجند ومن جاء لنجدته من مدد ، أن يصد هذه الهجمات ، ولكن العرب من قبائل « بلى » أعادوا عليه الهجوم بخمسمائة فارس ، وألف وخمسمائة راجل . وكانت مدافع الفرنسيين ذات أثر حاسم فى هـذه المواقع . ومع ذلك فقد كانت الحرب سجالا بينهم وبين المصريين من الفلاحين والعرب . واستنجد رينيه مرة أخرى ، بنابليون . فأرسل إليه مددا . وأمره بالقسوة فى عقاب الثائرين والمحرضين. ولكنه وجد أن الشدة غير مجدية ، فمال إلى المسايرة والملاينة ، ومع ذلك لم يفلح .

ومن الذين برزوا فى المقاومة ، من أهل بلبيس ، عبـد الرحمن أباظه . وقد أخذه نابليون ، كما أخذ كثيرين غيره رهائن ، حتى تسكن الفتنة ، وتنتهى المقاومة . ثم جاء به وبهم . إلى القاهرة ، موثقين بالحبال . ومعهم نساؤهم، وأولادهم، ذكورا وإناثا ، وسار بهم الفرنسيون فى شوارعها يزفونهم بالطبول .

وفى بلدة بردين ، فى الشرقية ، تجمع الناس من أهلها أمام بلدتهم ، فلما شاهد القائد الفرنسى كثرتهم ، وسلاحهم ، لم يشأ أن يبادر بحربهم . فدعا عمدتها أن يقدم إليه ليطلب منه صرفهم ، فلم يحضر . وحارب أهل بردين وما حولها من البلاد ، القوة الفرنسية فهزموها وقتلوا من جنودها خمسة ، وجرحوا غيرهم . وفر من بقى من القوة . فلما بلغ خبر هذه الهزيمة الجنرال دوجا فى القاهرة ، أرسل إلى بردين قوة كبيرة ، ومدافع . فحاربها الفلاحون حتى غلبتهم . ثم دخل الفرنسيون البلدة فحرقوها . ومات من أهلها من الحرب أو الحريق ثلاثمائة شهيد ، ثم سارت القوة بعد ذلك إلى «الزنكلون» لعقاب أهلها على اشتراكهم فى المقاومة ، فوجدت أهلها قد رحلوا عنها .

ومن البلاد التى اشتركت فى الثورة على الفرنسيين فى الشرقية « العصلوجى » و « الغار » و « كفور نجم » وقد وقعت أمام هذه البلدة معركة شديدة ، على بحر مويس ، قتل فيها من المصريين مائة وثلاثون .

وكانت إمارة الحج فى ذلك الوقت ، من أكبر وظائف الدولة . فلما عاد أمير الحج فى تلك السنة ، صالح بك ، أبى أن يدخل القاهرة وفيها نابليون . ولحق بإبراهيم بك ، فى بلبيس . فاختار نابليون بدلا منه ، الأمير مصطفى بك . وأمره بأن يسير خلفه حين خرج لغزو سوريا . وأخرج معه القاضى التركى ، أدهم أفندى ، وبعض العلماء . ولكن الأمير ترك نابليون يسير إلى الصالحية . وعرج هو ، ومعه القاضى ، والشيخ سليمان الفيومى ، إلى « كفور نجم » حيث التقت به جموع كثيرة . وصار يدعو الناس للحرب والثورة . ثم سار الأمير ومعه الجموع الكثيرة من أهل هذه البلاد ، حتى نزل مديرية الدقهلية واستقر فى « ميت غمر » ليقطع مواصلات نابليون فى نهر النيل . وأمام هذه المدينة ، مرت عدة سفن فرنسية ، تحمل المؤن ، والدقيق ، إلى جيش نابليون الذى كان يحارب فى سوريا إذ ذاك فأغارت عليها هذه الجموع ، واستولت على ما فيها . وقتلت من فيها من الجنود . ثم مرت بعد ذلك سفينة حربية فهاجمها المصريون ، بقيادة مصطفى بك، واستولوا عليها . وغنموا أربعة مدافع كانت تحملها . وقتلوا جنودها وبحارتها .

وقد استشاط الفرنسيون غضبا لهذه الاعتداءات التى أوقفت سير سفنهم فى النيل . فسلطوا على « ميت غمر » قوة كبيرة أحرقتها ، حتى لم يبق فيها حجر على حجر . ثم أقاموا الحصون فيها ، وفى المنصورة ، ومنوف ، لحماية الملاحة فى النيل من هجمات المجاهدين .

أما الأمير مصطفى بك ، فقد صادر الفرنسيون ممتلكاته فى القاهرة ، وقبضوا على نائبه ، الذى كان ناظرا على الكسوة . وفر هو إلى دمياط ، ثم إلى الشام . وأراد أن يترضى الفرنسيين بعد فشله ، وأن يجدد صلاته بهم ، فأبوا ، وبقول نقولا الترك : إن مصطفى بك ذهب ليخدم أحمد باشا الجزار فى عكا ، فاتهمه بالجاسوسية ، وقتله .

وقد أسرع الفلاحون والعرب وأعيان البلاد إلى معونة هذه الثورة التى دعا إليها مصطفى بك ، وكان من أكبر أنصاره فيها كبير من أعيان هذه البلاد اسمه الحبالى ، وبادر الفلاحون بدفع ماطلب من الضرائب ، وكانوا لايدفعونها للفرنسيين ولو أكرهوهم على دفعها .

في الدقهلية ودمياط والسويس :

وقد كانت مديرية الدقهلية ومدينة المنصورة خاصة ، من البلاد التى أبدت أعنف المقاومة للفرنسيين .

وقد شهد ريبو أكرم شهادة لأهل مديرية الدقهلية . حيث قال : إنها كانت مسرحا للاضطرابات . وإنها هى والبلاد الواقعة على بحيرة المنزلة ، والجزر التى فيها ، يسكنها قوم أشداء ، ذوو نخوة ، لهم جلد وصبر . وهم أغنياء بما ينالون من الصيد فى البحيرة .

ولم يستطع الفرنسيون إخماد الثورات المتأججة فى بلاد هذه المنطقة ، إلا باتخاذ أشد وسائل التنكيل والقسوة . التى أغضبت نابليون نفسه ، وخشى منها على مكانته وسمعته .

فعندما تكررت حوادث الاعتداء على السفن الفرنسية فى النيل ، وقتل الجنود والبحارة ، قصد الجنرال فيال حاكم دمياط ، على رأس حملة تأديبية ، لحرق البلاد الواقعة فى طريقه ، وهى الضهرية ، وكفر المياسرة ، والزرقا ، وميت الخولى ، وقد أباحها لجنوده نهبا وحرقا ، لأن أهلها كانوا أكثر اعتداء من غيرهم على السفن . وقد وجد فيها ثلاثة مدافع . ثم حرق ونهب قرى الأحمدية ، وشرمساح ، وكفر الزعاترة . ثم عاد بحملته إلى دمياط بعد ارتكاب كل هذه الفظائع مع أهل القرى المجاورة . وقد أرسل له نابليون يلومه على مافعل بقرية ميت الخولى ، ويبدى له استياءه من ذلك .

معركة المنصورة :

واتفق أهل مدينة المنصورة وما جاورها من البلاد والقرى ، على أن يفتكوا بالحامية الفرنسية فيها . وتواصوا سرا على الاجتماع لذلك فى يوم الخميس الذى

يقام فيه « السوق » الأسبوعي للمدينة ، وفي اليوم الموعود امتلأت المنصورة بالقادمين إلى السوق وبالثائرين . وقصدوا إلى مقر الحامية فأحاطوا به ، ثم دكوه دكا ، وأحرقوه . وكان ذلك مفاجأة للفرنسيين ، فأسرعوا يقصدون النيل ليهربوا بحرا ، ولكن الثائرين كانوا في انتظارهم ، فقتلوهم جميعا . واستطاع فريق آخر من الجند الفرنسي ، أن يصل إلى النيل . ولكن أصحاب السفن الصغيرة من « المراكبية » أبوا أن يحملوهم ، فلحق بهم الثائرون وقتلوهم . وقدر عدد الجنود من رجال هذه الحامية بمائة وعشرين . وقدره بعض المصادر بمائة وستين « أورثهم أهل المنصورة موارث العدم » على حد تعبير نقولا الترك . وكان عقاب أهل المنصورة على ذلك ، أن أمر نابليون بقتل عشرة من أعيانها . ولكن الجنرال دوجا ، الذي اختير للانتقام منها ، وجد زعماء الثورة قد غادروا المدينة . ورأى ألا يقتل غير مذنب محقق ذنبه . فأعدم اثنين من أهل المدينة . وأمر رجاله فطافوا برأسيهما في شوارعها . ثم أمر جنوده بتعقب زعيمين كان لهما أثر بارز في هذه الثورة . هما علي العديسي من منية محلة دمنة ، وآخر اسمه مصطفى ، من بلدة القباب الكبرى . ولكنه لم يظفر بهما . ويقول نقولا : إن الحملة التي قام بها دوجا للانتقام من أهل المنصورة ، كانت ثلاثة آلاف جندي ، كما أمر نابليون بفرض ثلاثة آلاف ريال على أعيان المنصورة ، وألفي ريال على السيد علي الشناوي خاصة — وكان أكبر أعيانها — وألفي ريال أخرى على أسوأ القرى سلوكا مع الفرنسيين في هذه المنطقة . وأمر بأخذ رهائن من أهل هذه القرى ، حتى يسلم أهلها المعتدين والمحرضين . وأن تحرق القرى التي كان أهلها أكثر عدوانا على الفرنسيين .

وفرض على أهل المحلة الكبرى أربعة آلاف ريال . وأمر بأن ترفع الراية الفرنسية على مآذن المساجد في قرى الدقهلية وبلادها كلها ، وأن تحرق البلاد التي يأبى أهلها ذلك .

وقد كتب الجنرال لوجييه في مذكراته وصفا لما سلبه الفرنسيون من أهل هذه البلاد ، نستطيع أن ندرك منه مدى ما حل بهم ، قال : « في اليوم الذي عاد

فيه الجنود إلى دمياط ، بعد هذا النهب ، كانت المدينة أشبه بسوق ، أو مولد ، باع فيه الجنود الفرنسيون إلى الأروام ، مانالته أيديهم من النهب والسلب ، فكانوا يعرضون المواشى ، والطيور ، والثيران والبقر ، والخيول ، والحمير ، والغنم ، والدجاج ، والأوز . وكثيرا من قطع الذهب والفضة التى كانت حليا للنساء[1] » .

ومع كل هذه القسوة الباغية ، لم يستطع الفرنسيون أن يحكموا هذه البلاد ، ولا أن يسيطروا عليها بأقل سلطان ، وفى ذلك يقول لوجييه : « إن السلطة الفرنسية ما زالت منكورة فى معظم جهات الدلتا التابعة لهذه المديرية . وفى دمياط نفسها التى تعتبر من أعظم بلاد القطر المصرى ، ولا يأمن الجندى الفرنسى على حياته إذا هو ذهب إلى حى الوطنيين . والحامية الفرنسية مقصاة فى حى الأروام[2] » .

ويبدو أن مقاومة أهل دمياط لم تفتر طوال مدة الحملة الفرنسية كلها . فقد أصدر الجنرال بليار ، الذى كان حاكما عليها فى أواخر أيام الحملة ، فى قيادة الجنرال كليبر ، أصدر بليار أمرا بفرض مائتى ألف فرنك غرامة على أهل دمياط .

ومن البلاد التى اشتركت فى شرف المقاومة للفرنسيين وتعرضت لعقوباتهم الصارمة من هذا الإقليم ، « دنديط » و « ميت الفرماوى » و « الهوار » . وقرى « محلة دمنة » و « القباب الكبرى » و « دموه السباخ » . على البحر الصغير ، بين المنصورة وبحيرة المنزلة . و « ميت سلسيل » وقد احرقت بعد أن هجرها أهلها .

وقد حاربت قرية الجمالية ، دقهلية ، الفرنسيين فى معركة كبيرة . أشار إليها نابليون فى رسائله إلى حكومته .

كانت سفن الجنرال داماس تسير على الشاطىء الغربى من بحر أشمون . وعندما واجهت هذه القرية ، الجمالية ، تلقاها أهلها بعاصفة من النار ، والحجارة ، تنهال على

(١) ص ٣٥٢ جزء ١ من تاريخ الحركة القومية .
(٢) ص ٣٥٣ جزء ١ من تاريخ الحركة القومية .

السفن من فوق أسوار القرية ، ومن أعلى بيوتها . وفى نفس الوقت كانت جموع من الفلاحين والعرب تحمل البنادق ، والسيوف ، و « الشماريخ » تسرع لمهاجمة السفن ، وبعضهم ركب الخيل . فنزل جنود الجنرال داماس لمحاربة أهل هذه القرية والمهاجمين . حتى تغلبوا عليهم . ولكن المجاهدين استطاعوا أن يتجمعوا مرة أخرى داخل القرية . فعبر الفرنسيون النيل إليها ، واقتحموها بعد مقاومة باسلة من أهلها . وكان الفلاحون يتترسون فى كل بيت ، ويحاربون القوة الفرنسية فى كل شبر من أرضها ، ويدافعون عن كل جدار وحائط . حتى تلاشت قواهم . وألقى من نجا منهم بنفسه فى الماء ، وهو يحمل سلاحه . ليحارب فى مكان آخر . وقدر الفرنسيون من استشهد فى موقعة الجمالية هذه من المصريين بخمسمائة . وقتل من الفرنسيين خمسة ، وجرح خمسة عشر . ودامت المعركة فى عنفها أربع ساعات . وقد وصف الضابط جازلاس ، أحد ضباط الجنرال داماس شجاعة أهل هذه القرية وصفا مشرفا ، فقال فى تقريره عنها . «رأينا أكثرهم شجاعة يغامرون بأنفسهم ويهجمون ، حتى يصيروا فى وسط جنودنا . وقد رأيت بنفسى جماعة من الفلاحين ليس بيدهم سلاح سوى العصى ، يهاجموننا بحماسة . فيستشهدون . وقد تركنا الميدان مغطى بجثث القتلى » .

وقد أحرق الفرنسيون هذه القرية الباسلة بعد هزيمتها .

وكان الفلاحون ، من أهل الدقهلية ، يرفضون رفضا باتا ، أن يدفعوا للفرنسيين ماعليهم من الضرائب . أو يدلوهم على بيوت المماليك وثرواتهم . أو أماكن المحرضين ، والهاربين من المجاهدين . وكانوا يلاقون رسل الفرنسيين إذا قدموا لأحد هذه الأغراض ، بالرصاص .

وفى دمياط ، وبحيرة المنزلة ، جرت كذلك حروب ومواقع عنيفة بين المجاهدين والفرنسيين . كان بطلها رجلا من أبرز عناصر المقاومة للفرنسيين ، وهو الشيخ حسن طوبار . وسنفرد لسيرته فصلا مستقلا فى تراجم زعماء المقاومة .

فى دمياط ، اتفق الشيخ حسن طوبار[1] مع أهلها على أن يمد أسطولا من السفن لمهاجمة الحامية الفرنسية فيها . على أن يقوم أهلها فى الوقت نفسه بالهجوم عليها . والتقى هؤلاء وهؤلاء فى قرية « غيط النصارى » ثم ساروا إلى دمياط فقتلوا الحرس الفرنسى فى مداخلها . وقامت معركة بين الفريقين دامت ليلة كاملة . تغلب بعدها الفرنسيون ، بعد أن حاربهم الثائرون حربا قاسية . ثم تجمع بعضهم مرة أخرى فى قرية « الشعرا » فسلط عليهم الفرنسيون المدافع . ثم كرّوا على القرية فنهبوها وأحرقوها . وقتل فى هذه المعركة من الفرنسيين اثناعشر ، وجرح ثلاثون .

وعندما كانت الثورة قائمة فى دمياط ، قام أهل « عزبة البرج » القريبة منها ، على الحامية الفرنسية فيها ، فقتلوا من أدركوه من رجالها .

وقد ذكرت المصادر الفرنسية أن عدد الثائرين فى هذه المنطقة كان عشرة آلاف ، وأن قرية « الشعرا » كانت مجتمعهم ، ومقر قيادتهم . كما ذكرت أن من قتل فى هذه القرية ، بالحرب أو الحريق ، أو الغرق فى النيل أو فى بحيرة المنزلة ، كان ألفا وخمسمائة . وجرت معركة أخرى بزعامة الشيخ حسن طوبار أيضاً ، فى بلدة « المنية » غربى دمياط . قاتل فيها المجاهدون قتالا شديدا ، حتى أرسل الجنرال دوجا يدعو زعيمها إلى الصلح . ولكنه أبى .

ولما تغلب الفرنسيون على مقاومة أهل دمياط ، وبحيرة المنزلة . سارت فرقة من جنودهم قاصدة السويس . فترصد لها المجاهدون فى الطريق وأبادوها .

وقام أهل السويس ، ومعهم حاكمها الوطنى ، فحاربوا الحامية الفرنسية فيها ، ولكنها تغلبت عليهم . ولم يستسلم المجاهدون ، بل حاربوا حتى قتلوا جميعا . ثم نهب الفرنسيون المدينة . وغصبوا ما فيها من البن والبهار الذى كان فى مخازن التجار . وكذلك أحرق أهل العريش القلعة على من فيها من الفرنسيين ، فقتل منهم عدد كبير .

---

(١) تجد لهذا المجاهد ترجمة وافية فى آخر هذا الفصل .

في المنوفية والغربية :

وكانت مقاومة أهل مديريتى المنوفية والغربية ، باسلة مشرفة أيضاً . فقد سافر الجنرال فوجير ، الذى عين حاكما على الغربية فى أغسطس سنة ١٧٩٨ . وكان نابليون قد أمره بأن يأخذ أهلها بغاية القسوة والشدة . فلما كان سائرا إليها ، خرج عليه أهل قريتين من قرى منوف ، هما « غمرين » و « تتا » يحملون سلاحهم . ولم يمكنوا القائد الفاتح من دخولها . فاستعان بزميله الجنرال زايونشك ، حاكم المنوفية ، فأمده بقوة كبيرة . ومع ذلك لم تستطع القوتان دخول قرية غمرين إلا بعد أن رويت أرضها بالدماء الغزيرة ، وبعد أن قتل الفرنسيون من أهل هذه القرية الصغيرة ، خمسمائة رجل وامرأة .

وشهد الكابتن فيروس — وقد اشترك فى هذه الموقعة — بأن نساء القرية ، كن يهاجمن الجنود الفرنسيين بكل بسالة وشجاعة .

كما أشار نابليون ، فى تقريره إلى حكومة الجمهورية ، إلى موقعة غمرين هذه ، وما لقيته جنوده من مقاومة أهلها . وقد أحرق الفرنسيون القريتين بعد اقتحامهما .

وفى ختام أيام الحملة قبل رحيل الفرنسيين ، قصد جنودهم إلى الريف ليأخذوا من أهله نفقات رحيلهم . فلما وصلوا المحلة الكبرى خرج أهلها عليهم ، ومعهم القاضى ، وحاربوهم . ويقول الجبرتى : إنه قتل من أهل المحلة فى هذه المعركة ، أكثر من ستمائة منهم القاضى .

وفرض الفرنسيون على أهلها أربعة آلاف ريال .

وفى طنطا قامت ثورة عاتية ، عندما طلب القائد الفرنسى ، لوفيفر ، أربعة من أهلها رهائن . فأرسل إليه حاكمها ، سليم جوربجى ، أربعة من شيوخ مسجد السيد البدوى . وقد أوشك الثائرون أن يفتكوا بجند الفرنسيين وأن يمنعوا

سفنهم التى تسير بهؤلاء الرهائن فى النيل إلى القاهرة . ولـكن القائد الفرنسى تغلب عليهم بعد أن قتل منهم ، وجرح ، ثلثمائة .

وطلب هذا القائد إلى نابليون أن ينتقم له من أهل طنطا . ولـكنه رأى من الحـكمة ألا يفعل ذلك ، لحرمة السيد البدوى فى نفوس الناس .

وعندما قامت القاهرة ، فى ثورتها الثانية على الفرنسيين فى أغسطس سنة ١٨٠٠ ، ثار أهل طنطا مرة أخرى ، فقاتلهم الفرنسيون . ثم فرضوا خمسين ألف ريال غرامة على علمائها خاصة ، وخمسين ألفا أخرى على أهلها عامة . وأخذ الجنرال كليبر اثنين من علمائها إلى القاهرة فسجنهم فى القلعة .

وقد أصاب آل الخادم ، وهم أكبر الأسر فى طنطا فى ذلك الوقت ، شر كبير من الفرنسيين . فقد اقتحموا بيوتهم ، وأخذوهم منها وقيدوا أرجلهم وأبقوهم فى معسكرهم أياما ، وكانوا يأخذون منهم فى كل يوم من هذه الأيام ستمائة ريال ، غير مااستولوا عليه من أغنامهم ومحاصيلهم . وفرضوا عليهم فوق ذلك خمسة عشر ألف ريال . وأخذوهم إلى الجيزة سجناء ، ثم أطلقوا سراحهم . واحتجزوا كبيرهم مصطفى الخادم ، لأنه كان أكثرهم مالا ، وأكبرهم مكانة . وطالبوه بمال جسيم . وتفننوا فى أنواع العقاب ، وألوان التعذيب يوقعونها به . فتارة يضربونه على كفوف يديه ورجليه ، وتارة يلقونه فى الشمس موثق الجسد ، والحر شديد . حتى تورم جسده ، وكان رجلا جسيما ضخما . ويقول الجبرتى : إنهم أخذوا « عساكر المقام » التى كانت منصوبة فوق ضريح السيد البدوى . ثم يقول إنها كانت من الذهب الخالص . وزنتها خمسة آلاف مثقال .

وكان كبير أسرة شعير ، فى كفر عشما ، ممن حاربوا الفرنسيين ، وألحقوا بهم شراً كثيرا . وأرادوا أن يتخلصوا منه بالغدر ، فهاجموه ليلا فى قصره الحصين ، وتغلبوا بالمفاجأة على رجاله ، وألقى هو بنفسه فى النيل ، وظل يسبح وهم يطلقون عليه النار ، حتى أصابته رصاصة قتلته . ووجد الفرنسيون فى قصره المظيم ثلاثة

مدافع ، وعددا كبيرا من البنادق ، وشارات وملابس لضباط فرنسيين قتلهم رجاله، وكميات وافرة من الذخائر ، وثلاثين فرسا أصيلة .

وبعد موت ابن شمير ، نهب الفرنسيون بيوته ومزارعه الواسعة ، وأسروا إخوته وأولاده ، ثم قتلوهم ، ولم يتركوا منهم سوى طفل صغير ، جعلوه شيخا على أسرتهم .

وقد ذكر الجنرال لانوس ، الذى هاجم ابن شمير ، فى كتابه إلى نابليون ، أنه لولا مفاجأته له لما تغلب عليه . فقد كان مشهورا بالبطش والشدة . وكان يسير فى حراسة ألف ومائتى رجل مسلح . وأرسل له نابليون تهانئه الحارة على ظفره به .

وعند قريتى « طفوب » و « الزعيرة » من قرى المنوفية ، شاهد الفلاحون سفينة حربية فرنسية فهاجموها ، وحاربوا من فيها من الجند حربا عنيفة . فقتلوا منهم عشرة وجرح أربعون ، منهم الجنرال دومارتان ، قائد مدفعية نابليون ، ومات بعد أسابيع . وأرغم نابليون بسبب الاعتداء على السفن ، على أن ينشىء ثلاثة أساطيل مسلحة لحراستها . وكان أولها يحرس السفن التى تسير على فرع رشيد . وثانيها يحرس التى تسير على فرع دمياط . والثالث لحراسة السفن التى تهبط إلى الوجه القبلى أو تجىء منه إلى القاهرة .

ومن الذين قتلهم رجال المقاومة ، من رجال هذه السفن ، الـكابتن جوليان ، ياور نابليون ، فقد جنحت سفينته بقرب رشيد . وكان مسافرا بها يحمل رسالة من نابليون إلى كليبر وبرويس ، فهاجمها أهل قرية « علقام » فى كوم حماده وقتلوا جميع من فيها . وكان جزاء هذه القرية الباسلة أن حرقت حتى لم يبق فيها بيت واحد لم يحرق أو يهدم .

وكذلك جرح من رجال نابليون أيضاً ، مسيوسوس ، مدير مهمات الجيش، ثم مات من جرحه .

وكان للعرب من قبائل أولاد على والهنادى جهاد مذكور فى المقاومة . وقاومت

بلدة شباس عمير الفرنسيين الذين أرادوا دخولها . فلما فشلوا فى دخولها والتغلب على أهلها أحرقوها .

فى البحيرة :

وفى مديرية البحيرة كانت أيضاً مقاومة منظمة أقرب ما تكون إلى المواقع الحربية الكبيرة . وكان يقودهذه الحركة رجل مغربى تسمى باسم محمد المهدى[1]، أو الأمير محمد . قاد فى أول أمره قافلة من الحجاج المغاربة ، كان عددها أربعمائة . ثم نزل بها إلى دمنهور فدهم الحامية الفرنسية فيها وهزمها ، وقتل جميع من كان فيها ، لم يبق منهم أحدا . واستولى على سلاحهم ومدافعهم .

وارتفع ذكره بعد هذا النصر ، حتى تطوع للحرب معه عدد عظيم من الناس مصريين وغير مصريين . وبلغ جيشه أربعة آلاف مقاتل . وسبعة آلاف فى رواية نقولا الترك . ولما هزمت الحامية الفرنسية فى دمنهور وأبيدت ، قدم قائد الفرقة الفرنسية فى الرحمانية ، ومعه عدد كبير من الجند لحرب محمد المهدى ، فهزموا أمامه ، كما هزمت الفرقة الفرنسية فى دمنهور . ولكن النصر فى هذه المعركة كان غالى الثمن . حيث قتل كثير من المجاهدين المصريين . وكان أكثرهم من الفلاحين الذين تطوعوا للجهاد ، ودخلوا المعركة من غير سلاح .

ولما بلغ أمر المهدى هذا المبلغ من الخطر ، تحرك لحربه حاكما الغربية والمنوفية ، وكلاهما يقود جيشا كبيرا . وسار الجيشان إلى حيث التقيا مع المهدى فى « سنهور البحيرة » وكان جيش المهدى ، كما قدره ريبو ، خمسة عشر ألفا من المشاة ، وأربعة الآف فارس ، وجرت بين الفريقين معركة عنيفة طاحنة ، دامت سبع ساعات ، يوم ٩ مايو سنة ١٧٩٩ وقد أبلى فيها المجاهدون أعظم البلاء ، وأبدوا ضروبا عظيمة من البسالة . فقتلوا من الفرنسيين ستين قتيلا . وقتل منهم ألفان .

ولم يتغلب الفرنسيون أول الأمر على رجال الثورة . بل ارتدوا إلى الرحمانية .

---

(١) تجد ترجمة له فى آخر هذا الفصل .

ثم عادوا بمدد جديد من السلاح والجند ، فتغلبوا على جيش المهدى . ودخلوا « دمنهور » مرة أخرى .

وكان انتقام الفرنسيين من أهل دمنهور شديدا بالغ الشدة . حيث قتلوا ألفا وخمسمائة من الرجال ، والنساء ، والأطفال ، والعجزة . وأحرقوا المدينة كلها ، وتركوها أطلالا ، وحجارة سوداء . وأباحوها لجنودهم فنهبوها . ولم يستطع الفرنسيون اللحاق بالمهدى ، ففر إلى الصحراء . وبقى رجال الثورة يواصلون كفاحهم ، حيث يستطيعون .

وتقول مصادر فرنسية مشكوك فى صدق روايتها : إن الجنرال لانوس ، الذى حارب المهدى ، ظل يطارده ، ويترصده على حدود الصحراء حتى قتله . ويذكر الجبرتى فى حديثه عن ثورة القاهرة الثانية بعد ذلك ، أنه كان من زعمائها رجل مغربى ، يقال إنه المهدى هذا . وقد استطاع الثائرون ، قبل هزيمتهم ، أن يطهروا المنطقة الممتدة من الرحمانية إلى رشيد ، من الفرنسيين .

وقد جاوز الفرنسيون ، فى انتقامهم من أهل مدينة دمنهور — بسبب ثورتهم — كل منطق ، وحكمة ، وقانون . يصف أحد رجالهم — لا كروا — ذلك بقوله :

« ولما كان أهالى دمنهور قد اشتركوا فى الثورة ، وضربوا مثلا سيئا لأهالى البحيرة . لذلك قضى عليهم ، رجالا ونساء ، وأطفالا بالفناء ، قتلا بحد السيف . وأشعلت النار فى دمنهور ، حتى احترقت عن آخرها . ولم يبق من دورها ومساكنها غير أطلال قائمة ، وأحجار قاتمة ، وجثث هامدة[1] . »

وقبل أن ننتهى من تفصيل المقاومة فى الوجه البحرى ، نذكر أن معركة أبى قير البحرية التى حطم فيها نلسون أسطول نابليون ، والتى تعتبر من المعارك التاريخية . ذات الأثر البعيد ، ليس فى نتائج حملة نابليون على مصر وحدها ، بل

(١) ص ٣٠٥ من كتاب فتح مصر الحديث للمرحوم أحمد حافظ عوض بك .

فى تاريخ العالم كله . هـذه المركة ذات الأثر البعيد ، لم تخل من يد مصرية ، ليست ضعيفة الأثر .

فقد شهد الفرنسيون أن سفينة مصرية كانت تتقدم أسطول الأميرال نلسون عند دخوله خليج أبى قير لخوض المركة . وأن هذه السفينة كانت تحمل بحارة مصريين تقدموا لإرشاد الأسطول الإنجليزى فى مسالك الخليج .

وجاء فى تقرير الضابط شاربيه ، الذى كان على ظهر بارجة فرنسية : أنهم فى مساء اليوم الذى ظهرت فيه بوارج نلسون فى أبى قير ، شاهدوا « فى عرض البحر سفينة مصرية قادمة من الإسكندرية تتصل بإحدى السفن الإنجليزية ، ولم تنفصل عنها بالرغم من أن السفينة ألرت « Alerte » أطلقت عليها عدة قنابل[1] . »

وقد أقام نابليون ، بسبب المقاومة المنيفة التى لقيها ، قلاعا منيعة فى الإسكندرية ، ورشيد ، ودمياط ، والرحمانية ، وبلبيس ، والصالحية . لـكسر شوكة المجاهدين المصريين فى الوجه البحرى . وقمع كل ثورة يقومون بها ضده .

كما صادر نابليون وخلفاؤه محاصيل الفلاحين ، من الغلال ، والشعير ، والتبن ، والفول . وفرضوا على كل إقليم أكثر من ألف فرس ، وألف جمل[2] فوق ما فرضوه من الأموال الباهظة على أهلها . وكانوا يضربون الفلاحين ، وأعيان البلاد بالمقارع على مفاصلهم ، وركبهم ، ويربطونهم بالحبال ثم يجرّونهم بها .

ولـكن ذلك كله ، لم يجده ، ولم يجدهم نفعا . .

---

(١) ص ٢٣٠ من كتاب تاريخ الحركة القومية ، الجزء الأول .

(٢) ص ١٤٧ — ١٤٨ جزء ٢ تقويم النيل للمرحوم أمين باشا سامى .

فى الوجه القبلى

كانت المقاومة فى الوجه القبلى ، تمتاز بميزة التنظيم ، وكثرة التجمعات ، بل الجيوش التى تشترك فيها . وقد وصفها الفرنسيون بأنها كانت مواقع حربية كاملة ، حقيقية .

ومن الأسباب التى جعلت مقاومة الصعيد تمتاز بهذه الميزات ، أن مراد بك ، بعد فراره وهزيمته فى موقعة إمبابة ، التجأ إلى الصعيد ، واتخذ من بلاده ، ومن رجاله سبيلا للانقضاض على الفرنسيين . وكان فى بعض الأحيان ، يشترك مع المجاهدين من المصريين فى المقاومة ، أو يأمر جنوده بذلك . فكان وجود مراد وجنده ، أو من بقى معه منهم ، ومن كان يجمعهم ، كان وجوده مشتركا أو مشجعا ، من الأسباب التى جعلت المقاومة فى الوجه القبلى كما وصفنا .

ولكن خصائص أهل الصعيد من الشجاعة والصبر ، مما شهد به الفرنسيون أنفسهم ، كانت من أهم العوامل أيضا فى هذه المقاومة . ولعل أكبر دليل على ذلك ، أن مراد بك نفسه صالح الفرنسيين ، وتولى حكم الصعيد تحت راية الجمهورية الفرنسية . وكان فى حكمه ذاك مثلا للخادم المطيع الأمين . ومع ذلك بقيت مقاومة أهل الصعيد للفرنسيين قوية لم تضعف

* * *

كان أول اشتباك بين المصريين والفرنسيين ، فى الصعيد ، عند بلدة «القنايات» ثم تبعته موقعة كبيرة فى « سدمنت الجبل » من مديرية الفيوم ، كادت قوات الفرنسيين أن تهزم فيها ، لولا مدفعيتهم التى لم يكن لدى المصريين شىء منها .

ومع هذه الميزة الواضحة للفرنسيين ، فقد قتل منهم فى هذه الموقعة — بتقدير المصادر الفرنسية نفسها — ثلاثمائة وأربعون ، وجرح مائة وخمسون . وقتل أربعمائة من المصريين . وكان عدد الفرسان من المصريين ، بما فيهم جنود مراد بك ، يتراوح بين أربعة آلاف وخمسة آلاف .

وكانت هذه المعركة من أهم المعارك التى خاضتها الجيوش الفرنسية فى مصر . حتى ذكرت بعض مصادرهم : أنها تلى فى الأهمية موقعتى إمبابة ، وشبراخيت . وقد جرت هذه الموقعة يوم ٧ أكتوبر سنة ١٧٩٨ .

وبعد أن احتل الفرنسيون مدينة الفيوم ، هاجمهم فيها ثلاثة آلاف من المجاهدين ، منهم ألفان من الفلاحين ، وألف من العرب والمماليك . واقتحم الثائرون أسوار المدينة ، وتغلبوا على حراسها . ثم اندفعوا كالسيل إلى مقر القيادة الفرنسية ، فظلوا يهاجمونه نهارا كاملا . ولكنهم لم يستطيعوا التغلب عليه ، لمناعته ، ووفرة الذخيرة عند جنوده . وقتل من المجاهدين فى هذا الهجوم مائتان ، وجرح كثيرون .

وكذلك هاجم الثائرون الحامية الفرنسية فى المنيا ، ثلاثة أيام متوالية . وغلبوا الحراس على أبوابها واقتحموها . ولكن الفرنسيين فى اليوم الثالث ، تغلبوا عليهم بعد أن قتلوا منهم عددا كبيرا .

وقد ذكرت مصادر فرنسية أنه لولا تراخى بعض أهالى مدينة المنيا فى نصرة إخوانهم . لما تغلبوا عليهم .

وقد أسقط الفرنسيون ثلث الضرائب التى فرضوها على أهالى المنيا . مكافأة لهم على سكينتهم فى أيام المعركة الثلاثة . وزادوا ما أسقطوه على أهالى القرى التى هاجمتهم .

ومن القرى التى قاومت الفرنسيين « مطرطاش » و «سيلة» و « سرسنا » فى مركز سنورس . وقد حرقت القرية الأخيرة لما لقى الفرنسيون من أهلها . وحرقت أيضا بلدة « الغنايم » لإسرافها فى المقاومة . وكذلك « أبو مناع » وما جاورها من القرى و « أبو جرج » . وهذه الأخيرة قتل وحرق من أهلها ألف مجاهد .

وعندما قهر الفرنسيون أهل « ملوى » واستولوا عليها ، وجدوا فيها ثمانية مدافع . كان المجاهدون يطلقون قنابلها على السفن الفرنسية التى تعبر النيل .

وقامت ، فى سوهاج ، ثورة قوامها أربعة آلاف من الفلاحين ، وسبعمائة من الفرسان . أبدى فيها المصريون كل شجاعة . ولكن مدافع الفرنسيين ، وأسلحتهم الحديثة الوافرة ، كفلت لهم الغلبة على رجال الثورة . بعد أن فتكوا بهم — ولم يكن سلاحهم سوى الحراب والبنادق القديمة — فقتل منهم ثمانمائة .

وفى « الصوامعة » تجمع ثلاثة آلاف من الفلاحين وأطلقوا نيرانهم على الفرنسيين ولـكنهم تغلبوا عليهم . فقتل وغرق منهم ألف مجاهد .

ولـكن هذه الهزائم ، أو المذابح ، لم تضعف من عزيمة المجاهدين ، بل تجمعوا مرة أخرى من المنيا ، وبنى سويف ، والفيوم وأهل القرى ، والتقى ألفان منهم بالفرنسيين عند طهطا ، فهاجموهم . ولـكنهم تغلبوا عليهم أيضا ، بوفرة سلاحهم ، وقتلوا من الثائرين تسعمائة وخمسين .

وقامت معركة بين المجاهدين والفرنسيين ، فى « الردسية » بالقرب من إدفو ، التحم فيها الفريقان بالسلاح الأبيض . وقتل فيهـا من الفرنسيين سبعة وثلاثون ، منهم ضابط ، وجرح أربعة وأربعون .

وفى قنا هاجم العرب والفلاحون الفرنسيين ، ولـكنهم هزموا بعد أن جرحوا القائد الفرنسى جرحا بليغا .

معركة نجع البارود :

وجرت عند قرية « نجع البارود » بالقرب من قوص ، إحدى المعارك الـكبرى فى حركة المقاومة بالصعيد . فقد هاجم جيش من المجاهدين — يقـــدر بعض المؤرخين عدده بعشرة آلاف — الأسطول الفرنسى وكان عدد سفنه اثنتا عشرة سفينة ، منها سفينة القائد العام . وكانت من قبل سفينة نابليون الخاصة ، التى سماها « إيطاليا » تخليدا لذكرى انتصاراته فيها . بدأ المجاهدون هجومهم بإطلاق الرصاص على السفن ، فأطلقت هـذه مدافعها عليهم ، وقتلت كثيرين منهم . ولـكنهم لم يتقهقروا ، بل زاد تجمّعهم وكثر عددهم ، ثم نزل كثيرون منهم إلى النيل يسبحون ، ويهاجمون السفن ، حتى استطاعوا أن يستولوا عليهـا عنوة ، وقهرا . وساقوها إلى شاطىء النيل ، فأفرغوا ما تحمل من ذخيرة ومؤن ، ثم ركبوها وساروا بها ليستولوا على « إيطاليا » سفينة القائد ، التى ضاعف جنودها إطلاق مدافعهم على الثائرين . ولـكنهم مع ذلك استطاعوا أن يلحقوها ، وأن

يصعدوا إلى ظهرها . فأمر قائدها عند ذلك بنسف مستودع البارود فيهـا ، ثم ألقى بنفسه فى النيل ، وكذلك فعل من بقى من رجاله . وانفجرت السفينة ، وقتل بسبب ذلك كثيرون من المصريين . ولـكنهم لم يتركوا قائدها ومن سبح معه ، فطاردوهم فى النيل حتى قتلوهم جميعا . وجرح قائد السفينة ، القومندان موراندى ، جرحا قاتلا ، ثم مات فى النيل . ولم ينج من رجال هـذا الأسطول أحد . وكانوا خمسمائة من الضباط والجنود ، والبحارة . وقد اعتبر الفرنسيون هذه الخسارة أكبر ما لحقهم فى مصر . وبلغت أنباء هذه المعركة نابليون ، وهو فى حملته على سوريا ، فحزن أشد الحزن ، على خسارة رجاله فيهـا ، وعلى فقـد سفينته الخاصة « إيطاليا » وكانت أثيرة عنده .

وفى « برديس » هاجم الفلاحون قوة فرنسية كبيرة ، وأصلوها نارا حامية ، لم تجد معها سبيلا إلى النجاة إلا بالفرار إلى جرجا . وتبعها المجاهدون ، ومعهم أهل البلاد والقرى التى مروا بها ، حتى بلغ عـــددهم ثلاثة آلاف . وهاجموا الفرنسيين فى جرجا ، واستطاع بعض المجاهدين دخولها ، ولـكنهم ردوا بعد أن قتلوا وجرحوا بعض الفرنسيين . وقتل منهم مائة وخمسون .

وتجمع فى « قفط » ثلاثة آلاف من الفلاحين والعـرب ، وحاربوا قوة فرنسية فهزموها . والتقى الجنرال بليار بهم بعد ذلك وهم يحملون رؤوس القتلى الفرنسيين على أسنة حرابهم ، وبعض الفلاحين يلبس ملابس القتلى من الجنود الفرنسيين . وبأيديهم بعض الآلات الموسيقية التى غنموها منهم . وحارب الجنرال بليار المجاهدين وحاربوه حربا عنيفة ، انتهت بهزيمتهم ، وانسحابهم إلى «أبنود» .

وفى هذه المدينة وقعت إحدى المعارك الـكبرى ، بين المجاهدين والفرنسيين . استخدم فيها المجاهدون ما غنموه من مدافع الأسطول الفرنسى ، الذى استولوا عليه فى معركة نجع البارود . وقد دامت هذه المعركة ثلاثة أيام متوالية ، مستعرة الأوار . وأظهر فيها المجاهدون المصريون أعظم ضروب البسالة والشجاعة . ولما تغلب عليهم الفرنسيون ظلوا يحاربونهم فى شوارع المدينة ، ويدافعونهم عن كل

بيت فيها ، وعن كل شبر من أرضها . فلم يجد الفرنسيون بدا من إشمال النارفيها فأشملوها ، ولـكن المجاهدين تحصنوا فى مسجدها المنعزل ، وفى قصر يجاوره ، وواصلوا إطلاق النار منهما ، فأحرق الفرنسيون القصر ، والمسجد أيضا .

واستطاع الفرنسيون فى اليوم الثالث من المعركة ، أن يقتحموا القصر ، وقد أحالته النار هشيما ، فوجدوا فيه ثلاثين من المجاهدين ، وقد أثخنتهم الجراح ، ومع ذلك فهم يقاومون . وظلوا يحاربون وجراحهم تسيل بالدم ، حتى قتل الفرنسيون أكثرهم .

وفى هذه المعركة المشرفة ، قتل من المجـاهدين قريب من ستمائة ، وجرح كثيرون ، ومن الفرنسيين خمسة وثلاثون ، وجرح مائة وأربعة وثلاثون .

وفى « بئر عنبر » على الطريق بين قنا والقصير ، قامت معركة عنيفة بين ألف من المجاهدين وخمسمائة من المماليك ، وبين الفرنسيين ، قتل فيهـا من الفرنسيين أربعة وأربعون ، وجرح عشرون ، وكان من القتلى عدد من الضباط . وأوشك الجنرال دوزيه نفسه ، القائد العام فى الوجه القبلى ، أن يقتل .

مذبحة بنى عدى

وكانت « بنى عدى » من المراكز الهامة التى تحصن فيها المجاهدون . وتجمع من أهلها ومن غيرهم ، نحو أربعة آلاف مسلحين . وقدمت حملة من الفرنسيين لحربهم . وكانت بين الفريقين معركة مستعرة ، قتل فيها الـكولونيل بينون ، قائد الحملة . واشتدت الحرب ، التى استمات المجاهدون فيها ، حتى تحصنوا — وهم يقاتلون — فى شوارع المدينة ، وأزقتها ، وبيوتها . وكانوا يدافعون عنها بيتاً بيتاً . فعمد الفرنسيون — كعادتهم — إلى إشمال النار فيها . وبذلك استطاعوا كسر مقاومتها ، والتغلب على الأبطال من أهلها .

وقد وصف بعض القواد الفرنسيين هذه المعركة بأنهـا كانت مذبحة شديدة الهول . وقدرت بعض مصادرهم القتلى ، والحرقى ، من المجاهدين بألف . وقدرهم مصدر آخر بثلاثة آلاف .

وبعد أن احترقت «بنى عدى» واستسلم المجاهدون فيها . اقتحمها الفرنسيون ودخلوا بيوت المجاهدين من أهلها فنهبوا منهــا شيئاً كثيرا ، وأموالا عظيمة ، وودائع جسيمة ، كما يقول الجبرتى . وقد ذكر ديزيه القائد العام ، أن كثيرا من الجنود ، استولى الواحد منهم على عدة آلاف ريال . ووصفت بعض المصادر الفرنسية أهل بنى عدى بأنهم « أشجع سكان مصر » . وذكر دافو أن الثورة كانت تشمل « بنى عدى » من أقصاها إلى أقصاها . وأن أهلها كانوا يرسلون جمــاعات منهم إلى الشاطىء لمهاجمة السفن الفرنسية . وذكر أيضــا أن بعض الجنود نهب من بيوت أهلها خمسة عشر ألف فرنك ذهبا . وبعضهم نهب عشرين ألفاً .

وفى « جهينة » هاجم المصريون الحامية الفرنسية ، وتغلبوا عليها ، واقتحموا البلدة ، واستولوا عليها . ولم يستطع الفرنسيون أن يستردوها إلا بعد أن ضربوها بمدافعهم . وقد تحصن المجاهدون فى بيت من بيوتها ، وحاربوا فيه ساعات متوالية حتى اقتحمه عليهم الفرنسيون . وقتل فى جهينة ، من المجاهدين ، ثلاثمائة .

شجاعة صبى مصرى

ومن الحوادث التى تدل على تأصل روح المقاومة فى نفوس المصريين ، ماسجله الفرنسيون عن طفل ريفى ، من أهل قرية الفقاعى ، مركز ببا . فقد هاجم هذا الطفل ، وعمره اثنتا عشرة سنة ، جنديا فرنسيا وخطف بندقيته . ولـكن جنديا آخر أسرع فضربه بالسيف على ذراعه . ثم أخذه إلى الجنرال ديزيه . فلمــا سأله القائد عما فعل ، أبدى شجاعة فائقة ، واعترف بفعلته . وأبى أن يدل على محرضين له . ثم قال للقائد :

« إليك رأسى فأمر بقطعه » وأعجب القائد ديزيه بهذا الطفل ، وبما أبداه من شجاعة وقوة ، وثقة بنفسه . ثم أمر بضربه ثلاثين جلدة ، تحملها صابرا ، جلدا ، لا يتململ ، ولايتوجع . وبقى ديزيه يذكر هذا الطفل الشجاع من أهل الصعيد . ويقول : لو أحسنت تربية هذا الطفل لـكان منه بطل عظيم .

ومن الأمور ذات الدلالة أيضاً على صلابة أهل الصعيد . ما سجله الفرنسيون

كذلك، من أن البحارة الفقراء، الذين يسيرون بقواربهم حول جزيرة فيلة « أنس الوجود » جنوبي أسوان . لم يمكنوا الفرنسيين من الاستيلاء على هذه القوارب ، عندما احتاجوا إليها لمطاردة المجاهدين في الجنوب . وقد قاتل هؤلاء البحارة الفقراء الفرنسيين عن قواربهم قتالا شديدا . وأرى من حقهم ، ومن الوفاء لذكراهم ، أن أنقل ما شهد به الجنرال بليار من حسن بلائهم ، وشجاعتهم ، رجالا ونساء .

يقول بليار في مذكراته « حمل الأهالي أسلحتهم ، وصاحوا صيحات القتال . ورأينا النساء ينشدن أناشيد الحرب ، ويحثون التراب في وجوهنا . أما الرجال فأطلقوا الرصاص على رجالنا الذين ركبوا البحر . وكنت قد أحضرت معي مدفعاً لإخضاعهم ، فدعوتهم إلى الصلح والسلام . فكان جوابهم . إنهم لا يقبلون منا كلاما ، وإنهم لا يفرون من أمامنا كما يفر المماليك . . ! واستأنفوا إطلاق الرصاص فجرح ثلاثة من رجالنا . ولم يكن لدينا مراكب نصل بها إلى الجزيرة « أنس الوجود » .

« وفي اليوم التالي ، وصلنا إلى الجزيرة ، فأطلق علينا الفلاحون الرصاص[1] »

واستولى الفرنسيون آخر الأمر على الجزيرة . وكان أهلها الفقراء قد تركوها وتركوا فيها مواشيهم . فأخذها الفرنسيون ، وأخذوا ما كانوا يختزنونه لطعامهم من التمر .

وذكر بليار أنهم قتلوا من هؤلاء المجاهدين الفقراء ثلاثين . واستولوا على مائتي بندقية ، ومائتي طبنجة وسيف . وكثير من التمر واللحم والمؤن .

---

(١) ص ٣٩٩ تاريخ الحركة القومية ، الجزء الأول .

شهادة القواد الفرنسيين

هذه هي وقائع المقاومة المصرية الباسلة في الصعيد . وقد ذكرت المصادر الفرنسية أن من الذين أظهروا بطولة كبيرة في هذه الوقائع ، عرب الهوارة ، والجميعات ، والبقوشة . كما ذكر الجنرال دافو أن جميع أهالي البلاد في الصعيد ، كانوا يحملون السلاح . وكان أهل الصعيد يجمعون إلى هذه المقاومة الإيجابية العلنية ، مقاومة أخرى سلبية ، لا تقل في عنفها ، وعنادها عن تلك . وكان لها أثر غير قليل في إضعاف سطوة الفرنسيين ، وجعل احتلالهم للبلاد غير مفيد ، بل غير هين ولا يسير . فقد كان الفرنسيون يحسون دائماً أنهم في بلد يكرههم كل من فيه ، ويعاديهم ، ويتربص بهم ، ويعمل جاهداً بكل حيلته وقوته للقضاء عليهم ، وتنغيص حياتهم .

كتب ذلك الجنرال بليار في يومياته فقال : « إن كل القرى التي نجتازها نجدها خالية من السكان . لأنهم يخلون قراهم قبل أن نصل إليهم[1] » وفي هذا أيضاً دليل على القسوة البالغة ، التي كان يجنح إليها الفرنسيون في معاملة أهل تلك القرى ، بسبب الروح العدائية التي كانوا يلاقونهم بها .

وكتب بليار أيضاً إلى الجنرال دزيه يصف المقاطعة السلبية من أهل الصعيد : « إننا نعيش هنا عيشة ضنكا . فإن جميع القرى تقفر من السكان كلما اقتربنا منها . ولا نجد فيها شيئاً من القوت . ولا نرى فلاحاً واحداً يدلنا ، أو يأتينا بالأخبار ، أو يحمل رسائلنا[2] » .

وكتب دزيه رسالة إلى نابليون يقول فيها : « ليس لدى معلومات عن الجنرال بليار ... إن البلاد في ثورة . وليس من السهل أن نتبادل الرسائل في سرعة . وإني أطلب الذخائر من القاهرة فقد نفدت ذخائرنا .. . على أني لا أكتمك الحقيقة ، وهي أننا لن نكون سادة البلاد . لأننا إذا أخلينا بلدة لحظة واحدة من الجنود ، عادت إلى حالتها القديمة[3] » .

---

(١)، (٢) تاريخ الحركة القومية ، الجزء الأول ص ٤١٣

(٣) المرجع السابق ص ٤١٤ .

ومن رسالة كتبها الأدجودان دنزلو إلى الجنرال برتييه : « إذا لم تتفضلوا بإرسال الأدوية إلينا ، فإن مرضانا الذين يزداد عددهم كل يوم ، سيموتون من البؤس والعذاب ، ويحق لى أن أتساءل : هل نحن فى منفى سحيق بالصعيد فلا يذكرنا أحد . . ؟ إنى أذكر لكم أننا فى بلاد أصعب مراسا من مديرية المنصورة ، وإذا سرنا إلى جهة من الجهات ، ظهرت الثورات فى الأماكن التى يخليها الجنود . فعلينا أن نكون دائما على أهبة الزحف والتدمير . فمتى تنتهى هذه الحالة[1] ...؟»

وواضح من هذه الرسالة الأخيرة خاصة ، أن ما لقيه الجنود الفرنسيون وقوادهم من مقاومة أهل الصعيد ، قد أسخطهم ، وأضعف روحهم المعنوية ، وترك فى نفوسهم أثرا قويا لم يستطيعوا أن يتحملوه .

وليس أدل على ذلك السخط والغضب اللذين امتلأت بهما نفوس الفرنسيين من ذلك الأمر الذى أصدره القائد العام ديزيه ، إلى الجنرال بليار بأن يقطع رأس كل من لا يطيع أمره من العمد . وأن يقطع النخيل ، ويحرق القرى الثائرة . وأن يعاقب أهلها بأشد ما يمكن من القسوة . وأن يفرض عليها غرامة لا تقل عن عشرة آلاف ريال .

وقد جمع ديزيه نفسه مائتى رجل من كبار الأعيان ، ليكونوا رهائن عنده فى أسيوط . حتى لا يثور أهل البلاد التى أخذوا منهــا . وكان هؤلاء الرهائن ، من أهل البلاد الواقعة بين جرجا وأسيوط وحدها . وأمر قواده الآخرين باعتقال رهائن أخرى من مناطقهم .

ومع كل ذلك ، يكتب الجنرال ديزيه رسالة إلى نابليون ، يصف بها حال جنوده فيقول : « إننا نسير بلا انقطاع . وقد ساءت حالة الجنود فى ملابسهم ، وأحذيتهم . ولم نستطع للآن أن نجمع إلا النزر اليسير من أموال الميرى ، على الرغم من الجهود التى بذلناها . إن دعاة الثورة مثابرون على نشر دعايتهم . وإن علينا أن نحارب ثلاث قوات متجمعة . وهم العرب القادمون من القصير ، والمماليك ، والأهالى . فليس من السهل إخضاع هذه البلاد .. إننا هنا — كان ديزيه فى قوص عنــد

(١) ص ٤١٤ المصدر السابق .

كتابة هذه الرسالة — كأننا فى أقصى الدنيا . وإن حالتنا محزنة . والملاحة فى النيل تكتنفها الأخطار[1] » .

ويقول ريبو إنه لم يهدأ لهم — للفرنسيين — بال ولم يستقر لهم قرار . بل كانوا هدفا للمفاجآت ، والمعارك غير المنتظرة . لأنهم فقدوا الراحة والطمأنينة . واضطرتهم هذه المقاومة إلى مداومة الحملات ، والرحلات المنهكة للقوى دون أن يتمكنوا من التغلب على خصم لا ينال .

وبعد انتهاء المقاومة ، كان الفرنسيون يعيشون فى قلق دائم ، وخوف . وقد كتب ديزيه إلى نابليون فى ذلك يقول : « إن من الخطر أن نترك جهة واحدة فى مصر العليا ، دون أن نحتلها بجنودنا ، وإننا لم نستطع أن نشتت أعداءنا إلا بمتاعب وحملات شاقة ، لا هوادة فيها . والبلاد مع ذلك مستعدة للثورة » .

ولم يستطع الفرنسيون ، حتى بعد تغلبهم على المقاومة المسلحة فى الصعيد ، أن يجمعوا من أهله أموالا ، ولا غلالا ، ولا جيادا . وفى بنى سويف ، استطاع بعض الجنود الفرنسيين الاستيلاء على بعض الغلال . فخرج أهلها على السفن التى حملتها فى النيل ، واستولوا على الغلال . وأسروا الفرنسيين الذين كانوا يحرسونها .

وقد ذكر ديزيه فى رسالته السابقة ، المماليك ، فيمن ذكر من القوات التى يحاربها . وقد كان للمماليك حقا ، نصيب غير قليل فى إزعاج الفرنسيين ، وفى تعزيز حركة المقاومة فى الصعيد . ولكن النصيب الأكبر ، والعبء الثقيل فى هذه الحروب والثورات ، كان الشرف فيه للفلاحين وأبناء الشعب من سكان هذه البلاد ، كما أوضحنا فى تفصيل حركات المقاومة .

وقد ذكر أمين باشا سامى أن عدد الثائرين من الوطنيين ، أى غير المماليك ، الذين حاربوا الجنرال ديزيه فى الصعيد ، كان عشرين ألفا[2] » .

وذكر نابليون أن جيش مراد بك الذى حارب جنوده فى « سمهود » كان عدده

(١) ص ٤٠٥ من تاريخ الحركة القومية . الجزء الأول .
(٢) ١٢١ تقويم النيل . الجزء الثانى .

اثنى عشر ألفا . منهم سبعة آلاف فارس من المصريين . وثلاثة آلاف من المشاة ، ولم يكن فيه من المماليك سوى ألف وخمسمائة .

وهذه الآلاف العشرة هى، طبعا ، غير عشرات الألوف التى اشتركت فى الثورة على الفرنسيين فى الصعيد . أو تصدّت لهم ، دفاعا عن بلادها ، وقراها ، وأموالها .

ونستطيع أن ندرك نظرة الشعب إلى المماليك وجهدهم فى هذه المقاومة — على الرغم من شجاعتهم — من هذه الإشارة التى أشار بها إليهم أولئك الفقراء ، من أصحاب « القوارب » الذين وقفوا أمام الفرنسيين فى جزيرة فيلة .

وقد كانت مقاومة أهل الصعيد — إلى جنب عوامل أخرى — سببا فى نقص عدد جنود الفرقة التى كان يقودها ديزيه من خمسة آلاف إلى ألفين ، فى مدى شهرين .

ويعترف الفرنسيون بأنهم ، بعد كل هذه التضحيات والجهود ، لا يستطيعون أن يحكموا البلاد ، ولا أن يأمنوا على أنفسهم من ثورتها ، ولا أن ينالوا شيئا من أموالها أو ما فرض عليها من الضرائب .

ولكن عندما تجددت بعد ذلك الثورة فى القاهرة على الفرنسيين ، فى مارس سنة ١٨٠٠ — وكان درويش باشا يقيم فى الصعيد ، حاكما من قبل العثمانيين ، بعد صلحهم مع كليبر — تقدم له من أهل الصعيد عشرة آلاف مقاتل ليزحف بهم إلى القاهرة يحاربون الفرنسيين فيها . كما قدم له أهل الصعيد شيئا عظيما من الخيول والأغنام ، والحبوب . ولكن مراد بك ، وكان قد صالح كليبر وتولى حكم الصعيد ، تحت الولاء الفرنسى ، طارد درويش باشا ، وشتت من معه من أهل الصعيد وساق ما قدموه من الخيل ، والأغنام ، والحبوب ، فقدمه هدية للفرنسيين .

وقد كان الألفى على نقيض سيده مراد ، مخاصما للفرنسيين مدة إقامتهم كلها فى مصر ، حاربهم حربا عنيفة فى موقعة إمبابة ، ثم بقى بعد الهزيمة يحاربهم ويغير على جنودهم ما استطاع ، وقد رأينا ذلك فى ترجمته فى الجزء الثانى .

الثورة الكبرى

ليس من التجاوز والمبالغة ، ولا من المجافاة للحق والواقع، أن نسمى «بالثورة الكبرى » هذه الثورة التى قامت فى القاهرة مرة أخرى ، بعد سبعة عشر شهرا من ثورتها الأولى ، وسنرى من تفصيل أحداثها ، وما بذل فيها القاهريون من جهد ، وما تحملوا فيها من بلاء ، وما أظهروا فيها من ضروب البسالة النادرة ، أنها كانت ثورة كبرى ، من غير تجاوز ، ولا مبالغة ، ولا مجافاة للحق والواقع .

بدأت الثورة فى بولاق يوم ٢٠ مارس سنة ١٨٠٠ حيث قام أهلها بأسلحتهم وعصيهم فهاجموا معسكر الفرنسيين على النيل . فقتلوا من جنودهم ، وشتتوا . واستولوا على جميع ما كان فيه من ذخيرة ومؤن . ثم ذهبوا إلى مخازن الغلال التى يختزنها الفرنسيون فاستولوا عليها . وقاموا بعد ذلك يطوفون بالقاهرة يقيمون من حولها الأسوار والحصون ما استطاعوا .

ثم امتدت نيران الثورة من بولاق ، حتى شملت كثيرا من أحياء القاهرة . فهاجم الثائرون المعسكر العام للفرنسيين بالأزبكية . وكان عدد المهاجمين ، كما تقدره المصادر الفرنسية ، عشرة آلاف . ولكن هذا المعسكر العام كان محصنا غاية التحصين . تملأه الجنـــد والذخائر ، وتحيط به المدافع الكبار . فلم يستطع المهاجمون اقتحامه .

وامتد لهيب الثورة حتى شمل القاهره كلها . وتنادى الناس جميعا بالكفاح والجهاد والحرب . فلبى نداءهم الرجال ، والنساء ، والأطفال . حتى صار عددهم خمسين ألفا . وعادوا مرة أخرى يهاجمون المعسكر العام ، ومعهم فى هذه المرة المدافع . ولما لم يجدوا لها قنابل ، استعاضوا عنها بكرات الموازين ، من الحديد والأحجار التى يزن بها التجار والبائعون بضاعتهم . وظل هجوم هؤلاء الثائرين يوما ونصف يوم متصلا قويا ، حتى قدمت نجدة أرسلها الجنرال كليبر ، فحاربت

الثائرين من خلفهم حتى رفعت حصارهم عن المعسكر العام . وكان مع الثائرين في هجومهم هذا عشرون مدفعا ، يضربون بها المعسكر ، وبيت نابليون .

وكانت القلاع التي أقامها الفرنسيون في أطراف القاهرة ، وعلى مرتفعاتها ، تصب قنابلها ونيرانها على المحاربين ، والمسالمين ، من العجزة والأطفال والمرضى ، في كل أنحاء المدينة .

وتوالت نجدات القوات الفرنسية لحاميتهم في القاهرة . ونيرانهم ، وقنابلهم تفتك بالثائرين ، وتحصدهم كالهشيم . ولكنهم لم يضعفوا ، ولم يستسلموا ، ولم يهابوا الموت . فاستطاعوا أن يقتحموا بيوت القواد الفرنسيين . وأن يستولوا عليها . وكذلك فعلوا ببيت فرقة المهندسين . وأن يقتحموا بيت محافظ القاهرة مصطفى أغا ، صنيعة الفرنسيين الذي تسلط على أهل القاهرة بالأذى والعذاب والتنكيل . اقتحم عليه الثائرون بيته ، وقتلوه . وكذلك قتلوا بعض دعاة الهزيمة ، الذين كانوا يدعونهم للمسالمة . واعتدوا على السيد خليل البكري اعتداء شديدا — وكان صديقا للفرنسيين — واشتركت نساء القاهرة في الثورة والتحريض عليها ، حتى أخذ الفرنسيون بعضهن أسيرات[1] .

ورأى الثائرون المجاهدون أن يمنعوا عن الفرنسيين ما يأتيهم من المدد فسدوا أبواب القاهرة ، وأقاموا خلفها المتاريس في باب اللوق ، والمدابغ ، والمحجر ، والشيخ ريحان ، والناصرية ، وقصر العيني ، وقناطر السباع — سوق السلاح — وباب النصر ، وباب الحديد ، والقرافة ، والبرقية — الغريب والدراسة — والرويعي ، والسويقة . وكذلك أقفلوا شوارع المدينة بالأخشاب ، وجذوع الأشجار ، وكان بعض هذه المتاريس والحواجز يرتفع إلى اثني عشر قدما . مع المناعة والصلابة . والناس من خلف الحواجز والمتاريس يقاتلون قتال الأبطال . وكان بعض الثائرين يتحصن في مسجد أبي العلاء ، وعلى مئذنته ، فظلوا يقاتلون حتى قتلوا جميعا[2] .

---

(١) ظهر الورقة ٨٤ من مخطوط مظهر التقديس .
(٢) » » » » » »

مصنع للبارود :

وأنشأ الثائرون فى يوم وليلة مصنعاً للبارود ، فى بيت قائد أغا بالخرنفش ، كما أنشأوا مصنعا آخر لإصلاح الأسلحة والمدافع ، وآخر لصنع القنابل ، وجمعوا لهذا وذلك ما وجدوه تحت أيديهم من الحديد فى المخازن والمتاجر ، والمساجد أيضا . وتقدم العمال للعمل فى هذه المصانع ، متطوعين · وتقدموا بما عندهم من الحديد والآلات · وأخذ فريق منهم بجمع مايتساقط من قنابل الفرنسيين فيصلح من أمره ثم يقذف به الثائرون عليهم من جديد .

ومن لم يستطع أن يشارك بيده فى الثورة ، قدم لها المال والقوت والأزواد والمآكل ، وكل مايعين الثائرين وينفعهم .

وظهرت بين المصريين فى هذه المحنة ، روح التكافل والتعاون عظيمة رائعة . يستوى فى ذلك العظيم والحقير ، والغنى والفقير ، والشيخ والفتى . يقول الجبرتى : « باشر السيد المحروقى — كبير تجار القاهرة — الكلف والنفقات والمآكل والشارب . وكذلك جميع أهل مصر كل إنسان سمح بنفسه ، وبجميع ماعلكه . وأعان بعضهم بعضا . وفعلوا مافى وسعهم وطاقتهم من المعونة . وأهل الأرياف القريبة تأتى بالميرة والاحتياجات من السمن ، والجبن ، واللبن ، والغلة ، والتبن ، والغنم فيبيعونه أهل مصر »

فعل ذلك أهل القاهرة وضواحيها ، وكان جند العثمانيين فى نفس اليوم الذى قامت فيه الثورة ، قد هزموا شر هزيمة ، فى موقعة عين شمس أمام الفرنسيين . فاستطاع هؤلاء أن يفرغوا لثورة القاهرة ، وقويت الروح المعنوية عند جنودهم ، وتجددت عزائمهم .

أما من بقى فى القاهرة من العثمانيين ، أو المماليك ، أو فر إليها بعد الهزيمة . فقد شارك فى ثورة القاهرة راضيا أوكارها · ولكنها كانت مشاركة أضرت بالقاهرة وثورتها أعظم الضرر كما نرى بعد .

الخرعة :

وعاد كليبر ، القائد العام ، ونائب نابليون ، إلى القاهرة . بعد سبعة أيام من الثورة . فوجدها شعلة من النار . ووجد أنه لاقبل له بهذه الثورة العاتية ، إلا أن يأخذها بالخديعة والمكر والمخاتلة . فأخذها بهؤلاء جميعا ، من حيث تروج الخديعة وينفع المكر وتستساغ المخاتله ، وكان ذلك هينا سهلا مع العثمانيين والمماليك .

استطاع كليبر أن يستخدم كبيرا منهم هو مصطفى باشا كوسا — القائد التركى الذى أسره الفرنسيون فى موقعة أبى قير — فى إحباط الثورة ، وتبريد نارها . واشترك معه فى هذه الخيانة كبير آخر منهم هو القائد ناصف باشا — الذى دخل القاهرة منهزما فى موقعة عين شمس ، يوم بدء الثورة — فعقد القائدان صلحا مع كليبر ، اشترك فيه معهما بعض المماليك ممن كان يحرض القاهريين على الثورة .

وفى هذا الوقت نفسه ، تقدم مراد بك بعرض صلح على كليبر ، فصالحه حتى يفرغ بعد ذلك للثائرين من أهل القاهرة ، الذين أبوا أن يصالحوا ، ولم يسمعوا لناصف باشا ، ولا لمصطفى باشا ، ولا لغيرهما ممن كان يدعوهم له .

عند ذلك أشار الحليف الجديد مراد بك ، على كليبر ، بحرق القاهرة حتى يتغلب على الثائرين فيها ، وأرسل إليه مراد عددا من السفن ، يحمل الحطب والمواد الحارقة ليحرق المدينة الباسلة المكافحة ، التى أبى أهلها أن يستسلموا . وفضلوا الموت على الهزيمة والعار والتخاذل . وقد كان مراد هذا يتولى يوما حكم المدينة أشبه ما يكون فيها بالملك المتوج ، وهى التى جعلت منه حاكما صاحب سلطان وحول . وكان من قبل غلاما يباع ويشترى .

ولم تقع هـذه الخيانات وحدها ضد ثورة القاهرة . بل شاء الله أن تمطر السماء مطرا غزيرا ، ساعد الفرنسيين فى هجومهم ، وعوّق الثائرين عن دفاعهم ، وجعل حركتهم وانتقالهم شاقا عسيرا ، فى شوارع القاهرة الضيقة وأزقتها وأوحالها .

وقضت القاهرة فى هـذه الحال الشديدة من الضنك ، وهى تقاوم ببسالة ، عشرة أيام . أقام فيها أهلها الحصون المنيعة ، فى بولاق ، ومصر القديمة . وحولوا جميع المخازن والوكائل التى على النيـل ، إلى قلاع ومتاريس . حتى صارت الملاحة فى النيل تحت رحمتهم . ثم ظن الفرنسيون بعد هذه الأيام العشرة أن الثائرين قد ضعفت روحهم ، وأصبحوا مستعدين للصلح بعد هـذه الشدائد . وبعد خيانة العثمانيين والمماليك لهم ، فأرسلوا عن طريق ناصف باشا ونائب الدولة عثمان بك يطلبون العلماء ليوسطوهم فى الصلح عند رجال الثورة. فذهب إلى كليـبر الشيوخ: الشرقاوى ، والمهدى ، والسرسى ، والفيومى ، وآخرون . ثم عادوا إلى رجال الثورة يحدثونهم بما طلب إليهم كليبر . ولـكنهم وجدوا عنـد رجال الثورة ما لم يخطر لهم ببال . فقد قابلوهم أسوأ مقابلة ، وأغلظوا عليهم ، وأهانوهم ، و « قاموا عليهم ، وسبوهم ، وشتموهم ، وضربوا الشرقاوى ، والسرسى ورموا عمائمهم ، وأسمعوهم قبيح الـكلام . وصاروا يقولون : هؤلاء المشايخ . ارتدّوا وعمـلوا فرنسيس . وأخذوا منهم دراهم » هكذا يصف الجبرتى غضب الثائرين على دعوة الصلح . واتهامهم العلماء بالـكفر والرشوة .

وكان الشيـخ السادات فى بيت الصـاوى ، فخاف غضب الثائرين . ولم يستطع الخروج إلا بحيلة . حيث جعل أمامه مناديا ينادى فى الناس أن يلزموا المتاريس ، ليوهمهم أنه لا يقول بالصلح كما يقول بقية الشيوخ .

وأرسل كليبر رسولا إلى أهل بولاق يطلب إليهم الصلح والتسليم ، فأبوا ، وقتلوا رسوله[1] .

رفض المجاهدون أن يسلموا للفرنسيين ، وأبوا أن يسمعوا كلمة الصلح ، وهم يعلمون ما سيلقون بعد هـــذا العناد من بلاء ومحنة ... ولـكنهم أرادوا أن يضربوا مثلا .

وبدأ كليبر يعمل حيلته ويبذل كل جهده فى تعزيز قواته فى القاهرة ، حتى

(١) ص ١٤٤ الجزء الثانى من كتاب تقويم النيل .

تضرب أهلها ضربة لا يفيقون منها أبدا . ولا يستطيعون معها أن يصبروا على الكفاح ، والثورة ، والمقاومة .

القاهرة تحترق :

وكان كليبر ، بعد تعزيز قواته بكل ما يستطيع ويملك ، قد أمن جانب مراد بك بصلحه معه ، بل ضمن معونته أيضا . وكذلك أمن جانب العثمانيين وقائديهم مصطفى باشا وناصف باشا . فبدأت القوات الفرنسية ، بعد ذلك ، يوم ١٥ من إبريل ، تدك القاهرة دكا . وأمر الجنرال كليبر قواده أن يبذلوا جهدهم كله للاستيلاء على باب النصر ، والأزهر ، وأبي الريش . وظلت الحرب مستمرة الأوار خمسة أيام ، تداول فيها الثائرون معهم النصر والهزيمة . خمسة أيام ، كانت كل لحظة من نهارها وليلها حربا وجلادا ، وهجوما ودفاعا . ولكن المجاهدين في كلا الحالين ، النصر والهزيمة ، كانوا عمالقة حرب . لم يخضعوا ولم يلينوا ولم يجبنوا . ولم يفتر كفاحهم لحظة من ليل أو نهار . كان الشعب ضعيف التسليح ولكن الناس جميعا كانوا محاربين . أو كما يقول الجبرتي « كل من كان في حارة من أطراف البلد ، انضم إلى العسكر . بحيث صار جميع أهل مصر والعساكر كلها واقفة عند الأبواب والمتاريس والأسوار » .

بولاق الباسلة :

أخذ الفرنسيون في بدء هجومهم يسقطون قنابلهم على بولاق ، مركز الثورة ومنبعها ، فهدمت بيوتها ، ومتاجرها ، وقصورها . واحترقت كلها . وقتل من أهلها ، محاربين ومسالمين ، خلق كثير . ودفن كثير منهم تحت التراب . واحترق كثيرون أيضا أحياء . وظلت الحرائق مشتعلة في بولاق أكثر من ثمانية أيام .

وعجز الأبطال المجاهدون عن مواصلة القتال ، وقد أصبحت بولاق كلها حريقا واحدا . فرضوا بالصلح ، وصالحوا الفرنسيين . وجعلوا الخليج ، في وسط القاهرة ، فاصلا بينهم وبين الفرنسيين . حتى يخرج من بقي من جنود العثمانيين والمماليك .

وبعد أن قبل الفرنسيون صلح رجال الثورة . فرضوا عليهم — على أهل بولاق وحدها — مائتي ألف ريال ، وعلى تجارها ثلاثمائة ألف ، تجبى عروضا من السكر ، والبن ، والزيت ، والقطران ، والنيل ، والحديد ، والرصاص ، وغير ذلك . وأمروهم بأن يسلموا ٤٠٠ بندقية ومائتي طبنجة ، وقتلوا الحاج مصطفى البشتيلي زعيم الثورة[1] . كما غصبوا كثيرات من النساء ، والفتيات . والأطفال .

وقد وصف الجبرتي ، وهو معاصر لهذه الثورة ، ماحل ببولاق ، وأهلها ، وصفا مؤثرا يحزن الفؤاد . ووصف جهاد أهلها ، وصبرهم ، وحسن بلائهم ، وصفا مشرفا . تشمخ له أنوف أحفادهم ، وتعلوا به رؤوسهم وتسعد قلوبهم .

ونحن نترك ماقال الجبرتي ، إلى ما سجله مؤرخ فرنسي شاهد تلك الأحداث وهو مسيو جالان . والفضل ما شهدت به الأعداء .

« في يوم ١٤ إبريل سنة ١٨٠٠ أنذرت بولاق بالتسليم ، فرفض أهلها كل إنذار ، وأجابوا بإباء وكبرياء ، أنهم يتبعون مصير القاهرة . وأنهم إذا هوجموا فهم مدافعون عن أنفسهم حتى الموت ، فأخذ الجنرال فريان يحاصر المدينة وبدأ يصب عليها من المدافع ضربا شديدا ، أملاً منه في إجبار الأهالي على التسليم لكنهم أجابوا بضرب النار ... واستبسل الأهلون في الدفاع ، ولجئوا إلى البيوت فاتخذوها حصونا يمتنعون بها . فاضطرت الجنود إلى الاستيلاء على كل بيت فيها والتغلب عليها بقوة الحديد والنار . وبلغ القوم في شدة الدفاع حدا لامزيد بعده . وفي هذا البلاء ، عرض العفو على الثوار ، فأبوه . واستمر القتال ، فحملنا المدينة ضراما ، وأسلمناها للنهب ، وصار أهلها عرضة لبطش الجنود وتنكيلهم . فجرت الدماء أنهارا في الشوارع ، واشتملت النار أحياء بولاق من أقصاها لأقصاها . وعادت تلك المدينة العامرة الزاهرة ، هدفا للخراب . وأكلتها أهوال الحرب وفظائعها[2] .

بعد تسليم بولاق ، بدأ الفرنسيون هجوما آخر على القاهرة من جميع

(١) تجد له ترجمة في آخر هذا الفصل .
(٢) ص ١٧٧ — ١٧٨ تاريخ الحركة القومية ، الجزء الثاني .

أطرافها ، فنسفوا بيت أحمد أغا شويكار ، المقر العام للثورة ، ثم بدأت مدافعهم تلقى قنابلها على المدينة من أوكارها فى الناصرية ، وباب اللوق ، والمدابغ ، والفجالة ، وأبى الريش ، وباب الشعرية . ولكن المجاهدين مع ذلك لم يسلموا ولم يستسلموا . بل ظلوا يحاربون ثلاثة أيام متوالية . وأثخنوا الفرنسيين . وأبلوا فى الدفاع عن شرفهم وشرف مدينتهم الباسلة أكرم البلاء ، ولقوا فى ذلك من الشدة والمحن مالا يوصف .

شهداء تحت النار والتراب :

وعمد الفرنسيون إلى وسيلتهم الأخيرة ، فأضرموا النيران فى الأحياء الآهلة بالسكان فأحرقوا أحياء الأزبكية ، وخط الساكت ، والفواله ، وباب البحر ، والخروبى ، والعدوى ، وباب الشعرية ، ورصيف الخشاب ، وباب الحديد ، وركة الرطلى ، وكانت من أجمل متنزهات القاهرة ، وفيها من القصور الجميلة كثير .

« وقع الهجوم العام على القاهرة يوم ٢١ من إبريل . وكان هولا هائلا شاملا جميع الحارات . فصبت المدافع قنابلها على المدينـة الثائرة . ودوّى صوت الضرب فى كل مكان . وظل إطلاق القنابل والرصاص متواصلا طول الليل ، وشبت الحرائق فى جهات متعددة ، وأخذت النيران فى كل لحظة تلتهم المنازل بعضها إثر بعض . وأحدثت النار من الخرائب والحرائق ، ما لم يحدث مثله منذ بدء الحصار . وقد قتلنا عددا كبيرا من الناس ، فى تلك الموقعة . . ولكننا فقدنا كثيرا من جنودنا الشجعان قبل أن تصبح المدينة فى قبضة يدنا[1] » هكذا يصف مسيو جالان هجوم الفرنسيين على القاهرة .

ثم يصف أثر العدوان الفرنسى عليها . وامتهان قومه حرمة الموت والقتلى من شهدائها فيقول : « . . وقد لاحظت أن الحصار أضر بالقاهرة أكثر مما كنت أتصور ، فقد عم الخراب أحياء بأكملها . وتمثل لنا شبحه المخيف فى الأزبكية . وأثرت فى نفسى صورته المفزعة . فليس فى الإمكان أن تخطو خطوة إلا على كثبان من الخرائب والأتربة . وكانت رائحة العفونة تنبعث من الرمم المدفونة تحت الردم

(١) ص ١٨٠ — ١٨١ تاريخ الحركة القومية الجزء الثانى .

وزاد فى هذا المنظر فظاعة ، أن الجنود ، مدفوعين بفكرة النهب ، كانوا ينبشون الجثث من تحت الأنقاض والخرائب ، فكلما أظهروا جثة ، زاد المنظر هولا وفظاعة[1] » .. وقد احترقت أو دفنت تحت الأنقاض أسر كاملة فى هذا الحريق .

عند ذلك عاد العلماء للسعى فى الصلح ، وإنهاء هذه الحرب التى لا تكافؤ فيها ، والتى دامت أربعة وثلاثين يوما . وحوصرت فيها القاهرة حصارا محكما ستة وثلاثين يوما . لقيت فيها من الهول ما أوجزنا ذكره .

صلح وغدر :

وتم الصلح ، وأعطى الفرنسيون لأهل القاهرة ، أماناً على أنفسهم . وأعلن الجنرال كليبر أنه لن يعاقب أحداً من المصريين . حتى الذين اشتركوا فى الثورة . على شرط ألا يلحق أحد من المصريين بالجيش العثمانى عند خروجه من مصر إلى الشام . مخافة أن يقوى هذا الجيش بهم ، وأن تقع بينه وبين الفرنسيين حرب . وهكذا خرج المماليك ، وخرج العثمانيون . وبقى أهل القاهرة ، وحدهم يتحملون غدر كليبر ، ونقضه عهدهم .

نقض كليبر عهده لأهل القاهرة ، بعد أن صدقوه وآمنوا به ، وتركوا سلاحهم ، أو ما بقى منه . فإنهم لم يذعنوا إلا بعد أن لم تبق لهم قدرة على المقاومة وحمل السلاح .

بدأ كليبر انتقامه من أهل القاهرة ، بأن فرض عليهم غرامة فادحة . قدرها اثنا عشر مليونا من الفرنكات ، نصفها أموال ، ونصفها عروض . وفرض عليهم أن يسلموا عشرين ألف بندقية ؛ وعشرة آلاف سيف ، وثلاثين ألف طبنجة ، وأربعمائة بغل ، ومائة حصان . وفرض على العلماء من زعماء الثورة ما لا طاقة لهم به . فرض على الشيخ مصطفى الصاوى مائتين وستين ألف فرنك . وعلى الشيخ محمد الجوهرى وأخيه فتوح مثل هذا القدر . وصودرت أملاك السيد

(١) ص ١٨٠ — ١٨١ من المصدر السابق

أحمد المحروق جميعاً . وفرضوا على الدور والممتلكات أجر سنة كاملة . أما مافعلوه بالشيخ السادات فسنجمل أمره عند الحديث عنه مع الزعماء والأبطال .

وقد اشترك فى دفع هـذه المغارم الثقيلة الفادحة أهل القاهرة جميعا . حتى الزياتون ، والجزارون ، والمزينون، والنحاسون ، والحواة ،والقرداتية ، والدلالون.

وكذلك فرضوا مغارم ثقيلة على أهل البلاد ، وملاك الأراضى الزراعية . وجعلوا الشيخ سليمان الفيومى جابيا لها . ويقول الجبرتى : إن بعض الذين فرضت عليهم هذه المغارم من أعيان البلاد « كان لا يملك عشاءه[1] » .

وسلطوا على أهل القاهرة رجلا خائنا ، اسمه شـكر الله ، اشتـطّ فى التسلط عليهم ، لجمع هذه المغارم الفادحة شططا لا يوصف . فـكان يهدم البيوت إذا لم يدفع أصحابها ما عليهم فور طلبه . وكان البيت الذى لا يسكنه أحد ، تفرض ضريبته على مجاوريه ... وكان يجمع الرجال والنساء فى مكان واحد ، ويدخن عليهم بالقطن حتى يكاد دخانه أن يميتهم خنقا . وكان تحت إمرته فريق من جنـد الفرنسيين ليوقعوا بأهل مصر هذا العذاب .

ومنع الفرنسيون أهل القاهرة من ركوب الخيل والبغال ، سوى أربعة من كبار الشيوخ هم : الشرقاوى ، والمهدى ، والأمير ، والفيومى ، وابن محرم . وكان تاجرا . وجمعوا البغال من أصحابها فصادروها . وطلب كليبر إلى العلماء أن يجيئوا إليه فى بيته . فلما جاءوا ، تثاقل عليهم وأبطأ فى مقابلتهم ، فلما لقيهم امتهنهم ، ثم ألقى إليهم أمره بجمع هذه الضرائب . وإبقاء خمسة عشر عالما منهم

---

(١) فى مخطوط محكمة سوهاج الذى أشرنا إليه فى ص١٦٩ من الجزء الثانى نصوص بعض أوامر أصدرها القواد الفرنسيون فى مصر عنوان الأول منها — كما ورد فى المخطوط — «صورت فرمان من بتوع الفرنساوية سنة ١٢١٤ » وهو يشتمل على قيمة الضرائب التى فرضها الفرنسيون على سكان الإقليمين البحرى والقبلى . وعلى النظم الخاصة بجباية هذه الضرائب . وفى مجموعة المخطوطات هذه صورة فرمان أصدره الجنرال بليار يمنع فيه التسول ويأمر بالقبض على كل متسول ولو كان ذا عاهة على أن تخصص كل طائفة من المسلمين واليهود وغيرهم مكاتب تجمع فيها طوائف المتسولين العاجزين ويتولى رئيس كل طائفة الإنفاق على العجزة من أبناء طائفته . وبعض هذه الفرمانات لم يسجله الجبرتى .

وهينة ، حتى يتم جمعها . ثم تركهم كليبر ، بعد أن ألقى أمره هذا ، مبهوتين ، خائفين من بطشه . حتى خرج بعضهم حافيا .

وأراد كثيرون من أهل القاهرة أن يهاجروا منها ، فرارا من ظلم الفرنسيين. تاركين بيوتهم ، وأهليهم . فأرغمهم الفرنسيون على العودة .

وهدموا أحياء الحسينية ، وباب الفتوح ، وباب النصر . ولم يمكنوا أصحابها من نقل متاعهم ، وأنقاض بيوتهم . بل أخذوه كله . ولم يحتسب لهم من الغرامة .

وقد بلغ الأمر بأهل القاهرة حدا وصفه الجبرتى بقوله :

« . . . . فدهى الناس بهذه النازلة ، التى لم يصابوا بمثلها ، ولا ما يقاربها . ومضى عيد النحر ولم يلتفت إليه أحد . بل ولم يشعروا به . ونزل بهم من البلاء ، والذل ، مالا يوصف » . ثم بقوله : إنه « قد ضاق خناق الناس ، وتمنوا الموت فلم يجدوه » .

وبلغ الأمر بأهل مصر كلهم ، ماوصفه أمين باشا سامى إذ يقول : إن حوادث هذه الفترة تدل « على مبلغ ما وصلت إليه أيديهم — أى الفرنسيين — من نهب وسلب وأسر وقتل ، وتدمير وتخريب ، ومذلة وفناء — للمصريين — وبلاء مستطير . وضروب العذاب الأليم : يذبحون أبنـــاء الناس ، ويستحيون نساءهم[1] » .

(١) ص ١٦٤ تقويم النيل .الجزء الثانى .

إنتقام الشعب

كان لابد لهذا الظلم ، ولهذا الجبروت ، ولهذه القسوة على شعب مصر ، أن تملأ قلوب أبنائه بالنقمة والسخط والحقد . وأن تدفعه إلى الانتقام . فقام واحد من أبناء الشعب — هو سليمان الحلبي — بالتنفيس عن هذا السخط المكظوم ، الذى فاض به شعور الناس ، بسبب هزيمتهم أمام الفرنسيين فى الحرب ، وبسبب هذه القسوة الشاذة المنكرة ، التى أخذها بهم كليبر .

وكان التنفيس عن غضب الشعب وسخطه المكظوم ، بقتل كليبر نفسه .

وقد يقول قائل إن سليمان الحلبى لم يكن مصريا . ولكنا نجيب بأن وجدان الناس فى ذلك الوقت لم يكن وجدانا وطنيا ، بل دينيا . ولم يكونوا يعرفون حدود الوطن ، بل كانوا يعرفون إحساس الإيمان والعقيدة .

ربما كانوا يحسون بالقومية إحساساً مبهما آنئذ . ولكن إحساسهم القوى الغالب المسيطر ، كانت دوافعه هى دوافع الدين والعقيدة التى هى أشمل وأعم وأوسع من حدود الوطن .

وقد كان سليمان الحلبى من بلاد الشام . ولكنه عرف ما أصاب أهل مصر من جور الفرنسيين وظلمهم وجبروتهم . فتحركت فى نفسه عوامل قوية من الغضب والغيظ لما أصاب عشيرته الدينية ، أو العربية ، من محنة . فلما قدم القاهرة لشفاء ما فى نفسه من هذا الغيظ والغضب . استقر فى الأزهر ثلاثين يوما والأزهر مركز المقاومة وجحر الثورة . فتأثرت نفسه ، فوق تأثرها ، بهذه البيئة الثورية . وسمع من صغار العلماء ، والمجاورين ، ما أصاب الناس من شقاء ، وما أصاب الأزهر من تهدم ، واعتداء على حرماته وكرامة أهله . فزاد إصراره على الانتقام والثأر . وتفاعلت فى نفسه أكثر من ذى قبل ، عوامل الغيظ والغضب .

على أن سليمان الحلبى عرف مصر والأزهر من قبل . وتأثرت بمواطنها نفسه . حيث طلب العلم فى الأزهر قبل ذلك ثلاث سنين ، ثم عاد إلى الشام .

وقد يقول قائل: — إن الذين حرضوا سليمان الحلبي على قتل كليبر هم الأتراك ، كما ثبت من اعترافه في التحقيق .

ولكنا نقول إن سليمان إعترف بأن أحمد أغا ، ويس أغا ، حرضاه على السفر إلى مصر ، وقتل كليبر . وأن يس أغا أعطاه أربعين قرشا . . . . ! نفقات سفره من الشام إلى القاهرة . ولكن هذا الاعتراف . كأقوال سليمان كلها ، إنتزعت منه بعد ضربه وتعذيبه . وقد اعترف الفرنسيون بذلك . وكأنهم خجلوا من هذا الأسلوب في المحاكمة ، فقالوا إن هذا التعذيب كان على «عادة البلد» أي إنه أسلوب جرى عليه الناس في مصر في ذلك الوقت . ومن مصلحة الفرنسيين أن ينسب اغتيال كليبر لغير المصريين . حتى لا ترتفع روحهم المعنوية ، وتزيد حماستهم في الحرب والخصومة ، ويكبر اعتبارهم عند أنفسهم وعند الناس .

ومع التسليم بأن أحمد أغا ، ويس أغا حرضا سليمان على قتل كليبر ، فإن ذلك لم يكن سوى توجيه عاطفة موجودة ، والاستفادة منها ، واستغلالها . وهذه العاطفة ، وطنية ، أو دينية ، أو قومية عربية ، لم تكن موجودة عند أحمد أغا ويس أغا نفسيهما . لأنهما كانا من رجال الوالي التركي في مصر ، ثم فرا إلى الشام أمام الفرنسيين . ولم يجدا عند سليمان الحلبي سوى الرغبة القوية في الانتقام من الفرنسيين ، ولوضحّى بنفسه في هذا السبيل . فأعطاه ثانيهما أربعين قرشا لنفقات سفره . لأنه كان فقيرا معدما .

فشرف هذا الانتقام ، يتوج رأس سليمان الحلبي ، وهو شرف يجب أن ينسب لمصر ، وللأزهر . وقد عرف الفرنسيون أثر الأزهر ورجاله خاصة في إقدام كليبر على فعلته . فخصّوه وخصوا علماءه بغضب شديد ، كما نرى بعد . فسليمان الحلبي كما رأينا ، يمكن أن يقال فيه إنه مصري العاطفة ، أزهري الثقافة .

مقتل كليبر :

كان الجنرال كليبر كثير الحركة . دائم التنقل بين منزله فى الجيزة ، حيث كان يقيم فى ذلك الوقت ، ومعسكر جيشه فى الأزبكية . وفى يوم ١٤ من يونيو سنة ١٨٠٠ ذهب كليبر إلى جزيرة الروضة ، فتفقد بعض الجند الفرنسى . ثم عاد إلى مركز القيادة العامة ، وإلى منزل القائد فى الأزبكية . فشاهد ، ومعه المسيو بروتان ، أحد مهندسى الحملة ، ما كان يجرى من الإصلاحات فى هذا المنزل وفى مقر القيادة — وكان ما أصابهما بسبب أعمال الثورة وبأيدى رجالها — ثم ذهب فى عصر ذلك اليوم مرة ثانية ، ومعه بروتان إلى المنزل ومقر القيادة .

وكان كليبر يتحدث إلى رفيقه ، وهما يسيران فى ممر طويل . إذ تقدم إليه رجل بورقة فى يده ، فتلفت إليه كليبر ليسمع منه ، أو ليأخذ الورقة ، فعاجله الرجل بطعنة خنجر فى صدره ، ثم اشتبك بالمسيو بروتان ، الذى أسرع ليلحق به ، وطعنه بخنجره ست طعنات ، سقط بعدها إلى الأرض ، ثم عاد مرة أخرى ليجهز على كليبر بخنجره ، وكان قد قتل بالطعنة الأولى ، وقد ظهر فيما بعد ، أن سليمان تعقب كليبر أياما كثيرة ، وأنه حاول أكثر من مرة أن يلتقى به ليقتله فلم يستطع . وضبط سليمان بعد ذلك فى حديقة مقر القيادة .

وفى اليوم الثانى — الأحد ١٥ من يونيو — أصدر القائد العام الجديد ، الجنرال منو ، أمره بتشكيل المجلس العسكرى الذى يحاكم القاتل ، ثم عقد هذا المجلس — فى اليوم التالى — أولى جلساته .

أربعة من الشهداء :

وتمت المحاكمة ، وشهادة الشهود ، والمرافعة ، من الأدعاء والدفاع فى يومين . وأصدر المجلس حكمه بأن تحرق يد سليمان اليمنى ، ثم يجلس فوق الخازوق . وتترك جثته حتى يأكلها الطير ، وكانت سن سليمان أربعا وعشرين سنة . وأدان المجلس

أربعة من الأزهريين كان سليمان أفضى إليهم بعزمه على قتل كليبر ، وهم الشيوخ عبد الله الغزى ، وسنه ثلاثون سنه . ومحمد الغزى وسنه خمس وعشرون . والسيد أحمد الوالى ، وقد ذكر أنه لايعرف سنه . وعبد القادر الغزى . وقد حوكم غيابيا لأنه فر . أدان المجلس هؤلاء الأربعة من الأزهريين ، لأنهم لم يخبروا السلطات الفرنسية بما سمعوه من سليمان أو عرفوه من تفكيره فى قتل كليبر . وقد قطعت يد سليمان اليمنى . ثم أجلس على الخازوق ، فوق تل العقارب ، بالنصارية . وأعدم الأزهريون الثلاثة بقطع رؤوسهم ، ثم حرقت جثثهم ، ووضعت رؤسهم على نبابيت ليطاف بها فى شوارع القاهرة وأحيائها . ونفذ حكم الإعدام فى الأزهريين الثلاثة . قبل إعدام سليمان ، أمام عينيه .

ودفن جثمان كليبر ، فى احتفال عسكرى كبير ، فى حديقة قصر العينى . ثم نقله الفرنسيون معهم عند خروجهم من مصر ، إلى فرنسا .

بعد ذلك زادت ريبة الفرنسيين فى علماء الأزهر وطلبته . فقد أمضى فيه القاتل ثلاثين يوما . وأفضى لأربعة من طلبته بعزمه على القتل . وكانوا يودون لو استطاعو إدانة شيخ الأزهر ، الشيخ عبد الله الشرقاوى . ولكنهم ، على الرغم من إلحاحهم على سليمان والثلاثة الأزهريين بأن يعترفوا بعلم الشيخ نية القاتل ، أو باتصاله به ، أو بزيارته . لم يستطيعوا إدانة الشيخ .

هذه الريبة فى العلماء والطلبة . وهذا الغضب منهم ، حملا الفرنسيين على أن يصطنعوا معهم البطش والشدة . ففتشوا الأزهر تفتيشا دقيقا . ونقروا فيه نقرا كثيرة . لعلهم يجدون سلاحا . وأخرجوا بعض الطلبة منه . وأخلوا الأروقة ونقلوا مافيها من الكتب ، ودونوا أسماء الطلبة الذين لم يخرجوهم وأخذوا عليهم عهدا بألا يدخل الأزهر غيرهم . وكانت حملة التفتيش على الأزهر بقيادة القائد العام الجديد نفسه ، منو ، ومعه حاكم القاهرة ، الجنرال بليار ، والمحافظ .

الأزهر يقفل :

وعند ذلك رأى العلماء من الخير والحكمة ، أن يقفل الأزهر · حتى لاتكون هذه الريب والشكوك ، سببا فى إعنات أهله وإرهاقهم ، وحتى لاتكون هذه الأحوال القلقة ، والظروف الرهيبة التى تسود القاهرة عامة ، والأزهر خاصة ، مسرحا لفتنة جديدة . فطلب شيخ الأزهر ، الشرقاوى ، والشيخان الصاوى والمهدى إلى منو أن يأذن بقفل الأزهر . فقفل « وسمروا أبوابه من جميع الجهات » كما يقول الجبرتى . وكان ذلك يوم ٢١ يونيو ، أى بعد أسبوع من قتل كليبر ، وبقى الأزهر مقفلا نحو عام · حتى خرج الفرنسيون من مصر . ففتح يوم ٢ يونيو سنة ١٨٠١ ·

انتقام وقسوة :

هذا ما أصاب الأزهر ، بعد اغتيال كليبر · أما أهل القاهرة ، فقد أمر القائد الجديد ، الجنرال منو ، بفرض غرامة جديدة عليهم ، قدرها أربعة ملايين فرنك ، ثم مليونا آخر · وأراد كثيرون من أهل المدينة أن يهاجروا منها فرارا من الظلم . فمنعهم الفرنسيون ، وأرغموا من خرج منهم على أن يعود ، وإلا نهبت بيوتهم ، وصودرت أملاكهم واعتبروا مذنبين · وامتنع الجنرال منو من مقابلة المصريين ، حتى العلماء . وكذلك فعل قواده ·

وأمر منو[1] بأن تقفل جميع المتاجر ، والوكايل ، والخانات . ثم يصفى جميع

(١) كان الجنرال منو أشد القواد الفرنسيين قسوة على المصريين . وكان يكره كليبر حتى إنه سمى ابنه من زوجه المصرية « سليمان » على اسم سليمان الحلبى الذى قتل كليبر . ولم يمنعه إظهاره الإسلام وتسمية نفسه باسم عبد الله من اتخاذ كل أنواع القسوة مع المصريين .
وقد اطلعت على وثيقة زواجه من السيدة زبيدة المصرية — كما نقلها الأستاذ على بهجت من سجلات محكمة رشيد الشرعية — وفيها أن صداقها كان مائة دينار ، وألفى ريال . وأنها لم تقبض من مقدم صداقها سوى المائة دينار . وأنها كانت زوجا لسليم أغا نعمة الله . ثم طلقت منه . وأبوها محمد البواب من رشيد . وكان منو حاكما عليها .
وتجد النهاية التعيسة التى انتهت إليها حياة زبيدة هذه ، وعلاقة منو بها ، فى الجزء الأول من هذا الكتاب . ص ١٧٢ — ١٧٣ .

مافيها من الأموال والعروض ، ويقدر بأبخس الأثمان، ويحتسب من قيمة الضريبة التى فرضها . وهدمت بيوت كثيرة ، بل أزيلت أحياء كاملة ،كالحسينية، والخروبى بمصر القديمة ، وركة الفيل ، وركة جناق ، فى باب الشعرية . وهدم سور القاهرة من باب النصر إلى باب الحديد . واقتلعوا أحجار المساطب التى كان الناس يجلسون عليها أمام حوانيتهم فاتخذها المجاهدون متاريس فى أيام الثورة . وأزالوا هذه المساطب كلها من أحياء الصليبة ، وقناطر السباع ، ودرب سعادة ، والجامبز . وباب الخلق . وأحياء أخرى من القاهرة . وقطعوا الأشجار ، النخيل ، من جميع البساتين فى المدينة ، وبعض البلاد الأخرى . واستولوا على أخشاب السفن والمراكب .

وأمعنوا فى الإساءة إلى شعور الناس . فجعلوا مسجد الأمير أزبك ، فى الأزبكية سوقا يباع فيه مايصادر من متاع أهل القاهرة ومتاجرهم . وجعلوا مسجد الرويعى خمارة . وهدمت مساجد الجنبلاطية ، فى باب النصر ، وجركس ، وخوند ركة ، عند باب البرقية — الغريب — وعثمان كتخدا القزدغلى — بالقرب من رصيف الخشاب — ميدان الأوبرا الآن — وخير بك ، بالقرب من ركة الفيل . عبد الرحمن كتخدا ، المقابل لباب الفتوح ، والبنهاوى ، والطرطوشى ، والعدوى . وجعلوا المسجد الناصرى قلعة ، ومسجد الأمير سليم كاشف ، فى أسيوط ، سجنا .

وهدمت غير هذه من المساجد ، والأحياء .

وأمروا أهل القاهرة ، مهما علت مكانتهم ، أن يقفوا تحية لعمال الفرنسيين وموظفيهم عند مرورهم فى الشوارع .

وامتد عدوان الفرنسيين ، وظلمهم ، إلى بلاد الريف . فجعلوا تعيين العمد فى القرى بأمر من القائد العام . ليكونوا تحت سلطانهم . وليستخدموهم فى تنفيذ أوامرهم ، وجمع مايريدون جمعه من المال . ثم فرضوا على البلاد ضرائب ثقيلة . وصف الجبرتى وقعها على الناس بقوله . — «فلما شاع ذلك ضجت مشايخ البلاد . لأن منهم من لايملك عشاءه » ويقول الشيخ عبد الله الشرقاوى — وكان صديقا

للفرنسيين — « إن كل قرية حاربتهم نهبوا أموالها وقتلوا رجالها ، وأخذوا نساءها . وقتلوا من علماء مصر نحو ثلاثة عشر عالما[١] » .

كل ذلك فعله الفرنسيون بأهل مصر ، فى القاهرة والريف ، حتى لا يثوروا عليهم مرة أخرى . وحتى يقهروا نفوسهم بالسطوة والجبروت .

ولكن هذا العنت والظلم ، وهذه القسوة الباغية . وإن تكن أضعفت من قدرة المصريين على المقاومة ، فإنها لم تضعف فى قلوبهم مشاعر الحقد والغضب على الغاصب الظالم المحتل . بل زادتها اشتعالا ، ورسوخا ، وتمكينا . لذلك عندما قدم الإنجليز والأتراك — بعد ذلك بتسعة شهور — لحرب الفرنسيين ، كان هؤلاء يخشون ثورة المصريين عليهم ، أكثر من خشيتهم الحرب . فجمع الجنرال منو أعضاء الديوان الجديد ، الذين اختارهم جميعا من المصريين ، وأنذرهم محذرا من الفتنة . ولكنه لم يرض عن تصرفهم ، ولم يطمئن إلى نواياهم ، ولا إلى سيطرتهم على الشعب لو أراد الثورة عليه . فأمر باعتقال كبار الشيوخ ، الذين يشك فى إخلاصهم ، وولائهم ، والذين يخشى من أثرهم ، وتحريضهم الشعب على الثورة . وكان أولهم الشيخ السادات . فأخذ إلى القلعة سجينا . ثم اعتقلوا بعد ذلك الشيخ عبد الله الشرقاوى ، شيخ الأزهر ، والشيخ محمد المهدى ، والشيخ مصطفى الصاوى ، والشيخ سليمان الفيومى ، ثم الشيخ محمد الأمير . واعتقلوا أيضاً كثيرا من وجوه الناس ، ومن أبناء الشعب . ولم يغفلوا ، مع ذلك ، أن يتملقوا شعور المصريين ، وأن يداهنوهم .

وكان موقف أهل القاهرة ، وتحفزهم للثورة على الفرنسيين ، عند اشتباكهم فى حرب الإنجليز والعثمانيين ، من الأسباب التى حملتهم على التسليم من غير قتال ، فى ٢٣ يوليو ١٨٠١ ثم قبولهم الجلاء عن مصر كلها فى خمسين يوما .

وقد صرح بهذه الحقيقة — الخوف من ثورة أهل القاهرة — الجنرال بليار ، الذى خلف منو فى قيادة الجيش ، صرح بذلك فى اجتماع المجلس الحربى

(١) ص ٧٦ من كتاب « تحفة الناظرين فى من ولى مصر من الولاة والسلاطين » .

الفرنسي . وكان يرأس المجلس . وكان تصريحه بذلك موحيا برغبته في التسليم . ثم أقره المجلس عليه .

والفضل ما شهدت به الأعداء :

ولكي نعرف أثر هذه المقاومة الباسلة ، المثابرة ، القوية ، التي قاوم بها شعب مصر كله ، عدوان الفرنسيين على أرض الوطن . نذكر طرفا من شهادة المؤرخين ، والقواد الفرنسيين في ذلك . وقد ذكرنا عند حديثنا عن مقاومة أهل المدن والقرى طرفا من هذه الشهادات ، عن المقاومة المحلية . ونحن هنا نذكر طرفا آخر ، يتناول المقاومة العامة ، من الشعب كله ، وأثرها في قدرة الجيش الفرنسي على حكم البلاد ، بل مجرد البقاء فيها .

فمن ذلك ما يقوله المسيو مارتان ، أحد مهندسي الحملة ، وعضو اللجنة العلمية الفرنسية : « بالرغم من احتلال الفرنسيين لعاصمة مصر ، فإنهم لم يستقر لهم قرار في البلاد . وكان مركزهم فيها مزعزعا ، ومحفوفا بالمتاعب . ولم يترك الأهالي وسيلة لمقاومة السلطة الفرنسية إلا اتبعوها . وقد ذهب كثير من الفرنسيين ضحية هذه المقاومة[1] » .

ثم يقول : إن دعاة الفتنة ما فتئوا يشعلون نار الثورة في مختلف أنحاء القطر المصري . وقد اتخذ المصريون شعارهم ، ذلك المبدأ المشهور الذي أعلنته فرنسا ، وهو : « إن مقاومة الاضطهاد هي أقدس واجبات الشعب » .

ويقول ريبو : « كان الجنود يعملون على إخماد الثورة بإطلاق الرصاص على الفلاحين ، وفرض الغرامات على البلاد . ولكن الثورة كانت كحية ذات مائة رأس . كلما أخمدها السيف والنار في ناحية ، ظهرت في ناحية أخرى أقوى وأشد مما كانت . فكأنها كانت تعظم ، ويتسع مداها ، كلما ارتحلت من بلد إلى آخر[2] » :

---

(١) ص ١٦٠ جزء ١ من تاريخ الحركة القومية .
(٢) ص ٣٣٩ من المصدر السابق.

ويقول الجنرال كليبر بعدما تولى قيادة الجيش : « إن مصر ، بالرغم من السكون الظاهرى الذى شملها ، لاتعتبر إلا مذعنة لحكم القوة ، والشعب المصرى موزع الفكر ، قلق على مصيره . ولا يرى فينا — مهما فعلنا — إلا أعداء ملكه وماله . وقلبه متجه دائما ، إلى الأمل فى حدوث الانقلاب الذى يتوقعه[1] » .

ويقول مسيو بوسليج ، مدير الشئون المالية للحملة : «إن الشعب المصرى بالرغم من ثوراته العديدة ضدنا ، يمكن اعتباره شعبا وديعا ، على أنه يكرهنا ، وهيهات أن يحبنا . مع أننا نعامله بأحسن ما يمكن أن تعامل به بلاد محتلة...إنهم يمقتون المماليك ويرهبون نير الآستانة ، ولا يحبون حكمها . ولكنهم لا يطيقون حكمنا . ولا يصبرون عليه ، إلا بأمل التخلص منه[2] » .

ويقول نقولا الترك — وهو مؤرخ فرنسى — إن الجيش الفرنسى فقد منذ دخل مصر إلى أن خرج منها ، خمسة عشر ألف جندى . وأن المصريين اغتالوا عدداً كبيرا منهم . ثم يقول إن النساء المصريات كن « يأخذن الفرنساوية إلى منازلهم إلزاما — أى قهرا — ويقتلونهم ويرمونهم فى الأبيار ، ويخفون منهم الآثار[3] » .

وقد قدر الجنرال داماس ، رئيس أركان حرب الجيش الفرنسى ، عدد جنود جيشه فى سبتمبر سنة ١٧٩٨ ، بثلاثة وثلاثين ألفا . وقدره فى أغسطس من السنة التالية ، باثنين وعشرين ألفا . فكأنه فقد فى سنة واحدة أحد عشر ألف جندى . مات بعضهم بسبب المرض . وكثير منهم بيد المجاهدين ، وأبناء الشعب .

وقد شهد نقولا فى كتابه هذا — الذى وضعه لخدمة الفرنسيين ، وتمجيدهم — شهادات مشرفة لوطننا فى هذا الكفاح . فقال : إنهم كانوا يخشون ثورة المصريين ، أكثر من خشيتهم حرب المماليك ، أو العثمانيين . وقال : « إن المصريين تظاهرت فى المعاداة والأسية ، على الطائفة الفرنساوية . وقامت الأربع أقاليم المصرية ،

(١) و(٢) ص١٢٦ جزء ٢ من المصدر السابق .
(٣) ص ١١١ من كتاب . « ذكر تملك جمهور الفرنساوية » .

القبلية ، والبحرية ، والغربية ، والشرقية . وكان فى كل وقت ، يقع الخصام بينهم وبين الجنرالية ، من الأربع الجهات المصرية . وتحرق البلاد ، وتهلك العباد[1] » .

ومما يزكى شرف جهادنا، ما ذكره المسيو مارتان، إذ يقول : « لقد قام المصريون فى ثورة القاهرة ، بما لم يستطع أحد أن يقوم به من قبل . فقد صنعوا البارود ، وصنعوا القنابل من حديد المساجد ، وأدوات الصناع . وفعلوا ما يصعب تصديقه ، وما راء كمن سمع . ذلك أنهم صنعوا المدافع[2] » وقد كان المهندس مارتان شاهد عيان لهذه الثورة .

وكذلك ما سجله مسيو ميو ، وكان مرافقا للحملة ، إذ يقول . « طالما ذكرتنى الحرب بموقفنا فى مصر . وهكذا كل حرب أهلية . لأن احتلال جيش لبلد — لا يريد أهلها إلا الحرية — يجعل ذلك الجيش معرضا للخطر . فأما محو تلك الأمة ، وإما ترك البلاد لأهلها[3] » .

هذا بعض ما شهد به الفرنسيون فى مقاومة المصريين لهم . أما شهادتهم فى أثر هذه المقاومة عندهم ، فنحن نذكر منها — فوق ما تضمنته الشهادات السابقة — ما سجله نقولا من أن الحاميات الفرنسية ، فى داخل البلاد ، خرجت عن طاعة قوادها . فقد سار الجنرال كليبر إلى الصالحية — وكان المجاهدون المصريون حرقوا حامية العريش على جنودها — فوجد الجنود الفرنسيين ، كما يقول نقولا ، « قلوبهم منقسمة ، ووجوههم غير مبتسمة . ونفوسهم قلقانة ، ومن التفور ملآنة . وقلوبهم ، إلى السفر ظمآنة . ومتحسرين من نفور أهل الكنانة[4] » وكذلك علم كليبر ، من حاكم مدينة بلبيس ، أن الجنود الفرنسيين عصوا أمر قائدهم . وقام جنود من حامية الإسكندرية على بعض الضباط المسافرين إلى فرنسا ، وكانوا يحملون أموالا ، فمنعوهم من السفر . وقالوا لهم : « محال أن

---

(١) ص ٥٢ من الكتاب .
(٢) ص ٥٦ ، جزء ٢ تاريخ الحركة القومية .
(٣) ص ١٦٧ من كتاب « فتح مصر الحديث » .
(٤) ص ١٣٨ من كتاب « ذكر تملك جمهور الفرنساوية » .

ندعا كم — ندعكم — تسيرون بهذه الأموال ، ونحن نقاسي الوبال والنكال[١]».

وكذلك كان من آثار هذه المقاومة أن امتنع جنود حامية العريش عن المقاومة . وسهلوا للحملة التي كان يقودها يوسف باشا ضيا ، دخول القلعة . وكان ذلك في أثناء مفاوضات الصلح . فكان مسلك هؤلاء الجند من أكبر الأسباب لقبول الفرنسيين له .

وكان من أثر هذه المقاومة ، أن أخرجت نابليون ، الحكيم الحليم ، عن حد الاعتدال ، والسداد . ويبدو ذلك واضحا في الاجتماع الذي التقى فيه نابليون بالعلماء وأعضاء الديوان وأعيان القاهرة في ١٠ أغسطس سنة ١٧٩٩ — بعد انتصاره على الحملة العثمانية الأولى — ذلك الاجتماع الذي يصوره نقولا الترك تصويرا شيقا. حتى ليبدو فيه نابليون المظفر كأنه ممثل هازل . وقد ذكر الجبرتي خبر هذا الاجتماع وحديث نابليون فيه — في حوادث شهر ربيع الأول سنة ١٢١٤ — [٢] ولكن تصوير نقولا أصدق في الدلالة على ما نريد .

ولولا خشية أن أطيل ، لرسمت هذه الصورة . فليرجع إليها من يشاء[٣] .

ونستطيع أن نقول ، في ختام هذا التلخيص لكفاح مصر في سبيل حريتها ، إن شعبها حقق بالفعل ، ما قاله الرئيس ولسون ، رئيس الولايات المتحدة أيام الحرب العالمية الأولى ، بعد ذلك بأكثر من قرن من الزمان وهو :

« إن شرف الأمة أغلى من رفاهيتها . بل أغلى من حياتها » .

---

(١) ص ١٣٩ من كتاب « ذكر تملك جمهور الفرنساوية » .

(٢) ص ٨١ جزء ٣ طبع المطبعة الشرفية .

(٣) ص ١٢١ — ١٢٢ من كتاب نقولا . وقد نقلها حافظ عوض في ص ٣٩٧ — ٣٩٨ من فتح مصر الحديث .

مقاييس جديدة لدراسة تاريخنا الحديث

تتصل دراسة « المجتمع المصرى » أوثق الاتصال بدراسة تاريخنا . وخاصة تاريخنا الحديث . فمن أحداثه الكبار ، ونتائجها ، وتاريخ الرجال الذين واجهوا هذه الأحداث ، أو واجهتهم . ومن قيم هؤلاء الرجال الحقيقية ، من هذا كله يتكون واقع مجتمعنا المصرى وحاضره ، وبشائر مستقبله . كما يتلون مجتمعنا ، وتتلون أخلاق أهله وطرائق تفكيرهم بلون أو ألوان خاصة ، لأحداث هذا التاريخ ، وفهمها ، أثر كبير فيها ، وفى انسجامها أو تنافرها . واستقامتها ، أو عوجها .

وقد كانت دراسة تاريخنا الحديث ، منذ الفتح العثمانى . ومنذ استيلاء محمد على على الحكم خاصة ، خاضعة لمؤثرات غير أمينة وغير منصفة ، وغير مفيدة . بل هى ضارة بالغة الضرر . على وجه التأكيد .

أما أنها غير أمينة ، فلأنها كانت منحازة إلى جانب الخصومة مع شعبنا ، وكأنها لا تؤرخ له ، بل تجمع المآخذ ، والآثام ، والمثالب . فتلصقها بهذا الشعب ، الذى خذل أمام العثمانيين . ولكنه لم يفرط فى حق وطنه ، وشرفه ، بل دافع عنهما أروع دفاع وأكرمه ، كما رأينا منذ قليل . وشعوب العالم كلها يتناوب حياتها النصر والهزيمة .

وأما أنها غير منصفة ، فلأنها لم تبحث عن العلل الطارئة . والعوامل الدخيلة . التى انتهت به إلى الهزيمة أمام العثمانيين ، ثم أمام الفرنسيين والإنجليز . بل جعلوا سبب ذلك دوافع أصيلة فى تكوين الشعب نفسه وإدراكه ، والمقاييس التى يقيس بها أهداف الحياة والكرامة والشرف . والحرص على الحرية والعزة . وكان يجب أن نبحث عن هذه وتلك .

وأما أنها ضارة بالغة الضرر . فليس يخفى ذلك على مفكر أو متأمل . لأنها تهدر فى نفوسنا كل معنى كريم ، وكل إحساس بالنخوة الوطنية ، وكل شعور بمجد الماضى وكفاحه .

ولا يزال كثيرون منا ، ومن رجال التربية خاصة ، يذكرون دنلوب وسياسته في وزارة المعارف . ولم يكن دنلوب شخصاً أكثر مما كان فكرة ومذهباً . الغاية منهما إذابة كل شعور قومي ، وكل معنى من معاني « التربية » الوطنية والفردية والسياسية . ولم يفعل الإنجليز ذلك عبثاً . بل كان هدفهم منه التمكين لسلطانهم واحتلالهم . كأنهما قدر لا مفر منه ، وأن تاريخ مصر كله ، والقيم الفردية والجماعية للمصريين . أساسهما ، وقوامهما . الخضوع لحكم الغير ، والرضى به .

هذه ناحية ، والناحية الأخرى تسخير التاريخ لخدمة أسرة محمد علي . فقد أسرف المؤلفون والمؤرخون في ذلك . حتى أصبحت العقيدة الراسخة ، وأضحى المبدأ المقرر . الذي لا يقبل المناقشة . إن محمداً علياً هو « منشيء مصر » و « محيي مجد مصر » .

فماذا بقي لشعب مصر ، بعد ذلك ، من هذا التاريخ الحديث . . ؟

هذه هي دعوتي « مقاييس جديدة لدراسة تاريخنا الحديث » .

فإذا عدونا هذا التاريخ الحديث إلى ماقبله ومابعده من تاريخنا وجدناه لايعدو تاريخ الملوك والسلاطين والحكام وأهل السيادة . وهو في تأريخه لهم غير منصف ، ولا محايد ولا موثق .

أعرف أن هذه دعوة شاقة على المؤرخين والمؤلفين . لأن أمامهم بنياناً شامخاً يقوم على هذه الأسس الزائفة الضارة من تاريخنا . ولأن أمامهم عشرات الكتب التي وضعت وألفت وترجمت على هذا الأساس ، وبهذه المقاييس المنحرفة . حتى أصبحت نفوس المؤرخين أنفسهم . من طول الملابسة لهذه المقاييس ، ودوام الألفة لهذه الكتب ، كأنهم يؤمنون بصدقها وصوابها وعدالتها . وأنه يكاد يكون من المستحيل ، أو من العسير الذي يكاد يشبه المستحيل ، أن يبحث هذا التاريخ على أسس تغاير — بل تناقض — هذه المقاييس التي ألفناها وعشنا حياتنا كلها في جوها وبيئتها ، وبين كتبها ومبادئها ومقرراتها .

هو أمر عسير حقاً ، ولكنه ضرورة لا بد منها ليدرك هذا الشعب قيمته . ويعرف مزاياه الأصيلة ونقائصه .

وليست دعوتي أن نتملق غرائز الشعب ، ونترضى غروره بألفاظ جوفاء لا تبطن وراءها حقيقة . ولا يساندها سند من الواقع أو من التاريخ . بل إني أدعو

إلى مقاييس جديدة فى بحث تاريخنا الحديث بحثا علمياً . يكون رائده الصدق ، والأمانة ، وسلامة الإدراك ، وحسن البصيرة . ووضع الأحداث والرجال حيثما تضعها وتضعهم الحقائق ، لا الأوهام والغايات . وألا نجعل التاريخ خاضعا لمقاييس تقليدية ، غير مدركة . ولا نجعله خادما للملوك والحاكمين وأهل السيادة . بل نضع إلى جانبهم ، المتوسطين ، وأبناء الشعب . الذين كانت لهم صنائع . أو مواقف . تستحق أن يحفظها لهم التاريخ ، وتحمد لهم .

ويحسن أن نضرب مثلا يوضح ما نريد . وليكن هذا المثل السيد عمر مكرم ، فهو ، كما يعرف المثقفون . زعيم من زعماء مصر فى تاريخها الحديث . ويصفه كثير من المؤرخين بأنه « زعيم مصر الأول » . أو زعيم القومية المصرية الأول . وقد كان عمر مكرم زعيم مصر الأول فترة طويلة من الزمن ، لا شك فى ذلك . ولكنه لم يفد من زعامته تلك — إلى نهاية المدى — إلا فى تنصيب محمد على ، وإجلاسه على عرش مصر . وقد كان مكرم ، كما كان بقية مناصرى محمد على ، يعتقدون أنه سيسير فيهم بالعدل ، كما عاهدهم ، ولكن سياسة عمر مكرم ، بعد ذلك ، اتسمت بالمسايرة والملاينة لمحمد على — حتى بعد ظهور خبيئته — بل نستطيع القول بأنها اتسمت بالضعف والتردد .

ولكن السيد عمر مكرم ، عندما جاء نابليون لغزو مصر ، ووقف عند سفح الهرم ، صعد إلى القلعة فأنزل البيرق النبوى . وحمله على رأس مظاهرة رائعة ، يحرض بها الناس على حرب نابليون والدفاع عن القاهرة . فلما دخل نابليون القاهرة ، تركها السيد وفر إلى الشام . حتى إذا فتحها نابليون ولقيه فى مدينة من مدنها ، أعاده إلى مصر ، فبقى فيها مسالما للفرنسيين .

نجد هذا فى سيرة السيد عمر مكرم . ونجد مصريين غيره ، بعضهم أقل منه زعامة ومكانة ومنزلة . وبعضهم دونه فى ذلك بمراحل بعيدة . وبعضهم من عامة الناس وأبناء الشعب . نجد هؤلاء بذلوا أموالهم وأرواحهم فى الحرب أو فى الثورة على نابليون ، أو على الأتراك ، أو فى دفع الحملة الإنجليزية .

وليس فى هذا الذى أقوله عن السيد عمر مكرم تنقيصا لشأنه ، أو تضعيفا لمنزلته ، ولا فى هذا الذى فصلته — وأفصله بمد إن شاء الله — تضخيما لشأن هؤلاء المجاهدين لأنهم من أبناء الشعب · بل هذا وذاك وزن للرجال بميزان العدل والعقل . ووضع لهم حيث تضعهم صفاتهم ، وأعمالهم . وقيمهم الحقة . من غير تزيد ، ولا تحيف ، ولا مغالاة ، ولا خضوع لمقاييس غير مستقيمة . أو متابعة لقول قائل أو مروج أو مخدوع ·

مقاييس جديدة ، عادلة ، مفيدة · من شأنها أن تزن الأحداث بمقدار أثرها فى تقدم الشعب أو تخلفه ، أو وقوفه . وفى استقامة حياته أو انحرافها والتوائها · وتزن الرجال بمقدار اعتصامهم بالشرف والخير ، وحرصهم على القيم الكريمة للحياة · وقيمة الأعمال التى أدوها ، أو شاركوا فيها لخير وطنهم أو كرامته أو مجده أو رفاهيته · فى أى ناحية من نواحى حياته ونشاطه · لا بمقدار سطوتهم أو نجاحهم أو شهرتهم ·

ونجد مصداق ذلك فى هذا الفصل الذى عقدناه لتراجم الزعماء والقادة فى هذه الأحداث · وأبرز مثل نسوقه لهذه المقاييس الجديدة . ما يراه القارىء فى هذه التراجم من حديث حجاج الخضرى ، والحاج مصطفى البشتيلى . وما يجده فيها من حديث السيد عمر مكرم .

وهذا هو الذى التزمناه أيضاً فى حديثنا عن العلماء فى الجزء الثانى من هذا الكتاب

زعماء وأبطال

الآن وقد انتهينا من ذكر مالقيه الفرنسيون من المقاومة والكفاح والثورات المتلاحقة ، وذكرنا قبل ذلك ، أمثلة ونماذج من كفاح الشعب فى سبيل العدل والكرامة ، ووثوبه مرة بعد مرة ، على الظالمين والمستبدين من حكامه وولاته . نذكر طرفا من سيرة الزعماء والأبطال الذين كان لهم أوفى نصيب من شرف هذه المقاومة والكفاح . وبعض ما كان لهم فى ذلك من أثر .

ونبدأ بذكر بطل شعبى ، يستحق منا ومن وطنه ، كل إشادة وتقدير .

حجاج الخضرى :

هذا رجل من عامة الشعب ، من أهل القاهرة ، الذين نسميهم « أولاد البلد » أصله من بلدة « المنوات » بالقرب من القاهرة . ولكنه — كما ترى من سيرته بعد — عاش حياته بطلا ، ولقى نهاية الأبطال .

وجدت اسم « حجاج الخضرى » يكثر ذكره فى تاريخ الأيام العصيبة من حياة أهل القاهرة ، فى الفترة التى سبقت اختيار محمد على واليا على مصر ، وهى حقبة امتلأت بالفتن والحروب والدسائس ، وكان شعب مصر فيها قد أثبت وجوده ، وحيويته ، حين كافح نابليون ورجاله كفاح الجبارين . وكان الشعب — فى سنة ١٢٢٠هـ (١٨٠٥م) — قد عزل الوالى الظالم المستبد أحمد باشا خورشيد . ولكنه رفض أن يذعن لإرادة الشعب ، وقال إنى توليت بأمر السلطان ، فلا أعزل بأمر « الفلاحين » . وكان أهل القاهرة كلهم يحملون سلاحهم ، وعصيهم ، يحاربون جند الدولة . ولا تخيفهم مدافع خورشيد باشا ، التى كان يرميهم بقنابلها من أعلى القلعة ، حيث كان يعتصم . وقد رأينا تفصيل ذلك فى مكان آخر .

وكان حجاج الخضرى شيخا لطائفة الخضرية بالقاهرة ، يقيم فى حى الرميلة « الرفاعى » فجمع من أهل هذه المنطقة عصابة قوية كانت تأتمر بأمره . وتخضع

لتوجيهات الزعيم السيد عمر مكرم . وأخـذ حجاج وعصابته يفتـكون بجند العثمانيين . ويدفعون عن أهل منطقتهم عدوان خورشيد ورجاله . وكان حجاج رجلا ضخم الجثة مشهوراً بالشجاعة والقوة . عرف يوما أن جند خورشيد خرجوا على فريق من المصريين كانوا خلف أحد المتاريس فى حى المظفر ، فتغلبوا عليهم ، فذهب لنجدتهم وقتل من الجند عدداً ، وشتت باقيهم . وكان حجاج ، إلى شجاعته ، كريم الخلق عظيم الهمة ، له صولة عظيمة بين مواطنيه ، ومحبة كبيرة فى قلوبهم

وأراد خورشيد، بالاتفاق مع على باشا السلحدار، أن يخدع رجال الثورة. فأرسل السلحدار رجلين من رجاله إلى السيد عمر مكرم يدعوه للصلح . وطلب إليه أن يأمر أهل القاهرة ، بالكف عن القتال حتى ينتهى الصلح ، وحتى يسير المفاوضون فى أمان . وجاء إلى السيد عمر — بعد الفجر — من يبلغه أنها خدعة ، وأن على باشا وخورشيد باشا سيطبقان على الثائرين ، فى وقت واحد ، عندما يأمرهم بترك القتال . فأرسل عمر مكرم إلى زعماء الثورة يحذرهم ، ويدعوهم إلى اليقظة ومداومة الحذر والترقب . وكان حجاج ورجاله يرقبون الجبل من ناحية القلعة . فرأوا رجالا كثيرين من الجند وغيرهم ، يقتربون ليصعدوا إليها . ومعهم قافلة من الجمال . فقطعوا عليهم طريقهم ، وحاربوهم حتى أخذوا منهم القافلة ، وكانت ستين جملا تحمل الذخيرة . وقتلوا بعض الجند ، وأسروا بعضهم . ثم أخذوا الأسرى ورؤوس القتلى إلى بيت السيد عمر مكرم .

— وقد اختار محمد على طائفة من جنده وضمهم إلى فرقة حجاج ، من المتطوعين ، وجعل حجاجا قائداً لهم . لما ظهر من شجاعته ويقظته ، وحسن تدبيره .

ولما جاء فرمان السلطان لإقامة محمد على والياً على مصر ، تحقيقاً لرغبة الشعب إذ ذاك . كان حجاج الخضرى على رأس المتطوعين من المصريين . وهم يلاقون سفير الدولة ، الذى يحمل أمر السلطان ، ويدخلون معه القاهرة دخول الفاتحين . وقنابل المدافع تتساقط عليهم من القلعة ، بأمر خورشيد أيضا . وبقى هذا الركب سائراً يتقدمه حجاج ، وبيده سيف مسلول ، وإلى جواره زعيم آخر كان شيخ الجزارين اسمه ابن شمعة ، حتى دخل السفير بيت محمد على بالأزبكية فتلا عليهم الفرمان.

وبقى بعد ذلك كثير من جند خورشيد باشا يحاربون . فلم يضع حجاج سيفه حتى أفنام أوشتتهم • ثم رأى من مستلزمات الحرب أن يقيم حائطا ، وبوابة على الرميلة فأقامهما • وقد ذكر على باشا مبارك فى خططه ، أن هذه البوابة بقيت تعرف باسم بوابة حجاج زمناً طويلا • وكان إلى جوارها قسم بوليس السيدة عائشة • فكان يسمى (قراقول بوابة حجاج) . وكانت تعرف أيضاً ببوابة الخلاء .

وبعد أن حقق شعب مصر لنفسه النصر على خورشيد • تضاءل اسم حجاج الخضرى ، ثم اختفى شخصه • لأنه لم يرض عن سياسة محمد على بعد ذلك • ولم يجد فيه الحاكم الذى اختاره الشعب وحارب هذه الحرب المنيفة ليوليه عرش مصر • ويقول بعض المؤرخين إن حجاجا انحاز إلى جانب الألفى ، كبير المماليك إذ ذاك ، وألد خصوم محمد على • فلما مات الألفى ، وأباد محمد على بقية المماليك فى مذبحة القلعة ، أراد حجاج أن يعود إلى القاهرة . فتحدث السيد عمر مكرم فى ذلك إلى محمد على . وأرسل له هذا إذنا بالعودة ، وأمانا . ولما عاد إلى القاهرة قابله وأكرمه ، وخلع عليه خلعة • ثم أمر فنودى فى القاهرة بأن حجاجا عاد إلى عمله ووجاهته ورياسته على طائفته . وصار يمشى فى المدينة ومعه جندى يلازمه • وكان هذا كله خداعا من محمد على واستدراجا لحجاج حتى يوقعه فى أحابيله • فإن محمدا عليا لم يرع عهده ، ولم يحفظ أمانه . بل أرسل المحتسب مصطفى كاشف فأخذ حجاجا وشنقه على السبيل الذى كان يجاور حارة المبيضة بالجمالية • وكان ذلك وقت السحور من ليلة اليوم السابع عشر من رمضان سنة ١٢٣٢ (أغسطس ١٨١٧) • وبقيت جثة هذا البطل معلقة إلى سحور الليلة التالية . ثم أذن محمد على فى رفعها ، فأخذها أهله ودفنوها . ولم يكن لهذا الغدر ، الذى أقدم عليه محمد على ، أى سبب إلا شفاء مافى نفسه من حقد على حجاج ، نصيره العظيم ، وليخيف به غيره •

وقد بذلت جهداً غير قليل لأجمع من سيرة حجاج وبطولته أكثر من هذا القدر المقتصد فلم أستطع • ولو أن تاريخنا كان يكتب بإحساس وطنى ، أو حتى بعاطفة من الإنصاف والتجرد ، لسطرت صحائف وكتب فى سيرة حجاج هذا . ونسجت من وحى سيرته الأشعار والأناشيد والقصص والمسرحيات .

ولو أن الوعى القومى كان مدركا ، حريصاً على أن يحتفظ ، فى ضمير الأمة ، بسير هؤلاء الأبطال . ماضاعت سيرهم وذكراهم وبطولاتهم . ولقنها الآباء للأبناء والأحفاد .

أبطال معركة رشيد

كانت معركة رشيد ، بين الإنجليز الغزاة ، وبين الأبطال من أهل هذه المدينة الباسلة ، وغيرهم من الوطنيين ، من المعارك التى يزكو بها الشرف المصرى . وقد رأينا تفصيل ذلك من قبل .

وكان أول أبطال هذه المعركة ، السيد حسن كريت . نقيب الأشراف فيها ، وكبير أعيانها • فهو الذى تولى الزعامة الشعبية فى تلك المحنة التى تعرضت لها رشيد. فترك لقائد حاميتها على بك السلانكلى — وكان رجلا شريف العاطفة مخلصا — قيادة الجند المنظم . وقاد هو جند الشعب ، من المتطوعين لحرب الإنجليز ، والمدافعين عن مدينتهم . وبادر فأرسل كتابا إلى السيد عمر مكرم فى القاهرة ، يستنجده • ويطلب إليه المبادرة بإرسال السلاح والمتطوعين . ولكنه — إلى أن جاءه العون من القاهرة — كافح بجنده من أهل رشيد ، ومن جاء لعونهم . كفاحا قويا ، مشرفا • وتدل على مبلغ مالقيه السيد حسن كريت وجنوده فى هذا الكفاح . الرسالة التى بعث بها ، مرة أخرى ، إلى السيد عمر مكرم ، والتى يقول فيها إن الإنجليز يحيطون برشيد من كل جانب . يضربون بيوتها بالقنابل ؛ وقد تهدم كثير منها وقتل من الناس كثير • ثم يقول : — « فالله الله فى الإسعاف • فقد ضاق الخناق • وبلغت القلوب الحناجر من توقع المكروه • وملازمة المرابطة . والسهر على المتاريس » . هذه الرسالة التى توشك أن تكون استغاثة ، تدل على مبلغ مالقى هذا المجاهد ومن معه ، من المحنة فى هذا الحصار الذى استمر اثنى عشر يوما . ثم انتصر بعد ذلك أهل رشيد • وأبيد الإنجليز ، أو أسروا جميعا .

وكان لشجاعة حسن كريت ، وصبره ، وإيمانه أثر كبير فى هذا الانتصار •

وكانت للسيد حسن كريت مواقف أخرى كريمة ، للدفاع عن كرامة أهل

الوطن ، وحقوقهم وحرماتهم ، بعد انتصاره على الإنجليز . ذلك أن الحكام الأتراك عادوا إلى رشيد ، والحماد ، وما جاورها فاستباحوا أهلها ، ونساءها ، وأموالها . وزعموا أنها صارت مفتوحة لهم بالحرب ، بعد هزيمة الإنجليز . وأرسل الناس يستفتون العلماء في القاهرة . ولكن الأتراك أحاطوا برشيد . وطالبوا أهلها بالضرائب الشاقة . ونهبوا ما فيها من الأرز . فبرز لهم السيد حسن كريت ، وأغلظ لهم القول وهددهم بأن يترك مع مواطنيه من أهل رشيد ، بلادهم لهؤلاء الظلمة . وقال إننا نحن الذين دافعنا عنها . وحاربنا الإنجليز ، لننصركم . ولقينا في سبيل ذلك من الشقاء والمحنة ما لقينا . ثم أرسل كتابا إلى محمد علي يشكو إليه ما يفعله رجاله بالناس . فأرسل محمد علي إليهم أن يكفوا .

وكان من أبطال معركة رشيد أيضا ، أخوان لم يحفظ لنا التاريخ من أمرهما شيئا كثيرا . ولكنه سجل لها ، في معركة رشيد هذه ، موقفا كريما . فقد بذلا ، من جهدهما ومالهما ، ما يشرف ذكرهما ، ويسجل اسميهما في عداد الأبطال من تاريخ هذا الوطن .

هذان الأخوان هما احمد وسلامة النجاري . كانا من تجار مكة ، يقيمان في القاهرة . فلما دعا الداعي ، ونفر الناس للحرب ، سافرا إلى رشيد . ومن حولهما مئة من البدو ، والمغاربة . وكانا ينفقان على هؤلاء المئة من الجنود . ويحرضانهم على القتال ويقدمان المونة لغيرهم من المدافعين . ويشتركان بنفسيهما في المعارك . وبعد هزيمة الإنجليز ، فرق هذان الأخوان ما غنما ، وما بقي معهما من مال ، ومن شيء ، على من خرج يلاحق الإنجليز ، وهم يهربون .

وبعد أن أبلى هذان الأخوان الكريمان هذا البلاء العظيم ، وبذلا هذا البذل النبيل ، عادا إلى القاهرة ، فلقيهما أهلها أكرم لقاء ، ولقيهما محمد علي فشكرهما أعظم الشكر .

* * *

السيد محمد كريم

كان السيد محمد كريِّم من غمار الشعب . نشأ «قبانيا» يزن البضائع فى حانوت صغير بالإسكندرية . وكان ذكيا ، خفيف الحركة ، لطيف المعشر . فظل يعمل ، ويتقدم . حتى اتصل بمراد بك . فاختاره حاكما للاسكندرية ، ومدير الجمرك بها ، وأصبح فيها السيد المطلق السلطان . وجاءت الحملة الإنجليزية الأولى لمطاردة نابليون ، سنة ١٧٨٩ وهو حاكم الإسكندرية . وقد رأينا ، عند الكلام عن هذه الحملة ، أنه منعها من النزول إلى الميناء . ولم يأذن لها بشراء ماتحتاجه من الزاد والماء . وقال لرجال نلسون : « إن مصر بلاد السلطان ، وليس للفرنسيين أو غيرهم شىء فيها . فاذهبوا أنتم عنا . ثم قال : — إذا جاء الفرنسيون ، فنحن كفء لحربهم وصدهم عن بلادنا[1] » .

ثم جاءت بعد ذلك بعشرة أيام حملة نابليون ، فأرسل إلى مراد بك رسالة يستنجده فيها قائلا «إن العمارة التى حضرت — يقصد أسطول نابليون — مراكب عديدة مالها أول يعرف ، ولا آخر يوصف . لله ورسوله . أدركونا بالرجال » .

ولم يرسل مراد ما طلب إليه السيد كريم ، فوقف مع أهل الإسكندرية العزل ذلك الموقف المشرف الذى أسلفنا ذكره . وكان نابليون يراسله فى أمر التسليم . فلم يجد من ذلك بدا . وذهب بعد تفكير ، حيث سلم نفسه إليه .

وقد لقى نابليون السيد محمد كريم لقاء كريما ، وقال له : إنى أخذتك وأنت تحمل سلاحك فى وجهى ، ولى أن أجعلك أسيرا ، ولكنك أبديت من الشجاعة مايحملنى على احترامك وتقديرك ، لذلك أعيد إليك سلاحك . وأبقيك حاكما على الإسكندرية كما كنت ، وأرجو أن تبدى من الإخلاص للجمهورية الفرنسية ، مثلما أبديت لحكومة المماليك الفاسدة الظالمة .

وقد سجل أحد رجال نابليون ، وهو فيفيان دينون ، هذا اللقاء بين القائد والمجاهد ، فقال : « لقد لاحظت على ملامح هذا الرجل ، السيد كريم ، الذكاء والدهاء . وكأنما كان يكتم عواطفه عنا » وقد ظهر فيما بعد ،

---

(١) ص ٩٤ من كتاب « تاريخ مصر من الفتح العثمانى » للأستاذين عمر السكندرى ، وسليم حسن ، ومراجعة الميجر ا . ج . سفدج .

أن كريما عندما استسلم للقوة ، وقبل أن يعمل تحت سيادة نابليون ، قد اعتزم في نفسه أمراً .

ظهر ذلك في تلك المقاومة السرية التي لقيتها جنود نابليون في الإسكندرية والبحيرة . وفي تنظيم هذه المقاومة ، وإحكام تدبيرها وما عرف بعد ذلك من اتصال المجاهدين بالسيد كريم . وزاد على ذلك أن كليبر فرض على أهل الإسكندرية « سلفة » مالية ، قدرها مائة وخمسون ألف فرنك ، (ستة آلاف جنيه) فعارض كريم فيها ، وتباطأ في الموافقة عليها ، ثم تراخى في جمعها ، وكانت هذه الآلاف الستة من الجنيهات ضريبة ثقيلة على أهل الإسكندرية ، إذ كان سكانها كما أحصاهم الفرنسيون ، ثمانية آلاف .

وبدأت الشكوك تساور كليبر نحو السيد كريم ، فألقى القبض عليه يوم ٢٠ يوليو سنة ١٧٩٨ ثم نقله إلى إحدى سفن الأسطول في أبي قير ، ليضعف من قوة المقاومة التي كان يذكيها وجوده في الإسكندرية ، ومع ذلك فقد عامله القواد جميعا بالاحترام والتقدير ، وأباحوا أن تؤدى له التحية العسكرية .

ولما أبلغت إلى نابليون ، في القاهرة ، أنباء هذه المقاومة ، التي كان بطلها السيد محمد كريم ، كتب يقول عن كريم ، إنه قد تحقق من خيانته ، من مراسلات له وجدت في قصر مراد بك ، ثم أمر بأن يكبل بالحديد وأن يسجن أتباعه وحاشيته ، وأن يعتقل كل من بقي في بيته ، وأن يختم على داره وأمواله. وفرض عليه ضريبة مقدارها ثلاثمائة ألف فرنك .

وقد كان لإبعاد السيد كريم أثره في مقاومة أهل الإسكندرية ، وكتب كليبر إلى نابليون يقول ، إن السكينة تسود الإسكندرية ، بعد اعتقال السيد محمد كريم .

ونقل السيد محمد كريم إلى رشيد ، ولكن الحماسة التي أثارها قدومه بين أهلها جعلت القائد يبادر بإرساله إلى القاهرة ، فبلغها يوم ١٢ من أغسطس ، وأرسل إلى السجن رهن التحقيق . وتولى الجنرال ديبوى ، حاكم القاهرة ،

محاكمته على تلك الرسائل التى دعا فيها مرادا للحضور إلى الإسكندرية ، وتمهيده بأن يسلمها إليه ، وتهوينه من شأن الفرنسيين وتشجيعه على حربهم ، ثم على رسائل أخرى أرسلها إلى عرب البحيرة ، يحرضهم فيها على المقاومة .

واعترف السيد البطل بكل ذلك ، فحكم عليه نابليون بالإعدام رميا بالرصاص ، ومصادرة أملاكه ، وأمواله ، ثم سمح له بأن يفتدى نفسه بثلاثين ألف ريال ، يدفعها فى يوم وليلة .

وتلقى البطل حكم الإعدام بشجاعة نادرة ، ورفض أن يفتدى نفسه ، وقد قال له فانتور ، كبير تراجمة الحملة الفرنسية : — « إنك رجل غنى ، فلماذا لا تفتدى نفسك بهذا المال ؟ » فأجابه : إذا كان مقدرا على أن أموت ، فلن يعصمنى من الموت أن أدفعه ، وإذا كان مقدرا لى الحياة ، فعلامَ أدفعه ..؟ » وظل على عناده حتى أعدم بالرصاص فى ميدان الرميلة « الرفاعى الآن » يوم ٦ سبتمبر سنة ١٧٩٨ [1] » .

وعندما فتحت خزانته ، وبيوته ، وجد فقيرا ، لا يملك شيئا .

وقد ذكر نقولا الترك أن علماء القاهرة وأعيانها تشفعوا فيه ، وعرضوا أن يفتدوه بخمسين كيسا (مايقرب من ألفين وخمسمائة جنيه) فلم يقبل نابليون ، ثم قال : إنه والجند تسير به إلى ساحة الإعدام ، كان ينادى فى الناس ، محرضاً لهم ، ومشجعا « يا أمة محمد : — اليوم بى ، وغدا بكم » . «وحين قتل كان حزن عظيم عند المصريين ، وزاد نفورهم وحقدهم ، على الفرنسيين » .

أما الجبرتى ، فيصف مقتله بقوله : إن الفرنسيين « أركبوه حمارا ، واحتاط به عدة من العسكر ، بأيديهم السيوف المسلولة ، ويتقدمهم طبل يضربون عليه ، ويشقون به الصليبة إلى أن ذهبوا به إلى الرميلة وكتفوه ، وربطوه ، وضربوا عليه

---

(١) يحدد الجبرتى فى مظهر التقديس تاريخ قتله بيوم ١٥ من ربيع الأول سنة ١٢١٣ وهو يسبق هذا التاريخ بنحو أسبوع .

بالبنادق كعادتهم في من يقتلونهم ، ثم قطعوا رأسه ورفعوها على نبّوت ، وطافوا بها بجهات الرميلة ، والمنادى يقول : هذا جزاء من يخالف الفرنسيس .

ثم إن أتباعه أخذوا رأسه ودفنوها مع جثته» .

وهكذا كانت نهاية بطل الإسكندرية ، السيد محمد كريم .

الشيخ حسن طوبار

كان الشيخ حسن طوبار ، زعيما على إقليم المنزلة ، وشيخا لبلدتها . وهو أقليم لقى الفرنسيون فيه مقاومة من أشد وأعنف ما لقوا فى مصر ، كما رأينا من قبل . وكان محور هذه المقاومة ، ومدبرها ، هو حسن طوبار .

وكان طوبار واسع الثروة ، واسع الجاه والنفوذ . محبوبا غاية الحب من سكان هذه المنطقة . وهم يشتغلون بالصيد فى البحيرة . وكان لهم أسطول يزيد على ستمائة مركب . وبعض المصادر الفرنسية يقدره بألف . ويزيد نقولا الترك هذا العدد فيجعله «ينوف على خمسة آلاف» وهذا الأسطول كله ، ومن فيه من الرجال الأقوياء ، كان فى طاعة حسن طوبار ، وفى خدمة أغراضه الوطنية لحرب الفرنسيين .

وزاد فى مكانة الشيخ حسن طوبار تلك الثروة الطائلة التى كان يمتلكها . وكانت تقدر بملايين الفرنكات . ومناطق واسعة من الأراضى الزراعية ، ومصانع لنسج القطن ، ومصانع أخرى ، ومتاجر . وكان إلى ذلك ينتسب إلى أسرة عريقة . تداول أفرادها مشيخة المنزلة مئات السنين ، ولهم عصبية وافرة ونفوذ قوى . ويذكر الجنرال لوجييه : أنهم فى جميع الجهات التى مروا بها ، من المنصورة إلى المنزلة ، لم يسمعوا من الأهالى سوى الثناء على طوبار . وعندما عين الجنرال فيال حاكما على دمياط ، أرسل إلى حسن طوبار ، فأهدى إليه سيفا مذهبا ، وأبقاه فى منصبه . ولكنه لم يرتض الجاه والنعيم والثروة ، فى ظل العبودية ، فبدأ ينظم المقاومة التى أقلقت راحة نابليون وقواده . وكان يذهب بنفسه إلى البلاد والقرى ، يحرض

أهلها على الحرب ، ويطمئن على وسائلها لديهم · وجهز من أمواله الخاصة الأسطول البحرى من القوارب التى حاربت الفرنسيين فى البحيرة ، وهاجمتهم فى دمياط ، وأوشكت أن تخرجهم منها ·

وكان الفرنسيون يرغبون أشد الرغبة فى أسر هذا الزعيم ، ولكنهم لم يستطيعوا · لمكانته عندقومه ، وشدة حرصه · فأرادوا أن يستميلوه إليهم · وأرسل إليه الجنرال فيال ليلتقى به . فرفض · وقال : إن إحراق الفرنسيين لبلدة الجمالية أساء إلى شخصه · · لأن هذه البلدة ، وجميع بلاد المنطقة ، تعتبر نفسها فى حمايته · وأنه لايستطيع ، وقد فعل الفرنسيون بالناس مافعلوا ، أن يجتمع بقائدهم . وأرسل نابليون إليه بعض الهدايا من القاهرة ، فأبى قبولها · وكان امتناعه عن ملاقاة الجنرال فيال ، حذرا منه وحيطة · وأرسل له الجنرال داماس أيضا ليجتمع به . فرفض · وأظهر استعداده لأن يدفع الضرائب للفرنسيين . ولكنه كان بذلك يخدع داماس · ويستر ما كان يدبره سرا ، من تجهيز حملة بحرية للهجوم على دمياط ·

وبعث إليه الجنرال دوجا يدعوه للصلح · وكأنه فى هذه المرة لم يكن محتاجا للمخادعة · فأجابه بأنه لايريد أن يرى أحدا من الفرنسيين ·

ووجد نابليون أنه لابد من إخضاع هذا الزعيم بالحرب · وانه لن يكون له سلطان على بلاد هذه المنطقة · ولن تنتهى مقاومة أهلها وثوراتهم على جنوده إلا بالقضاء عليه · فأمر بتجريد حملتين كبيرتين إحداها بحرية ، بقيادة الجنرال أندريوس ، والأخرى برية بقيادة داماس ، وجعل الجنرال دوجا قائدا عاما لها .

واستطاعت هذه الحملة القوية أن تخضع الزعيم الثائر · وأن تدخل المنزلة · فى ١٦ أكتوبر سنة ١٧٩٨ · ولما رأى الفرنسيون منازل حسن طوبار ، راعهم جمالها ، واتساعها . ولكنها كانت خالية من سكانها ، فقد استطاع طوبار أن يفر إلى الشام · وكذلك كانت المدينة خالية ، إلا من النساء ، والصبيان ، والعجزة ·

وأراد القائد الفرنسى أن يدخل بيوت حسن طوبار ، ولكنه لاحظ المكانة

الممتازة ، التي يحفظها الناس له ولبيوته . فتركها ، واتخذ قيادته في مكان آخر . خشية أن يغضبوا لحرمة زعيمهم ومنازله .

هاجر حسن طوبار إلى غزة ، وبدأ ينظم فيها أمر المقاومة من جديد . وعلم الفرنسيون في مصر أنه جهز فريقا من المجاهدين ، وأعد خمسين سفينة لحملهم منها إلى دمياط ، ليهاجموهم فيها . فأخذوا لذلك أهبتهم . ولكن هذه الحملة لم تتم ، لاستحالة نجاحها . وعاد بعد ذلك حسن طوبار إلى مصر بإذن من نابليون . ولعله أذن له ليأمن هجومه على دمياط أو غيرها ، وتحريضه أهل بلاده على تجديد الثورة . ولم يأذن نابليون لهذا الزعيم في أن يدخل مصر ، إلا بشرط أن يبقى ابنه رهينة عنده في القاهرة ، وأن يقيم هو في دمياط .

وعاش طوبار في دمياط فترة قصيرة ، وكان الجنرال كليبر ، بعد أن تولى القيادة العامة ، يوصي قائده فيها بأن يحذره ، ويتشدد في مراقبته . ومات في ٢٩ من يونيو سنة ١٨٠٠ .

وقد شهد له نقولا الترك ، هذه الشهادة المشرفة حيث يقول : — « تشاهر هذا الشيخ المذكور ، في خبث النية ، ضد الفرنساوية [١] »

ومما يدل على المنزلة الرفيعة التي كان يتمتع بها طوبار في نفوس الناس ، ويدل في الوقت نفسه على شجاعتهم ووطنيتهم ، أن الفرنسيين عند ما تغلبوا على مقاومته ، وجاء وفد من رجاله يطلب الصلح . تحدث الفرنسيون إليهم في أمر زعيمهم فأثنوا عليه أعظم الثناء .

---

(١) ص ٥٥ من « ذكر تملك جمهور الفرنساوية »

محمد المهدى أو الأمير محمد

يسميه المؤرخون محمد المهدى . ويذكره الجبرتى تارةبهذا الإسم ، وتارة بلقب « الـكيلانى » كما يلقبه نقولا (بالجيلانى) والأسماء الثلاثة لشخص واحد . ولقب «الـكيلانى» أو « الجيلانى » من الألقاب الشائعة فى بلاد المغرب حيث قدم محمد المهدى .

كان هذا المجاهد من مدينة « درنة » فى طرابلس الغرب . عرف بالصلاح والتقوى ، حتى اعتقده كثير من الناس وتبعوه . وامتاز بفصاحة اللسان ، والجرأة والغيرة الدينية . فلما وصلت أنباء الغزو الفرنسى لمصر إلى بلاد المغرب ؟ خرج محمد المهدى قاصدا إليها لينصر أهلها ، ويحارب معهم الفرنسيين . فلما وصل إلى واحة سيوة . التقى فيها بقافلة من الحجاج المغاربة ، فاستولى على قلوبهم بفصاحته ، وقوة شخصيته ، حتى تبعوه ، وجعل منهم جيشه الذى نزل به إلى دمنهور ، وحارب فيها الفرنسيين ، فأبادهم أول الأمر . وكانت هذه القافلة أربعمائة من الرجال الأشداء .

وقد زعم الفرنسيون ، ووافقهم الجبرتى ، أن المهدى قتل فى حربه مع الجنرال لانوس . ولـكن أحد رجال الحملة الإنجليزية التى قدمت مصر بعد ذلك بالاشتراك مع العثمانيين ، لحرب الفرنسيين . وهو الـكولونيل « روبرت توماس ولسون » يقول إنه لم يقتل ، وأنه اجتمع بالحملة الإنجليزية عند الرحمانية وسار معها حتى بلغ القاهرة[1] ووصف الـكولونيل ولسون هذا المجاهد بأنه لم يكن شخصا عاديا ، بل كان أميرا من أمراء المغرب ، إسمه مولاى محمد . وأنه اجتمع به فوجده رجلا مهيب الطلعة ، نبيل النفس ، أنيق الثياب . وكان يركب جوادا عربيا من أجمل الجياد ، ويضع على رأسه عمامة ناصعة البياض ، ويلبس عباءة فى نصاعة بياضها أيضاً . موشاة بالذهب . تتدلى منها على كتفيه عقود من الحرير الأحمر .

ويؤيد رواية هذا الـكولونيل ، فى أن المهدى لم يقتله الفرنسيون ، ماذكره

(١) ص ٣٥٦ — ٣٥٧ فتح مصر الحديث .

الجبرتى بعد ذلك فى تسجيله لثورة القاهرة الثانية من أنه اشترك فيها . ويؤيد الرواية فى شقها الثانى ، وهو مكانة الرجل وامتيازه . ماذكره نقولا عند حديثه عن ثورة البحيرة حيث وصف زعيمها هذا بأنه من «الأشراف» . أما ما ذكره الجبرتى أولا من قتل المهدى . فلعله سمعه عن الفرنسيين .

وقد ذكرنا بلاء هذا المجاهد ، فى حديثنا عن ثورة مديرية البحيرة .

الشيخ السادات

كان الشيخ السادات ، من أكبر الشيوخ مقاما ، وأعظمهم شأنا ، وأوسعهم جاها وثروة ، وأعزهم منزلة لدى الناس ، ولدى الأمراء على السواء . ولكنه ، مع اختيار نابليون له عضوا فى الديوان ، وزيارته له فى بيته ، كان من أكبر خصوم الفرنسيين ، والمحرضين على الثورة عليهم .

فمند ما قامت ثورة القاهرة الأولى تبين أن زعيمها الأول هو الشيخ السادات . وثبت لديهم ذلك حتى أمر الجنرال كليبر بإعدامه ، ولكن نابليون ردّه عن ذلك مع يقينه من زعامته للثورة ، وقال : إن قتل شيخ فى مكانة السادات يضر أبلغ الضرر بمركز الفرنسيين ، ويزيد فى حقد المصريين وكراهتهم له .

ثم قامت ثورة القاهرة الثانية على الجنرال كليبر . وكان السادات من المحرضين عليها . فجاءت فرصة كليبر لشفاء مافى نفسه من السادات . وكان يذكر نصيحة نابليون فلم يقتله . ولكنه أوقع به من العذاب والمهانة شيئا كثيرا . حيث فرض عليه ضريبة فادحة ، قدرها مائة وخمسون ألف فرنك . فلما رفض أن يدفعها أمر بسجنه فى القلعة . وكان ينام على التراب ، ويمشون به على قدميه فى شوارع القاهرة ، ويضرب فى صباح كل يوم خمس عشرة عصى ، ومثلها فى كل مساء . وحبسوا أتباعه وخدمه . وطلبوا زوجه وابنه فلم يجدوهما . فعذبوا خادما له عذابا شديدا حتى دل على مكانهما ، فسجنوهما . ووضعوا معه زوجته فى سجن واحد ، فكانوا يضربونه أمامها ، وهى تبكى . وهاجموا داره ، ففتشوها ، ونهبوا ما كان فيها من مال ومتاع وحفروا أرضها للبحث عما فيها من سلاح ومال . وجعلوا على بيته عشرين حارسا .

وعند ما أعادوا تشكيل الديوان أخرجوه منه .

وبعد أن أزلوه من القلعة عادوا فسجنوه فيها مرة أخرى خمسين يوما ، ثم أخرجوه بعد أن أتم دفع مافرضوا عليه ، ولكنهم عادوا فصادروا جميع ممتلكاته ، وإقطاعياته — وكانت شيئا كثيرا — وحبسوا مرتباته وأوقافه هو وزوجاته ، وريع الأوقاف التى كانت محبوسة على زاوية أجداده . وشرطوا عليه ألا يجتمع بالناس ، وألا يخرج إلا بإذنهم ، وأن يقتصد فى نفقاته ، وينقص أتباعه .

وعند ماقدمت الحملة التركية الإنجليزية لحرب الفرنسيين سنة ١٨٠١ وعلم الجنرال منو أنها نزلت فى أبى قير ، أمر للمرة الرابعة بالقبض على الشيخ السادات ، حتى لايثير المصريين عليهم . وسجن فى القلعة . وبقى سجينا فيها حتى بارح الفرنسيون مصر .

وقد مات ابنه وهو فى السجن ، فلم يخرجوه ليراه . بل أذنوا له بالسير فى جنازته تحت الحراسة ، ثم عادوا به إلى السجن .

وعند ما أضرت الحرب والحصار بالثائرين فى القاهرة ، التزم السادات بالإنفاق على المحاربين والمجاهدين فى المنطقة التى كان يقيم فيها . عند قناطر السباع .

ومات الشيخ السادات بعد ذلك فى مارس سنة ١٨١٣ فى عهد محمد على . ونجد له ترجمة وافية ، فى الجزء الثانى من الكتاب .

شهداء من العلماء

كانت قيادة ثورة القاهرة الأولى ، كما ذكر من قبل ، مقرها الأزهر ، وكان علماء الأزهر وطلبته هم المحرضون عليها ، والمقدمون فيها . فلما انتهت الثورة قتل الفرنسيون ستة منهم رميا بالرصاص . وهم الشيوخ سليمان الجوسقى ، وأحمد الشرقاوى ، وعبد الوهاب الشبراوى ، ويوسف المصيلحى ، وإسماعيل البراوى ، والشيخ عبد الكريم .

أما الشيخ سليمان الجوسقى ، فقد كان من قرية جوسق ، بالشرقية ، بالقرب من بلبيس . اختير شيخا لطائفة العميان وزاويتهم التى كانت تجاور الأزهر . وكان

الجوسقى شديد الصرامة على أهل طائفته ، حتى جمع ثروة طائلة ، وحاز عقارات عظيمة ، وكان إذا طالب أعيان البلاد بمال له عندهم فماطلوه ، بعث إليهم بجيوش من العميان ، فلا يجدون بدّا من الدفع . وكانت تسير إليه السفن المشحونة بالغلال ، والسمن ، والعسل ، والسكر ، والزيت ، من الصعيد إلى القاهرة . فيطحن الغلال على طواحينه ويبيعه دقيقا . ويعجن نخالته خبزا لفقراء العميان . ويبيع ما بقى من السمن والعسل وغيره بالثمن الكثير . وصار الشيخ فى آخر حياته من أعيان الناس وصدورهم ، وأصحاب السطوة فيهم . يلبس الثياب الحسنة المالية ، ويتزوج الكثير من الجميلات . ويقتنى الكثير من الجوارى البيض والسود . ويقرض كبار الناس الأموال الجزيلة .

(وعند ما ثار القاهريون على نابليون ، كان الشيخ الجوسقى من أكبر المحرضين وأبرزهم أثرا . وأعتقد أنه هو الذى أشار نقولا الترك إلى أنه كان يدعو الناس للاجتماع فى الأزهر غداة الثورة ، ويحرضهم علناً على الكفاح والحرب).

وأما الشيخ أحمد الشرقاوى فكان يدرس لطلبة الأزهر طول يومه ، وكان الفلاحون يجيئون إليه ليفصل فى قضاياهم ، وخصوماتهم ، فيقبلون حكمه ، وربما ضرب غير المستقيم منهم وزجره . فكانوا يقبلون منه ذلك ، ويطيعونه . وكان أبوه الشيخ إبراهيم ، يدرس فى الأزهر أيضا .

وكان الشيخ عبد الوهاب الشبراوى تلميذا لكبار العلماء فى عصره . ثم اشتغل بالتدريس فى المشهد الحسينى ، والجوهرية ، وأقبل عليه كثير من العامة يسمعون منه الحديث وفقه الشافعية . وكان حسن الإلقاء ، جيد الحافظة ، جميل السيرة ، قليل الخلطة بالناس .

وكان الشيخ يوسف المصيلحى يلقى دروسه فى جامع الكردى ، بسويقة اللالا ، وكان نجيبا مهذب النفس ، لطيف الذات ، مقبول الطلعة ، خفيف الروح ، حلو الحديث . قتل وهو فى سن الشباب .

وكان الشيخ إسماعيل البراوى متوسط الحال فى العلم ، ولـكنه كان لسِناً ، ذكيا . وكان أبوه عالما ، وعمه من كبار العلماء .

أما أخيرهم ، الشيخ عبد الـكريم . فلانستطيع أن نعرف عنه شيئا .

أخـذ الفرنسيون هؤلاء العلماء الستة ، فسجنوهم فى القلعة ، وفى بيت البـكرى ، بتهمـة الاشتراك فى الثورة ، والتحريض عليها . ثم أنزلوهم خلسة ، فخلعوا عنهم ثيابهم كلها ، وقتلوهم . ثم قطعوا رؤوسهم ، وألقوا جثثهم فى النيل ، وخفى أمرهم على الناس وقتاً ما . قبل أن يعرفوا استشهادهم .

ولم يكن هؤلاء العلماء وحدهم هم الذين قتلهم الفرنسيون غدرا وغيلة وظلما ، بل قتلوا غيرهم عشرات ومئات . منهم المصرى ، والتركى ، والشامى ، والمغربى ، ومنهم الحاكم ومنهم الصعلوك . ولـكنهم جميعا ماتوا أبطالا وشهداء .

الحاج مصطفى البشتيلى:

وكان من هؤلاء الذين قتلهم الفرنسيون ، الحاج مصطفى البشتيلى . من قرية « بشتيل » المجاورة لإمبابة ، بالقرب من القاهرة . اشتغل بالتجارة فى بولاق ، حتى أصبح من أعيانها ، وكبار تجار الزيت فيها . فلما قامت ثورة القاهرة الثانية ، كان البشتيلى من رجالها . فجعل وكالته مخزنا للبارود يمدّ به الثائرين . وحفظه فى قدور الزيت ، حتى لا يكشف الفرنسيون أمره . ولـكن بعض الخونة وشى به عندهم ، فهاجموا وكالته ، ووجدوا قدور الزيت مملوءة بالبارود ، فأخـذوه ، واعتقلوا البشتيلى وحبسوه ، ثم أطلقوا سراحه بعد انتهاء الثورة ، فلما نقض صلح العريش ، وتجددت الحرب فى القاهرة ، عاد البشتيلى للاشتراك فيها . وكان من أكبر المحرضين عليها . كان يتمنطق فى وسطه بحزام ، وينتقل من مكان إلى آخر ، يقوّى عزائم المحاربين ويجمعهم ويوجههم للحرب ، ويجمع لهم ما يستطيع من سلاح ، وعصى . وكان من أكبر الدعاة للثورة والمحرضين عليها والعاملين فيها . هجم على مخازن الغلال التى خزنها الفرنسيون ففتحها وفرق ما فيها على المقاتلين .

وحرض على قتل الرسول الذى بعث به الفرنسيون للصلح . وقاد الثورة التى فتكت بالحامية الفرنسية فى بولاق .

ولما عرض كليبر الصلح على أهل القاهرة ، كان من أكبر المعارضين فيه ، والداعين إلى مواصلة الكفاح والحرب . مهما لقى المجاهدون من بلاء وقتل وتنكيل .

فلما انتهت الثورة ، جد الفرنسيون فى البحث عنه ، حتى وجدوه . فأخذوه هو ووكيله ، وسجنوه فى القلعة وحده . ثم أخرجوه بعد ثلاثة أيام ليقتلوه. وكانت القتلة التى اختارها الفرنسيون لهذا المجاهد ، قتلة فاجرة . حيث جمعوا من بقى من رجاله الذين كان يحرضهم على الكفاح وسلموه إليهم تحت حراسة جنودهم . وأمروا هؤلاء المجاهدين بأن يقتلوا زعيمهم بأيديهم . على أن يطوفوا به ، قبل أن يقتلوه ، أنحاء القاهرة . وقتل المجاهدون زعيمهم البشتيلى ، بالنبابيت . خضوعا لقوة الفرنسيين وجبروتهم .

ووقع فى يد كليبر كتاب أرسله الحاج مصطفى البشتيلى إلى بعض رؤساء الجند ، يقول فيه : إن « الكلب » دعانا إلى الصلح فأبينا . وكان يقصد بالكلب « الجنرال كليبر » . ولعل ذلك كان من أسباب هذه القسوة الفاجرة فى قتله .

وقد كان البشتيلى فى غنية عن خصومة الفرنسيين ، كان فقد غنيا واسع الثراء . فلما قتلوه لم يكن له وارث . وكان عديله الشيخ الدواخلى صديقا لهم قريبا منهم . فاستولى ، بجاهه عندهم ، على ثروة هذا المجاهد العظيم .

عمر مكرم والمحروقى :

ويبدو غريبا أن نترجم للزعماء والأبطال فى هذه الفترة من تاريخ مصر . ونصف السيد عمر مكرم بأنه زعيم مصر فيها . ثم لانجد له مكانا فى صدر هؤلاء الزعماء والأبطال . وكذلك لانجد هذا المكان للسيد أحمد المحروقى ، وكان من أعظم الناس شأنا فى ذلك الوقت .

ولـكني التزمت فى هذه الفصول أن أقدم أبرز من كان لهم أكبر الجهد فى الـكفاح · ومن واجهوا ، بسبب كفاحهم هذا ، الموت ، والسجن ، والمصادرة ، والعذاب · ولو كانوا من عامة الشعب ، كحجاج الخضرى · ولم ألتزم ما اصطلح عليه الناس والمؤرخون من تقديم أصحاب المـكانة الاجتماعية والسيادة . وذلك فى اعتقادى ، أزكى لذكراهم ، وأقرب لما أريد من تعريف الشعب بماضى كفاحه ، وأصحاب الأثر البارز فى هذا الـكفاح ·

هذا مع اعترافى بما كان للزعيم مكرم ، والسيد المحروق ، من جليل الأثر فى ذلك . وتسليمى بأن انحياز واحد منهما للثورة ، أو لخصومها ، أو وقوفه موقفا سلبيا ، كان مما يرجح ، إلى حد كبير ، إحدى الـكفتين· وقد انحاز كلاهما إلى جانب الثورة ·

أما السيد عمر مكرم ، فقد دعا الناس منذ اليوم الأول لمقاومة نابليون · وصعد إلى القلعة ، قبل موقعة الأهرام ، فأنزل منها البيرق النبوى ؛ وطاف به من القلعة إلى بولاق ، وألوف الناس من خلفه . يستحثهم بذلك على صد المغيرين وحربهم · ويستنفرهم للدفاع عن وطنهم . وكان لهذا العمل منه ، وهو نقيب الأشراف ، أثر أىّ أثر .

فلما هُزم المماليك ، والمصريون . ودخل نابليون القاهرة ، هاجر عمر مكرم إلى الشام . وترك فى مصر أملاكه ، وأمواله الطائلة · ولم يقبل عضوية الديوان التى اختاره نابليون لها ·

وبقى فى منفاه الاختيارى ثمانية أشهر فى مدينة يافا ، حتى فتحها نابليون فقربه إليه ، وأكرم لقياه وأعاده إلى مصر عزيزا كريما . فبقى فى القاهرة بعيدا عن الفرنسيين وعن الحياة العامة ، حتى قامت ثورتها الثانية ، فـكان من زعمائها · وكان يطوف بالثائرين فى أماكنهم يثبّتهم ، ويشجعهم · ويدعو غيرهم للـكفاح والثورة .

ولما انتهت الثورة ، هاجر مرة ثانية ، وخرج من القاهرة مع الجيش العثمانى . ثم عاد إليها مع هذا الجيش ، بعد خروج الفرنسيين ، فتلقاه الشعب بترحيب عظيم . وقد صادر الفرنسيون أموال السيد عمر مكرم ، فى كل مرة هاجر فيها . ولما عاد فى المرة الأولى ، تركوا له بعض ماله ليعيش منه . ولم يطالبهم هو بما بقى .

وكانت للسيد عمر مكرم مواقف كريمة فى مجابهة الظالمين من المماليك ، والعثمانيين. كما كان زعيما موجها للشعب — على طريقته وطبيعة نفسه من الهدوء ، والقصد فى العنف — كان زعيما فى الثورة التى ثارها الشعب على المماليك بعد خروج الحملة الفرنسية بثلاث سنوات . كما كان له أكبر نصيب فى اختيار صديقه محمد على وتمكينه من حكم مصر . وهو الذى ألبسه ، مع الشيخ عبد الله الشرقاوى ، خلعة الولاية ، باسم الشعب ، فى بيت القاضى سنة ١٨٠٥ . ولكنه كان كثير المعارضة لمحمد على ، بسبب مظالمه . ولما كثر سخط الناس على هذه المظالم . وشكا العلماء ، والسيد مكرم ، ذلك إليه . أرسل محمد على إليهم ليقابلوه . فامتنع السيد عمر . وظل يرفض الذهاب إليه ستة أسابيع . وأراد هذا أن يغريه بالمال . فوعده بأن يرتب له فى كل يوم كيسا ، أى أربعين جنيها ، ولكنه رفض . وأبى أن يذهب حتى يرجع محمد على عما فرض على الشعب من الضرائب الظالمة ، فأرسل إليه محمد على رسالة خاصة لمقابلته فأجابه عمر مكرم بأنه على استعداد لأن يقابله فى بيت الشيخ السادات . فذهب محمد على إلى بيت ابنه إبراهيم . وطلب العلماء فحضروا إليه ، ولم يحضر السيد عمر .

وانتهى الأمر إلى الخصومة بينهما ، حتى خلعه محمد على من نقابة الأشراف ، وأمر بنفيه إلى دمياط فى أغسطس سنة ١٨٠٩ فحزن الناس لذلك حزنا شديدا ، وخرجوا لوداعه حين سافر من بولاق ، لأنه لق ما لق فى سبيل الدفاع عنهم . وبقى السيد عمر منفيا فى دمياط نحو ثلاث سنين ، ثم أمر محمد على بنقله إلى طنطا. فبقى فيها أربع سنين . وكان فى منفاه منعزلا عن الناس ، كثير القلق والشكوى

مما يفعل محمد على بأهل وطنه · يتألم لأنه كان سببا فى تمكينه من الولاية . فلما كانت سنة ١٨١٨ أرسل السيد عمر رسالة مع حفيده السيد صالح يهنىء فيها محمدا عليا بالنصر الذى أحرزه فى حروب الحجاز . فلقى محمد على الحفيد والرسالة أكرم لقاء . وذكر صديقه القديم بالإكبار والثناء وقال : إنه أبى ، ولم أتركه فى هذه الغربة الطويلة الشاقة إلا مخافة الفتنة · لأنه كان يحرك الشعب ضدى وهو مسموع الكلمة عنده · وأرسل محمد على إليه كتابا رقيقا فى منفاه ، يحييه ، ويأذن له فى أداء فريضة الحج ، كما طلب ·

ثم أطلق سراح الزعيم مكرم ، فعاد إلى القاهرة شيخا فانيا فى يناير سنة ١٨١٩ ، ففرح الناس بقدومه أشد الفرح · واحتفوا به أكبر احتفاء ·

ونجد فى مواطن أخرى من الكتاب ، بعض مواقف هذا الزعيم ، وخاصة فى حرب خورشيد باشا .

وأما السيد أحمد المحروقى فكان تاجرا كبيرا ، بل كبير تجار القاهرة ، وأوسعهم ثراء وأكثرهم مالا . وكان حريصا على مكانته هذه وثروته · لذلك حرص على أن تكون قريبا قوى الصلة بأصحاب السلطان ، حتى الفرنسيين ، فقد اتصل بنابليون ، وصحبه حين سافر إلى السويس قبل غزوه الشام .

ولكنا نسجل له موقفه من مساعدة الثورة التى قام بها أهل القاهرة على كليبر · فقد بذل فى ذلك مالا كثيرا ، وكان ينفق على المحاربين ، ويطعمهم ، ويشترى لوازمهم كلها ، وأدوات حربهم · وحبسه الفرنسيون فى القلعة مع العلماء ، وظل فى محبسه مائة يوم . ولما انتهت الثورة هاجر مع العثمانيين ، فصادر الفرنسيون جميع ما يملك · ولم يعد إلى القاهرة إلا بعد جلائهم عنها .

وكانت للسيد المحروقى يد أخرى على العثمانيين فى حربهم للفرنسيين · فقد ظل وهو فى منفاه بالشام ، دائم الاتصال بأصدقائه ، وعماله فى مصر . يستطلع أخبار الفرنسيين ، ويتعرف أمورهم ، ويقدم ما يعرف من ذلك إلى العثمانيين .

فـكانت لهم من ذلك فائدة عظمى . ولما قدم جيشهم القاهرة كان يوسف باشا المدنى ضعيف الهمة قليل الخبرة وجيشه لاذخيرة عنده ، ولامدافع . فلما نقض الفرنسيون صلح العريش ، واشتد القتال بين العثمانيين وأهل القاهرة ، وبين الفرنسيين ، جمع المحروقى الذخيرة والمدافع . وقدمها للجيش وللثائرين . وهذه الذخيرة والمدافع ، هى التى مكنت يوسف باشا وأهل القاهرة من الدفاع عن مدينتهم ، ومقاومة حصار الفرنسيين لها أربعة وثلاثين يوما . ويقول الجبرتى : إن السيد المحروقى بذل فى ذلك « ما لا يدخل تحت طوق البشر » .

ومات المحروقى فى يناير ١٨٠٥ (٢٢ من شعبان ١٢١٩ هـ) .

عبرة الأيام والحوادث

إنك ، ياهنيبـــال ، تستطيع أن تنتصر .
ولـكنك لا تعرف كيف تفيد من انتصاراتك ...

* * *

يقول ابن دريد فى مقصورته العظيمة : —

من لم يعـظه الدهر ، لم ينفعه ما راح به الواعظ يوما ، أو غدا

والأمم كالأفراد ، يجب عليها — لـكى تستقيم حياتها وتفلح — أن تعرف مواضع العبرة من حياتها وتاريخها وأيامها .

فهى عندما تعرف خطأها وصوابها فى ذلك . تأخذ من ماضيها لحاضرها . ومن كليهما لمستقبلها . وما أشد حاجتنا نحن لاستخلاص هذه العبرة من تاريخنا .

فما هى عبرة الأيام والحوادث فيما قصصنا من فصول هذا الـكتاب ... ؟

أما أولى هذه العبر ، فهى تلك الروح السمحة الـكريمة التى بدت بين المصريين، فلم تجعل لفوارق العقيدة مدخلا فى نفوسهم . على الجملة .

فقد كانت أوضاع الحياة ، وتقاليد الناس وثقافتهم ، تجعل للعقيدة الدينية سلطانا كبيرا فى العقول والقلوب . كما تجعل لها أثرا بارزا فى التصرفات والاتجاهات . ولما جاء نابليون وجيشه، كان طبيعيا أن يجد فى مصر من يلقاه بهذه العاطفة الخاضعة لهذه العقيدة . بدل أن يلقاه بالعاطفة الوطنية . كما فعل المعلم يعقوب ، أو الجنرال يعقوب . لذلك قلت : على الجملة .

ولـكننا نجد أيضاً كثيرا من المصريين المسلمين ، تلقوا نابليون وجيشه بعاطفة لا هى بالوطنية ولا بالدينية . بل نجد من علمائهم من كان كذلك ، كما

سيجىء بعد قليل · وكلا الأمرين شأن طبيعى لاغرابة فيه · ولايسىء إلى تاريخنا، وشعبنا · ولا يجرح أى كرامة له ·

اليهود والنصارى :

أما تلك الروح السمحة الكريمة ، التى هى أولى العبر · فنحن نجد أمثلة كثيرة منها . نجد بعض المسيحيين يسجن فى القلعة مع المسلمين لحربه الفرنسيين · كما سجن المعلم نقولا ، وكان رجلا ذا مكانة . ونجد الأقباط يحاربون ويقتلون فى معركة إمبابةضد نابليون · ونجد كذلك ستة من اليهود — كما أحصاهم أمين باشا سامى [1] — قتلهم الفرنسيون خنقا، أو رميا بالرصاص ، لأنهم حاربوهم · كما نجد ذلك فى قصة الشيخ الصاوى والقبطى · وخلاصتها أن الفرنسيين رموا رجلا من الأشراف ، وقبطيا ، بتهمة أنهم يروّجون أنباء ضدهم وفرضوا على كل منهما مائة ريال · فإذا لم يدفعا قطع لسانهما · وتشفع العلماء فى القبطى والشريف فلم تقبل لهم شفاعة · فطلبوا أن يطلق سراحهما وأن يلتزم العلماء بدفع الغرامة ، فرفض الفرنسيون · فأرسل الشيخ مصطفى الصاوى، وكان من الشفعاء، وأحضر مائتى ريال دفعها للفرنسيين ، فدية القبطى والشريف · وكأن الفرنسيين أخجلهم مافعل الشيخ. فردوا عليه ماله · وكان قد أخذه من آخر ، فرده له · وكان الشيخ الصاوى من أعضاء الديوان الذين اختارهم نابليون ·

وعندما أنشأ الفرنسيون هذا الديوان ، ليحكموا مصر عن طريقه ، أثاروا فى جلسة من جلساته أمر المواريث عند النصارى · وأثاروا بذلك شيئاً من خلاف بين العلماء وبعض القبط من أعضاء الديوان. ولعل ذلك ما أرادوه. ولكن ميخائيل كحيل الشامى ، وكان من أعضاء الديوان ، أعلن أن النصارى يتركون للعلماء أمر المواريث لأبناء طائفتهم وملّتهم وانتهى الأمر على ذلك ·

---

(١) تقويم النيل ، الجزء الثانى . فى أثناء تسجيله لحوادث الاحتلال الفرنسى .

، نجد كذلك ، من اليهود ، من يعرض نفسه للموت ، ثم لا يفشى سراً ائتمن عليه . ولا يخون زعيما مجاهدا من أشراف المسلمين . فقد أمر نابليون ، كما رأينا من قبل ، بإعدام السيد محمد كريم ، زعيم الإسكندرية ، وأن تستصفى أمواله . فجاء كليبر بأخيه ، وبمحاسب أمواله ، وكان يهوديا ، وهددهما بالقتل حتى يبوحا بما خبأ السيد الشهيد من مال ، فأبيا ، ولم يبح أيهما بشيء .

وقد اختار السيد محمد كريم — وهو زعيم وشريف وحاكم — هذا اليهودى أمينا على ماله . فميّزه وأكرمه ، وأبره . فكان جديرا به أن يحفظ أمانته ، ويرعى عهده ، ويصون سره . وقد فعل .

كانت العاطفة الوطنية إذن ، هى التى سيطرت على المصريين ، عندما كان وطنهم فى محنة الاحتلال . ولكى ندرك مبلغ هذه العاطفة من القوة ، نذكر — إلى جانب ما أسلفنا من شعور الإخاء والمودة والتضامن بين عناصر المصريين على اختلاف عقائدهم — نذكر ما فعل أهل القاهرة بالسيد خليل البكرى . فبهذه المقارنة ، نستطيع أن نصل إلى شيء كثير .

الكرامة للمخلصين :

كان السيد خليل البكرى ، يجمع إلى شرف النسب ، جاه المال ، وجاه المكانة الاجتماعية الممتازة . فكان واسع الثراء ، مترفا فى معيشته . ونقيبا للأشراف . وهو منصب من أرفع المناصب ، وأعلاها شأنا . ولكن الشيخ لم يشارك شعب مصر إحساس الكراهية والبغضاء للفرنسيين . بل كان قريبا إليهم وصديقا لهم ولنابليون خاصة . وعندما قدم هذا من غزوة الشام ، أهدى إليه الشيخ جوادا عربيا أصيلا ، له سرج مطرز بالذهب ، والياقوت واللؤلؤ . يقوده رستم المملوك ، الذى كان له بعد ذلك شأن كبير مع نابليون فى فرنسا بل فى أوربا كلها ، كما أهدى إليه الشيخ عددا من الجوارى البيض والسود . وكثيرا من الأسلحة المذهبة . وغير ذلك شيء كثير . فعل الشيخ ذلك بعد ثورة القاهرة الأولى ، التى لقى فيها مواطنوه من قبل ، من أصدقائه الفرنسيين ما أجملنا ذكره .

وأسخط ذلك كله المصريين على السيد الشيخ ، وزاد فى اشمئزازهم وغضبهم ، ما عرفوه عن ابنته زينب[١] . وما كان منها مع الفرنسيين ، أو مع نابليون نفسه . فذهبوا إلى بيته فنهبوه . ثم أخرجوا الشيخ ومعه حريمه وأولاده ، فساقوه فى شوارع القاهرة حافى القدمين ، عارى الرأس . والناس من حوله ومن خلفه يسبونه ، ويشتمونه ، ويلقون فى أذنيه أوجع القول وأشده إيلاما . ولم يستطع الشيخ وأهله أن ينجوا من غضب الناس إلا على يد السيد أحمد محرم ، وكان تاجرا كبيرا ، فقد أخذه وآواه فى بيته ، ومعه أهله ، حتى انتهت الثورة .

وكان رجال الثورة يتهمون الشيخ بأنه يرسل الطعام من بيته إلى الفرنسيين المحاربين .

وهكذا كان شعب مصر فى ثورته . نسى كل شىء ، ونحّى كل عاطفة ، إلا عاطفة الوطنية . فالمجاهد ، عنده ، أخ كريم مرعىّ الجانب ، ولو كان غير مسلم . والذى ينحرف وينحاز إلى جانب أعداء الوطن ، خصم ، ممتهن ، مهان . ولو كان سيدا عظيما ، وشيخا كبيرا ، وغنيا واسع الثراء ، ونقيبا للأشراف .

وهذا غاية ما تصل إليه الوطنية من قوة ، ومن سداد ، وحسن إدراك .

سماحة وشرف :

وعبرة ثانية نجدها فى حوادث هذه الأيام من تاريخنا . وهى سماحة أهل مصر مع غير المحاربين من الأجانب .

فقد قدم الفرنسيون مصر فاتحين غازين معتدين . وكان ذلك كفيلا بأن يثير حقد المصريين وغضبهم على الأجانب جميعا ، وعلى الفرنسيين خاصة . وأن يدعوهم إلى كثير من الانحراف ، والشطط أيضا فى هذه الخصومة .

ولكنا نجد ، بدلا من ذلك ، السماحة والمروءة وشرف الخصومة . ونجد من هذه الصفات النبيلة ، عند شعبنا ، حديثا عجبا .

(١) نجد تفصيل قصتها فى الفصل الخاص بالحياة الاجتماعية ، الجزء الأول ص ، ١٨١ — ١٨٢

كانت الثورة عنيفة أشد العنف ، قاسية أبلغ القسوة · فى حربها للمعتدين من الفرنسيين . وكانت كريمة أعظم الكرم ، سمحة أطيب السماحة . مترفعة ، نبيلة إلى أرفع ما يسمو إليه النبل والمروءة ، مع المسالمين منهم ·

ومن أبرز مظاهر هذا النبل ، أن أهل مدينة المنصورة ، عندما هاجموا معسكر الفرنسيين فيها وحرقوه · شاهدوا سيدة فرنسية ، ومعها ابنة لها ، تفران من النار والحرب · فأخذها الثائرون ، برفق ، ومحبة ، وحفظوا عليهما حياتهما · وردّوا عليهما أمنهما · ثم نقلوها إلى قصر شيخ كبير من زعماء هذه المنطقة واسع الثراء . اسمه « أبو قورة » فتزوج الفتاة . وبقيت زوجاً له عشر سنين . وولدت له · فلما مات تزوجها أخوه . وظلت تذكر زوجها الأول بكل خير . حتى ماتت بعده بست وعشرين سنة ·

وقد نقل على باشا مبارك فى خططه ، عن كاوت بك ، أنه زار هذه السيدة فى أواخر عمرها · ولقى إبناً لها من زوجها المصرى . وعرف منها أنها إيطالية ، ولدت فى البندقية · وكان اسمها الأول « چوليا » وسمع منها كاوت بك تفصيل ما لقيت من إنقاذ الثائرين لها ، وبرهم بها . وما لقيت من كرم زوجها وعطفه ومودته · قبل أن يتزوجها · ثم ما لقيت من رغد العيش والنعيم ، وهى زوج له ·

ومن ذلك ما فعله أهل القاهرة فى ثورتهم الأولى . من حمايتهم الفرنسيين المسالمين من بطش الثائرين · فقد لجأ كثير منهم إلى بيوت أهل الطبقة المتوسطة فنجوا من الموت ، ووجدوا عندهم الأمن والطمأنينة والرعاية · وشهد الفرنسيون أنفسهم بذلك .

وذكر فيفيان دينون — عضو المجمع العلمى الفرنسى — أن المصريين أظهروا فى هذه الثورة ، أسمى عواطف الإنسانية والمروءة . نحو الفرنسيين الذين احتموا بهم ، وخاصة بالطبقة المتوسطة منهم ، فكانوا يأوونهم · ويتكفلون بحاجاتهم · ويدفعون عنهم عدوان الثائرين . وقص فيفيان فى ذلك قصة مؤثرة . هى أن سيدة

مصرية ، فى حى الناصرية ، أباحت له ولمن حوله من رجال المجمع العلمى أن يهدموا حائطاً بينهم وبينها ، ليستطيعوا دخول دارها ليحتموا فيها .

كما ذكر قصة أخرى عن رجل مصرى ، قدم لهم كل حاجتهم من الطعام . حيث لم يكن يباع أو يشترى . وفعل ذلك متطوعاً دون أن يطلبوا منه ذلك . ومحا كل دليل يرشد إلى مكانهم . ثم جلس بعد ذلك يدخن «الشبك»، الغليون ، ليصرف عنهم الأنظار . وذكر أن بعض المصريين وجد فرنسيين أعزلين ، وخافوا أن يفتك بهما الثائرون ، فأرادوا أن ينقذوهما . ولكن الفرنسيين أساءا بهم الظن : فلم يجد المنقذون بداً من خطفهما ، فلما أبديا العصيان والمقاومة وظهر عليهما الخوف ، قدموا إليهما أطفالهم ، ليطمئنا . ثم نقلوهما إلى بيت آمن ، ونجيا .

هكذا رعا المصريون العزل من الفرنسيين ، وكان مواطنوهم من الجنود يهدمون القاهرة بالمدافع . ويهدرون دم النساء والأطفال من أهلها . ويعلقون الأبطال من رجالها فى المشانق ويلقونهم فى النيل .

وهكذا بلغ المصريون أرفع ما تصل إليه نفوس النـاس من الصفاء والبر والمروءة والشمم والشرف وطهارة القلب . أرفع ما تبلغه نفوس الناس من هـذه الفضائل فى أيام أمنهم وسلامهم وهدوئهم . فـكيف وقد بلغوه فى أشد أيام المحنة والقتال .

وذكر المؤرخون أنه عندما دخل الفرنسيون مصر ، كان فى القاهرة وحدها ، من الأجانب إثنان وعشرون ألفاً ، وأربعمائة من الفرنسيين . وكان الجميع يعيشون فى أمن وسلام مع أهل القاهرة . وقد بقى ، بعد خروج نابليون ، كثير من الفرنسيين الذين قدموا معه ، آثروا أن يعيشوا فى مصر ، لـما وجدوا عند أهلها من السماحة والنبل وكرم الخلق .

وقد بلغ من سماحة المصريين ، أن أذنوا لهؤلاء الفرنسيين فى أن يحتفلوا بعيد نابليون — فى سنة ١٨٠٧ — أى بعد جلاء الفرنسيين عن مصر كلها بست سنوات ، بإقامة مهرجان فى « حارة الفرنساوية » وأولم الفرنسيون فى مهرجانهم

هذا ، الولائم · وأوقدوا القناديل فى وسط القاهرة ، وأشعلوا الصواريخ والألعاب النارية فى سمائها ·

وهؤلاء الفرنسيون الذين آثروا أن يعيشوا فى مصر . والذين أكرمهم أهلها كل هذا الإكرام ، هم الذين قدمت جنودهم إلى مصر غزاة فاتحين . ولعل كثيرين منهم أيضاً ، شاركوا فى حرب أهلها .

وهم الذين أشقوا أهل مصر — وأشقاهم أهل مصر كذلك — ثلاث سنين فى حرب لا تهدأ ولا تلين .

أما المصريون والمماليك الذين هاجروا من مصر إلى فرنسا حين خرج نابليون ، فقد قام عليهم أهل مرسيليا ذات ليلة فقتلوهم جميعا .

هذه مروءة المصريين ، أو سهولتهم وليونتهم فى عصر كان فيه العالم كله ، أقرب إلى التعصب الضيق منه إلى السماحة الكريمة الرحبة . وكان الناس فيه ما زالوا قريبين إلى بقايا الحروب الصليبية ، وما تزال أصداء الأجراس ، التى دعا إلى دقها بطرس الراهب ، باقية فى آفاق أوطانهم · وما يزال آباؤهم وأجدادهم يحدثونهم عن وقائع من هذه الحروب ، فى دمياط وغيرها من الثغور . وما يزال « فرسان مالطة » يحتجزون أسراهم . ويتربصون بسفنهم فى البحر الأبيض · متأثرين بهذه الحمى التى ملأت بها رؤوسهم نواقيس بطرس الراهب . كما ذكرنا ذلك فى الجزء الأول من الكتاب [1] .

فى هذه الأيام نفسها ، وتحت تأثير هذه المشاعر التى توحى بالانحراف والشطط . لم يجد غير المسلمين فى مصر ، إلا الأخوة ، والمعزة والكرامة :

وعبرتنا من هذا كله ، أن نذكر ، على الدوام · هذه الفضائل النادرة التى هى بعض خصائص شعبنا ، وبعض عيوبه أيضا . وأن نجعل من هذه الفضائل ، دستوراً لنا ومنهاجاً فى كل وقت وآن · وان ندرك منها المثل والعبرة حتى نكون على بصيرة من أمرنا فيما نأخذ وندع .

(١) ص ١٥٤ — ١٥٥ .

ومن العبر ، والظواهر ذات الدلالة على طبيعتنا وخلقنا ومنهج تفكيرنا .

ما ندركه من قصة السيد حسن كريت ، بعد أن هزم هو وأهل رشيد ، الحملة العسكرية الإنجليزية . فنحن نجد من حديثه الذى فصلناه[1] أن الأتراك عادوا إلى رشيد ، بعد هزيمة الإنجليز التى لم يشاركوا فيها ، فعاثوا فيها فسادا ، واستولوا على خيراتها . وقتلوا رجالها ، واستباحوا نساءها . فلم يفعل بهم السيد كريت وأهل رشيد ، مثل ما فعلوا بالإنجليز . بل أرسل إلى العلماء فى القاهرة يستغيث ويستجير ويستنجد . وكان موقفه الذى عدّ من مواقف الشجاعة ، أنه حاج هؤلاء العثمانيين بقوله ولسانه . وكانت حجته فى دفع شرهم أنه هو وأهل رشيد ، هم الذين حاربوا الإنجليز وردّوهم عن وطنهم «لينصروا العثمانيين ... ! » وهكذا قال . ولم يقل : — لنحرر وطننا وأنفسنا .

وكان أكبر ما هدد به حسن كريت ليخيف العثمانيين ، أنه سيترك مع أهل رشيد ديارهم وبلادهم ومساكنهم لهؤلاء العثمانيين ... ! كأنه يقول : —

فلن تجدوا عند ذلك من يعمل ومن يخدم ومن يفلح الأرض ومن يدفع الأموال والمغارم ... ! وهذا مثل من أبرز الأمثلة للإستسلام و « السلبية » فى حياتنا وأخلاقنا .

ولو أن أهل رشيد حاربوا العثمانيين كما حاربوا الإنجليز ، أو حاولوا ذلك ، ولو أن واحدا منهم قتل أو غالَ عثمانيا كبيرا كما فعل سليمان الحلبى بكليبر ، لو أن قومنا يوم ذاك فعلوا ذلك أو حاولوه . ما لقوا هذا الذى لقوا من الهوان والذل والعذاب . وما وقع بهم ما وقع على يد العثمانيين ، وعلى يد محمد على بعد ذلك بقليل .

وهذه ظاهرة من اليسر ، أو التهاون ، ذات دلالة كبيرة يجب ألا يفوتنا تسجيلها ونحن نتحدث عن عبرة الأيام والحوادث من تاريخنا الحديث . وهى ظاهرة نجد لها كثيرا من الأشباه والنظائر فى هذا التاريخ .

---

(١) ص ١١٦ — ١١٧ من هذا الجزء .

عبرة العبر :

أما ختام هذه العبر . بل هو عبرة العبر فيما قصصنا من قبل ، فهو النتائج التي كانت تنتهي إليها ثورات هذا الشعب وكفاحه .

فقد رأينا أن شعب مصر كان يثور على حكامه الظلمة ويوجههم أول الأمر بالحسنى . كما كان يفعل العلماء وأهل الرأي . ثم يزجرهم ويقسوا عليهم في القول والنصيحة ، كما فعل السادات والدردير وعمر مكرم وغيرهم . فإذا لم تفدهم الحسنى ، ولم يقوّم الزجر عوَجهم . قومتهم أيدي الشعب ، ورماحه وبنادقه . كما فعل بالسردار في الإسكندرية ، وبياسف والشعراوى في القاهرة . أو نحّاه الشعب ونزعه من عرشه وسلطانه كما فعل بالدفتردار وخورشيد .

فعل شعبنا ذلك بالظالمين . ولكن الظلم لم ينقطع . وجاء غيرهم فسار سيرتهم وظلمهم . ذلك لأن الشعب كان طيب السريرة ، يسارع إلى حسن الظن بالناس فينخدع فيهم وكأنه كان حسبه أن يقتص من الظالم ، لا أن يمنع وقوع الظلم ، وشتان بين الأمرين . ولو أن أمثال الشيخ الدردير ، والسادات ، وعمر مكرم ، ممن قادوا ثورات الناس أو عبروا عن سخطهم وغضبهم ، لو أن هؤلاء وضعوا لهم منهاجاً يحرصون على تحقيقه . وغاية تسعى لها ثوراتهم ، حتى إذا تحققت حرصوا على بقائها ، ونمائها . وجعلوا عليها حراساً من يقظة الشعب واستعداده للبذل والتضحية . لو أنهم فعلوا ذلك أو شيئاً منه ، لما بقي في مصر هـذا الحال الذي وصفناه ، كلّ هذا الزمن : حتى وثيقة حقوق الإنسان ، نالها الشعب ولم يصنها .

ولقد سبق لرجل من أقطاب الاستعمار الإنجليزي — ولعله لورد ملنر — أن قال عن حركتنا الكبرى في سنة ١٩١٩ : إن ثورة المصريين يطفئها قليل من الماء . بل هو لم يذكر الماء . فقد ذكر لفظاً آخر قبيحاً لا أريد أن أعيد ذكره .

ولكن من الإنصاف أن نذكر ظروف الناس ، وأحوالهم في ذلك الزمن . فقد كان من العسير عليهم أن يقوموا بثورة شاملة ، كالثورة الفرنسية . وكانت

العاطفة الدينية ، التى تجمع بينهم وبين المماليك ، والعثمانيين ، تلطف من حدة هذه الثورات . وتجعل الشعب أميل إلى افتراض الصلاح والاستقامة والعدل ، عند من يزعم ذلك لهم من أولئك الحكام .

وكان ذلك خطأ لا شك فيه . ولكن له ما يبرره بعض الشيء . على ضوء الظروف والملابسات التى كانت تسيطر على الناس . وكان ضعف الثقافة ، وضيقها . وانعدام المواصلات الحديثة . من الأسباب التى تجعل الثورة محدودة ببيئتها ومكانها .

ولكن العبرة ، أو الخطأ الأكبر . كان فى تراخى الشعب عن جنى الثمرات التى هيأها له جهاده ، بعد خروج الحملة الفرنسية .

فقد كافح الشعب الفرنسيين ، وبذل فى ثوراته عليهم ما بذل من ماله ومن دمه . وآتت هذه الثورة أكلها ، وأثمرت ، أو كادت ، ثمرة الحرية . ولكن الشعب لم يرعها ، بعد نجاحها . ولم يسهر عليها . فجفت شجرة الحرية ، بعد أن أورقت ، وتساقط ثمرها . وقد أينع .

مقاومة الشعب وكفاحه ، هما اللذان أخرجا جيش نابليون من مصر : فالمماليك وقفوا فى موقعة إمبابة ساعة أو بعض ساعة ثم فر بعضهم إلى الشام ، مع إبراهيم . وبعضهم إلى الصعيد ، مع مراد . ثم عاد هذا فقبل أن يكون والياً على الصعيد تحت الراية الفرنسية . وكان لهم واليا ذليلا يترضاهم من كل سبيل . وجيش الدولة الذى أرسلته لحرب نابليون وإخراجه . كان زاهداً فى الحرب غير راغب فيها ، ولا قادر عليها . وكان قائده ، يوسف باشا ضيا ، حريصاً كل الحرص على ألا يحارب جنود فرنسا . كان — كما يقول نقولا الترك — «باذلا جهده بإخراج الفرنساوية ، من المملكة المصرية . من غير حرب ولا قتال . فكان يريهم الحرب والمصادمة ، ويتهددهم بالأوامر الصارمة . وأما قصده فكان أن يخرجوا بسلام . وتستخلص دار الكنانة[1] » .

(١) ص ١٣٩ — ١٤٠ ذكر تملك جمهور الفرنساوية .

هذا ما فعله المماليك ، وفعله قائد جيش الدولة . وتحت أمرهم الجند الكثيف ، والسلاح الوافر ، والمدافع الكثيرة . أما شعب مصر ، فلم يكن له من سلاح ، إلا العزمة والإيمان، والتصميم . والبنادق الخربة ، والعصى والحجارة. فلما انتصر الشعب ، بعزمه وإيمانه وتصميمه ، تخلى عن رعاية الثورة ، أو موالاتها ، وترك أمر الصلح — وهو ثمرة كفاحه — لرجال الدولة .

نجد فى مفاوضات الصلح ووثائقه ، أسماء الجنرال سميث ، واللورد كايط ، الإنجليزيين . ومصطفى كوسا ، الباشا التركى الذى أخذه نابليون أسيراً مع ابنه ، ويوسف الترزى الأرمنى ، وحسين باشا قبطان ، والقائد بليار الفرنسى . والذى يضع شروط الصلح هو الصدر الأعظم يوسف باشا ضيا المدنى ، الذى يتحاشى الحرب ، ومعه اثنان من رجاله . ولم يشترك فى هـذا الصلح ، ولا فى تحرير شروطه ، أحد من رجال مصر ...

ولم يرد لمصر ذكر فى هذه الشروط ، إلا بأنها عادت ، مرة أخرى ، تابعة للدولة . وأن عليها نفقات خروج الحملة الفرنسية من البلاد . وكانت هذه النفقات نحو ١٥٠ ألف جنيه . « اجتهد السيد أحمد المحروقى فى توزيعه على الناس ، وجمعه فى أيام قليلة . فكان من توجه عليه مقدار من ذلك ، اجتهد فى تحصيله ،وأخرجه عن طيب قلب ، وانشراح خاطر . وبادر بالدفع من غير تأخير . لعله أن ذلك لترحيل الفرنساوية . ويقول : سنة مباركة ، ويوم سعيد »[1] وتكتب وثائق الصلح باللغتين الفرنسية والتركية دون العربية .

ويدخل يوسف باشا القاهرة فى موكب سلطانى حافل ، لم تر القاهرة مثله ، من أيام سلطانها ومجدها . فنجد أمامه الصفوف الكثيرة المختلفة من الجند . الأرنؤود ، والانكشارية ، والشامية ، والمماليك ، والمغاربة ، والقليونجية . ونجد أسماء الأغوات ، والكتخدا ، والخازندار ، والجمدارية ، والشاويشية . ثم نجد

(١) ص ٩٢ الجزء الثالث من الجبرتى . طبع المطبعة الشرفية .

العلماء وشيوخ التكايا والدراويش · تجدهم للرمز والبركة وإبراز فخامة الموكب · لا للإقرار بأن الدولة صارت لأهلها . وأن الشعب أصبح السيد المهيمن ·

خرج الفرنسيون آخر الأمر . ولكن مصر ، التى لم ترع ثورتها ، ولم تسهر عليها · لم تجن ثمرة الحرية التى سقاها شعبها بدمه . وبذل فيها من الأرواح والأموال ، هذا البذل الكريم الرائع المشرف ، فعادت إلى حكم الدولة . ولحق بالناس فى القاهرة من الظلم والعذاب ما نقرأ اليوم صفحاته فتضيق صدورنا ، وتدمع عيوننا ، وتكاد أن تنشق مرائرنا من الحزن . وامتد بعد ذلك ظلم رجال الدولة . إلى الأقاليم . وعادت إلى هذه وتلك ، سمات حكمهم ، من الاستبداد والظلم ، والتسلط والغلظة .

ذلك لأن الشعب لم يرع ثورته ، ولم يحرص على جنى ثمراتها . وقد حان قطافها .

وإنى لأذكر هنا من مقصورة ابن دريد قوله : —

من ترك الحزم ، جنى لنفسه ندامة ، ألذع من سفع الذكا

أى النار ·

وكذلك فعل شعبنا الطيب مع محمد على . نصره على المماليك ، وعلى رجال الدولة · ولقى فى سبيل ذلك ما لقى من البلاء والعنت والمحنة · ولما جاء الإنجليز لحربه . كان على وشك أن يفر إلى الشام ، ويترك مصر ، ويودع ما كان يبنى لنفسه فيها من أحلام المجد والملك . فحارب الشعب الإنجليز حتى دحرهم · ولكنه ترك ثمرات نصره فجناها محمد على . وسقا الشعب ، بعدها ، الصاب والعلقم . وسامه العذاب · وبقينا فى هوة سحيقة مظلمة ، قرناً ونصف قرن . وسقط علينا فى هذه الهوة ، بل سطا علينا ، الاحتلال الإنجليزى ، بجناية توفيق وخيانته ·

وكان استيلاء هذا الرجل على حكم مصر ، وسلوكه فيه بعد ذلك ، هو عبرة العبر من هذا كله .

ولكى ندرك مقدار الردّة ، ومدى الخذلان الذى أصاب وطننا بعد كفاحه هذا ، باستيلاء محمد على على مقاليد الحكم ، بالغدر والخديعة والداهنة ، لكى ندرك ذلك ونقدره حق قدره ، نخصص مابقى من هذا الكتاب لذكر صفحات من سيرته . وهى ليست تاريخا له ، بل هى صفحات قليلة تومىء وتشير ، وتدل على كثير .

وقبل أن أبدأ هذه الصفحات ، يجب أن أذكر أنها « صفحات من سيرته » كما سجلها الجبرتى . وليست تاريخا لحياته ولا لحكمه . والجبرتى ، على الرغم من أمانته ودقته وإخلاصه ، لا يصلح أن يكون مصدراً منفردا لتاريخ محمد على . لعدة أسباب . منها أنه لم يكن محايدا فى حديثه عنه ولا فى شعوره نحوه . فهو وأبوه من قبله صديق حميم للماليك . وهو محب غاية الحب ، معجب كل الإعجاب بالألفى منهم خاصة . والألفى هو ألد الخصوم لمحمد على . ومنها أن اتصالاته بمحمد على وشيعته كانت مقطوعة أو معدومة . فكان حكمه عليه قائما على السماع والعاطفة . ومنها أن التاريخ الصحيح لا يكتبه المعاصرون . لأن الحوادث والأشخاص . لا تستبين لهم على حقيقتها ، ولا يخلو حكمهم من الشطط فى الميل والانحياز والمدح . أو من عكس ذلك ونقيضه .

على أن الجبرتى لم يشهد سوى فترة من حكم محمد على . كانت أمامه فيها أوضاع خاصة عالجها بأسلوبه الخاص الذى ارتضاه . وتاريخ محمد على ، كغيره من تواريخ الرجال ، لابد أن ينظر إليه وأن يحكم فيه كلاًّ غير مجزء ولا منجَّم . ليكون حكمنا عليه عادلا منصفا .

فهذه الصفحات هى رأى الجبرتى عن محمد على . وهو لاشك ، رأى له قيمة ووزن كبير . وفيه أيضاً ، صدق كثير وسداد .

الفصل الثاني

صفحات من سيرة محمد على



طرف من سيرته :

عندما بدأت في تنسيق المراجع التي اعتمدت عليها في كتابة هذه الصفحات من سيرة محمد على · كان الحكم الملكى ، حكم فاروق ، لا يزال قائماً · وعندما انتهيت من هذا التنسيق ، كان حكم فاروق قد انتهى ، بثورة الجيش . ولكن النظام الملكي كان ما يزال قائماً معترفا به . وكنت ، في ظل هذا الحكم . أعمل فكرى وجهدى لستر مالا يمكن الكشف عنه من هذه السيرة · وللتحايل على التزام أمانة المؤرخ ، مع عدم الاصطدام بما فرضته قوانين هذا النظام . حتى أباعد بين كتابى وبين المصادرة · وأباعد بين نفسى وبين السجن . ثم أتممت مراجعاتى ودوّنت ما أحتاج إليه ، وبدأت أكتب ، فيشاء الله ألا أخط حرفا واحدا فى ظل هذا الحكم ، ولا فى ظل هذا النظام . وأن أبدأ الكلمات الأولى من هذه الصفحات ، فى ظل الحكم الجمهورى · وبذلك لم أعد أحتاج إلى التحايل والتستر . بل خرجت منهما إلى الإبانة الصريحة والإفصاح . ولكنى — فى كلا الحالين — ملتزم أمانة المؤرخ وصدقه .

وهذه الصفحات التى أبدأ فى كتابتها ، ليست ، كما قلت ، تاريخا لمحمد على . فقد وضعت فى تاريخه عشرات الكتب ، فى لغات مختلفة متعددة . وأعتقد أنه ستوضع ، أو يجب أن توضع ، كتب جديدة تفصح عن سيرته . وتبين عن شخصيته ، وتؤرخ له التأريخ النزيه الصادق ، بعد أن أضفت كتب التاريخ السابقة على شخصه وحياته كثيرا من الزيوف والألقاب . وسترت ، على وجه الخصوص ، كثيرا من عيوبه ، ونقائص حياته · بل أحال بعضها هذه النقائص إلى فضائل وأمجاد .

وهذه الصفحات التى أكتبها ليست إلا محاولة فى هذا السبيل · أسجل فيها طرفا من سيرة محمد على ، كما تؤرخها وقائع حياته وأفعاله ، ومظاهر سلوكه .

أقول إنى أسجل « طرفا » من سيرته لأنى لم أتناول سوى الفترة التى دون أحداثها مؤرخنا المنصف الأمين عبدالرحمن الجبرتى . والتى تابع فيها ، يوما بعديوم، خطوات محمد على منذ أصبح رجلا يحفل المؤرخ بشأنه ويسجل أثره فى حوادث مصر فى ذلك الزمن . حتى ينتهى الجبرتى من تدوين تاريخه بنهاية سـنة ١٢٣٦ (١٨٢٠ م) .

فهى تتناول نحو ست عشرة سنة من حكمه . كما تتناول السنوات السابقة لولايته والمحاولات التى بذلها ليصل إلى هذه الولاية . والأساليب التى لجأ إليها ، وبرع فيها ليتم له ما يريد . ولم يكن الجبرتى هو المصدر الوحيد الذى اعتمدت عليه فى رسم هذه الصورة ، وتسجيل ماسجلت من نتائج ، كما يرى القارىء فيمايلى من الصفحات ، على أن الجبرتى وحده مصدر كاف جد الـكفاية لإبراز ما نريد .

ويرى القارىء أنى لم أكتب تاريخ هذه الفترة كما اعتاد المؤرخون أن يكتبوا . فلن أسجل وقائع الأيام والسنين . بل سأجمل من هذه الوقائع مادة لرسم الصورة التى أعتقد أنها تمثل حقيقة محمد على ، وتفصح عن خصائصه النفسية وصفاته الخلقية. فإذا ذكرت بعض الحوادث فإنما أذكرها للاستشهاد والإبانة والإيضاح وإبراز الصورة .

وقد رسم الجبرتى على الخصوص ، صورة صادقة إلى حد كبـير عن محمد على فى هذه السنين الأولى من حكمه . وكان فيها غير مجامل له ولا مشفق عليـــه . ولـكنه لايبخل عليه بالثناء عندما يرى أنه يستحقه . فقد كان الجبرتى ، بعاطفته ، لا يحب محمد على ، ولـكنه بأمانة المؤرخ ، سجل له أموراً حسنة . ومدحه عليها . وهذا ما نلتزمه نحن أيضاً .

الشهيد محمد علي :

كانت أحوال مصر وظروفها ، بعد خروج الحملة الفرنسية منها ، مجالا يستطيع أن يقتحمه كل مغامر · بل كانت مغرية بالاقتحام والمغامرة لكل من تحدثه نفسه بالاقتحام والمغامرة .

فقد عاد إلى القاهرة ، بعد خروج الفرنسيين ، الأتراك ، وحلفاؤهم الانجليز · ولكن لم تكن هناك سلطة واحدة تبسط سلطانها على البلاد · فكانت القاهرة تحت حكم الوالي التركي . ولو أن سلطانه عليها كان مشوباً بالضعف والاضطراب والتخبط · وكان الصعيد تتنازعه فلول المماليك ، بزعامة محمد بك الألفي ،وجند الأتراك الذين لم يكونوا يخضعون لحكم الوالي في القاهرة · وكان الإنجليز في الإسكندرية ، وفي الجيزة ،يجمعون من الفلاحين وأهل المدن ضرائب خاصة بهم. وكانت بلاد الوجه البحري يعبث فيها جند الأتراك ما يشاءون . ومن استطاع أن يستولي على بلد أو أكثر ، إستولى عليه وحازه لنفسه · فقد كان عرب أولاد علي مثلا ، يغيرون على إقليم البحيرة ويوشكون أن يستولوا عليه كله ، ويستقلون به . وكانت المعارك في بلاد الوجه البحري · ماتزال تقع بين العثمانيين والمماليك . وكان الوالي يأمر جنوده بنهب البلاد في القليوبية لأخذ مرتباتهم .

وكان الجند العثمانيون يدخلون القاهرة ، فيأمرون الناس بإخلاء بيوتهم . فإذا دخلوا دارا خربوها · وحرقوا أخشابها · ثم انتقلوا إلى غيرها ففعلوا بها مثل ذلك · فإذا رجاهم الناس رفق ، أن يكفوا عن ذلك · قالوا لهم : لقد كنتم تخلون دوركم للفرنسيين ليسكنوها ... !

وأراد الوالي التركي ، محمد خسرو باشا ، أن يخرج الألفي من الصعيد · وعرض عليه أن يذهب إلى إسلامبول ، لينال من رفد السلطان وبره ، ولكن الألفي أجابه بقوله : « إن الأرض لله · ونحن خلق الله· نذهب حيث نشاء.ونأ كل من رزق الله ما يكفينا ... !» وطلب إلى خسرو باشا أن يترك له بلاد أسيوط ، وما بعدها ، إلى أسوان . فإن لم يقبل فسيحارب كل من يجيء إليه .

ولم يستطع خسرو — أو لم يرد — أن يبذل للجند رواتبهم ومخصصاتهم التي توقف صرفها لهم سبعة أشهر متوالية . فكثر اعتداؤهم على الناس . وزاد خوف الناس منهم . فكانوا يسارعون إلى قفل متاجرهم كلما سمعوا أن فريقا من الجند تحرك من مكان إلى آخر . وكان الجند ، وخاصة في المساء ، يتسلطون على الناس بالضرب والسرقة ، والقتل أيضاً . ويغتصبون أموالهم ، وثيابهم . ويكثرون من خطف النساء والصبيان .

وقد ثارت الفتنة بين الجند ، بسبب رواتبهم ، وقامت الحرب بينهم وبين خسرو ، حتى تغلبوا عليه . فخرج من القاهرة ومعه نساؤه وجواريه — وكن سبع عشرة امرأة — وحرق الجند والناس بيته ، ونهبوا ما فيه . وخرج هذا الوالي من القاهرة إلى دمياط ، ففرض مظالم كثيرة على أهل البلاد التي مر بها في الغربية والدقهلية . وبقي في دمياط حتى قدم إليه عثمان بك البرديسي — أحد كبار المماليك وصديق محمد علي فيما بعد — فحاربه وتغلب عليه ، وأخذه أسيرا . ثم سجن في القلعة ثمانية شهور .

وجاء بعد خسرو باشا ، الوالي طاهر باشا ، فكان أسوأ من سابقه تدبيرا . وأفسد رأياً .

تعصب مع جند الأرنؤود ، ضد الانكشارية ، ومطل هؤلاء حقوقهم . فذهب إليه فريق منهم يطلبونها . وطال بينه وبينهم الجدل . حتى استل واحد منهم سيفه وضربه ، وحز به رأس طاهر باشا ، وألقى به من نافذة حجرته . ولم تطل ولايته أكثر من عشرين يوما . فاختار الانكشارية رجلا اسمه أحمد باشا ، كان في طريقه إلى ولاية جدة . ووجد في القاهرة بمحض الصدفة ... ! وعلم أحمد باشا هذا بأن المماليك لا يريدونه . وأن محمدا عليا — وكان يعمل من وراء ستار — يكيد له . فخرج من القاهرة — بعد ولاية يوم وليلة — تاركا أمتعته . وخرج معه كبار أتباعه يمشون على أقدامهم . ويحملون فوق أكتافهم ما خف من متاعهم ... ثم أخذ أحمد باشا بعد ذلك أسيرا . وكانت كفة المماليك لا تزال راجحة . فانتهى الأمر بتنصيب

إبراهيم بك شيخا للبلد ، وقائمقام عن الوالى . ورضى كل من محمد على وصديقه البرديسى بهذه الولاية .

ثم جاء بعد ذلك على باشا الطرابلسى ومعه فرمان من الدولة بولايته على مصر ، ولكن البرديسى حاصره فى رشيد . ثم استدرجه المماليك إلى قرب القاهرة . وقبضوا عليه . ثم أخرجوه منفيا إلى غزة . وعاد الحراس الذين رافقوه يقولون إنه مات فى مديرية الشرقية ، عند القرين ... ! والراجح أنهم قتلوه .

وبقى إبراهيم بك نائبا عن الوالى ثمانية أشهر وأيام، حتى جاء أحمد باشا خورشيد والياً من قبل الدولة . فظل محمد على يدس له الدسائس . ويؤلب عليه طوائف الجند ويحرض عليه العلماء والجماهير . حتى أخرجه من ولاية مصر ، بعد أربعة عشر شهرا . وانتزع لنفسه الولاية والسلطان .

محمد علي سر نشأته :

يذكر الجبرتى اسم محمد على ، فى غمار هذا الاضطراب والقلق فى فترات متباعدة ، ولكنها مقرونة باشتداد الأزمات ، وتعقد الأمور . ويستطيع القارئ اليقظ أن يربط بين ذكره وبين تأزّم الأمور وتعقيدها . وكأنه كان يعمل على ذلك ليزيد الهوة اتساعاً بين هؤلاء الولاة وبين أهل مصر . وليزيد من شذوذ هؤلاء الولاة وقسوة الحياة التى كان الناس يحيونها إذ ذاك . فكلما تأزمت الأمور وزادت قسوة الحياة والولاة على الناس وعلى الجند ، أظهر لأولئك طرفا من حلاوة اللسان ، ولهؤلاء شيئا من المال ، أو الأزواد أو «العلف» . فلا يجد الناس من يلاطفهم أو يتقرب إليهم سواه . ولا يجد الجند من يعطيهم بعض حقهم أو رواتبهم غيره . فيتملق الأولون به وينحاز الآخرون إليه أو إلى من يريد هو أن ينحازوا إليه . ويرى الطامعون من المماليك أو غيرهم أنه يستطيع أن يعينهم على تحقيق أطماعهم، فيخشون بأسه ويتنافسون فى التقرب إليه .

وتستطيع أن تسمى ذلك براعة . أو مرونة ، أو سمة حيلة ، أو غير ذلك من الأسماء. وهي براعة وصل بها محمد على إلى ضرب طوائف الجند بعضها ببعض. وإلى أن اعتقد الناس والزعماء ، والعلماء ، ومنهم السيد عمر مكرم ، أن محمدا عليا — لاسواه — هو الذى سيجد عنده الناس الرفق والعدل. وقد اختاروه فعلا على أساس الرفق والعدل بالرعية . وأظهر لهم ، أول الأمر ، العفة والزهادة فى الولاية فزادهم ذلك تمسكا به ، وتقديرا له .

تستطيع أن تسمى ذلك براعة ، أو مرونة ، أو سمة حيلة. ولكن له من غير شك ، إسما آخر فى عرف الأخلاق والفضائل .

وكان اللقب الذى يضاف إلى اسم محمد على أول الأمر هو «سر ششمة» أو «سارى جشمة » ويقول أمين باشا سامى ، نقلا عن كلوت بك ، إنه يعنى « قائد ألف » أى مايساوى فى ألقاب الجيش الآن رتبة « بكباشى[1] » ويظهر من بعض الملابسات أنه كان متصرفا فى أطعمة الجيش ، كأن يكون أمينا عليها. وكان حبسه لهذه الأطعمة ، وصرفه لها ، خاضعا لمصالحه الخاصة ، أو مطامعه. وقد أفاد من ذلك فى التأثير على فرق الجند وفى تأريث خصومتها للولاة الذين لم يرض عنهم ، أو أراد إخراجهم .

وكان فساد الحكام ، وظلمهم ، وسوء تدبيرهم . وتنازع المماليك ، من أكبر الأسباب التى أفاد منها محمد على ، وساعدته على الانفراد بحكم مصر. كما كان ما القيه المصريون أثناء الحملة الفرنسية من الحرب والظلم والمغارم الثقيلة . وما أصابهم بعد خروجها من الجحود والعنت والقهر ، سببا آخر فى مقتهم للولاة الأتراك وللمماليك على السواء .

ولنعرف مبلغ ما كان عليه استهتار الولاة الأتراك بمصالح الناس إذ ذاك ، نذكر أن واحدا منهم ، وهو على باشا الطرابلسى ، كسر سد أبى قير الذى كان

---

(١) سرجشمة ، أى بكباشى . عن اسماعيل سرهنك باشا فى كتابه « حقائق الأخبار عن دول البحار »

يمنع ماء البحر الأبيض من التدفق إلى الأراضي الواقعة بين رشيد والإسكندرية فسال ماءه حتى قارب دمنهور ، وخربت البلاد الواقعة بينهما ، وتلفت المزارع . وهاجر أهل الإسكندرية لأنهم لم يجدوا ماء يسقونه . وكانت ترعة المحموديه لم يتم امتدادها إليها .

ونذكر أن الضرائب زادت وثقل أمرها على الناس ، حتى خرب الكثير من البلاد والقرى . وجلا أهلها عنها . خصوصا إقليم البحيرة فإنه «خرب عن آخره» كما يقول الجبرتي . وإقليم الدقهلية ، الذي لم يبق به « إلا خمس وعشرون قرية فيها بعض سكان ، والباقي خرائب . ليس فيها ديار ، ولا نافخ نار » .

وزاد من بلاء الناس نقصان النيل نقصا فاحشا في سنة ١٢١٨ حتى عز وجود القمح والخبز . وكان الناس يذهبون إلى سوق الغلال ، في بولاق ، لشراء حفنة من القمح ، ثم يرجعون باكين ، وبيعت البهائم بأرخص الأثمان ، لأن أصحابها لا يجدون مايطعمونها إياه . وكانت المراكب التي تصل إلى بولاق محملة بالغلال ، يصادرها الأمراء ، والوالي ، ويدخلونها مخازنهم ، ولو لم تكن لهم ، ولا يعطون أصحابها شيئا .

وبلغ الأمر إلى حد أن الناس كانوا لا يستطيعون أن يسيروا بشيء اشتروه مهما يكن قليلا . فقد يخطفه الجند . فكانوا يستأجرونهم لحراستهم حتى يصلوا إلى بيوتهم بما اشتروه . وكان الرجل يربط عمامته ، خوفا عليها من الخطف ، وكان الجند يترصّدون من يذهب إلى الأسواق ، لشراء الجبن أو الزبد أو الدواجن أو غيرها ، ، فيأخذون مامعهم . ثم يهجمون على السوق فيستولون على ماجلبه الفلاحون لبيعه فيه . ولا يستطيع إنسان أن يذهب إلى بولاق أوشبرا ، ولو كان مع جماعة قليلة .

وضاق الأمر بالناس ، حتى خرج الفقراء والعامة والنساء صارخين ، يضربون الدفوف . والنساء يندبن ، وقد صبغن أيديهن بالنيلة . وسار هذا الجمع حتى دخل الجامع الأزهر ، يشكوا إلى العلماء . وذهب العلماء إلى الأمراء ، وأرسل محمد على

رسولا إلى العلماء فى الأزهر يبلغهم تخفيف الضرائب . وكانت هذه إحدى الحركات البارعة ، التى كسب بها محمد على محبة الناس ، وأثار بها فى نفوسهم كراهة العثمانيين والمماليك والجند .

ثم جاءت السنة التى تليها ، فلم تكن أقل من سابقتها شراً . فقد انتشر الجند فى إقليمى الشرقية والقليوبية وهم « يسمون فى الفساد ، ويهلكون الحصاد . فما وجدوه مدروساً من البيادر أخذوه . أو قائماً على ساقه رعوه . أو غير مدروس أحرقوه . أو كان من المتاع نهبوه . أو من البهائم ذبحوه وأكلوه » .

أما ما بلغه سوء أخلاق المماليك ، وظلمهم . فنذكر منه أن البرديسى عندما تغلب على محمد باشا خسرو فى دمياط ، لم يكتف بذلك . بل نهب دمياط ، وأسر جنودُه النساء ، واعتدوا على العذارى . وأخذوهن أسيرات . وباعوهن كالإماء . وأخذوا ما على أجساد الناس من الثياب . ونهبوا المتاجر والمنازل . وكان شيئاً كثيراً جداً ، حتى بيع ما قيمته خمسمائة ريال بريالين .

ولما عاد أحد رجال البرديسى ، وكان قد قتل كبيراً من رجال خسرو ، أنعم عليه إبراهيم بك ببلاد المقتول وأملاكه و « زوجته » .

وقد كان ذلك يحدث فى أوقات كثيرة غير هذه الفترة . ولكنه لم يبلغ هذا المبلغ . ولم يصل إلى هذا الحد . الذى جعل الناس ، كما يقول الجبرتى ، يتمنون لو بقى الفرنسيون ... ! والذى جعل العلماء يتركون دروسهم فى الأزهر ، ويسيرون مع الناس إلى بيت القاضى . وهم يتوجهون إلى الله صائحين داعين : « حسبنا الله ونعم الوكيل . يامتجلى أهلك العثمنلى » . وأمثال ذلك من الدعاء[1] .

فى هذه الظروف ، وبسببها ، تولى محمد على حكم مصر فى ١٣ من مايو سنة ١٨٠٥ — ١٣ صفر سنة ١٢٢٠ .

(١) تجد تفصيلا وافياً لحياة مصر الإجتماعية وعبث الجند فى الجزء الأول من الكتاب .

محمد علي يسعى سعيه :

وقد صور الجبرتي تصويراً صادقاً بارعاً ، ذلك السبيل الذى سلكه محمد على حتى استطاع أن يحمل الزعماء والشعب على حسن الظن فيه ، والإصرار على اختياره والياً . فهو يقول إنه سعى ، بحيلته ونفاقه ، فى إحراج خسرو باشا ، بالتواطؤ مع طاهر باشا . ثم غدر بطاهر باشا وأغرى على قتله . وخدع المماليك عن نفسه ، فتودد إلى زعمائهم،وصادقهم ، ووضع نفسه فى خدمتهم . واستخدم واحدا منهم — هو عثمان بك البرديسى — عندما عرف فى نفسه الطموح والغرور والخيانة . فمناه بالأمانى الكبار ليتخذ منه عضداً لحرب الآخرين . وأعانته غفلة البرديسى وغروره على أن يصل لما يريد . ثم اتخذه مرة أخرى وسيلة للقضاء على الألفى ، خصمه اللدود وكبير الأمراء . وزعم أنه سيضع نفسه وجنده تحت إمرة البرديسى إذا أوقع بالألفى ، أو حال بينه وبين دخول القاهرة . فلما مات الألفى لم تبق له حاجة فى البرديسى ، فدبر له مع طائفة من الجند كيدا : — أحاطوا بيبته وصبوا عليه رصاص بنادقهم ، وأوشكوا أن يقتلوه . لولا أنه فر منه وترك القاهرة إلى الصعيد . ومات فيه غريباً كما مات الألفى .

ورأى محمد على أنه لن يستقيم له أمر ، ولن ينال مشتهاه من الحكم والولاية إلا بمعونة السيد عمر مكرم . فتقرب إليه . وأظهر له المحبة والتعظيم . وأكثر من زيارته فى بيته ، وكان لا يناديه إلا بقوله يا والدى . ثم عاد بعد ذلك . وبعد أن تولى وحكم ، فنفى والده السيد عمر مكرم،مرة فى دمياط ومرة فى طنطا . ولم يسمح له بالعودة إلى القاهرة إلا وقد أصبح شيخاً فانياً محطماً لا يستطيع أن يكيد كيداً ، أو يظهر خلافاً .

وكذلك فعل مع العلماء حين كان محتاجاً لعونهم . ثم أهملهم وحقرهم وصادر أموالهم، حتى لا يبقى لهم رأياً ولا شوكة ولا جاها ولا حرمة .

وفعل هذا أيضاً مع الشعب ، حتى حارب فى سبيله تلك الحرب الشاقة المنيفة التى فصلنا أمرها من قبل . فلما تولى حكمه ، ظهرت حقيقة نفسه . وبدا من خلقه

وعمله ما نذكر منه فى هذا الفصل شيئاً يسيراً جداً . ولـكنه كما قلنا ، يوىء ويشير ، ويدل على كثير .

وكما استطاع محمد على ، بحيلته وخبثه ، أن يوجه غضب الناس وسخطهم ، فى هذه الفترة الحاسمة ، قوياً جارفاً ، إلى العثمانيين . فقد استطاع أيضاً أن يوجه شيئاً كثيراً من هذا الغضب القوى والسخط الجارف إلى المماليك — وإلى البرديسى منهم خاصة — حيث أظهرهم وأظهره للناس على أنهم سبب من أكبر الأسباب لشقائهم ومحنتهم . حتى خرجوا يمشون فى الطرقات يتصايحون قائلين : « إيش تاخذ من تفليسى يا برديسى » .

لا أريد أن أتتبع سيرة محمـد على فى الولاية والحـكم . ولا وقائع الأيام والحوادث التى جرت فى عهده . بل أكتب ، كما قلت ، صفحات من سيرته . أرسم فيها أبرز الخصائص التى كان يتصف بها ، كما صورها الجبرتى ، ثم أسوق من الحوادث ما يؤكد هذه الخصائص ويبرزها ويدل عليها .

الحيلة والغدر :

فنحن نرى ، فى هذه الصفحات من سيرته ، أنه كان رجلا واسع الحيلة شديد الغدر . أما سمة حيلته فقد رأينا بعض مظاهرها فيما مضى من الحوادث التى مهدت له سبيل الحـكم والسلطان . ونجد مظاهر أخرى لذلك ، من سيرته بعد أن أصبح واليا على مصر . فمن ذلك ما فعله مع قبطان باشا ، فى السنة الثانية من ولايته . فقد جاء هذا الباشا إلى مصر ومعه أمر من الدولة فى إسطنبول بولاية موسى باشا على مصر ، وبخروج محمد على إلى ولاية سلانيك . ومعه كذلك أمر بعودة الألفى ومماليكه إلى القاهرة ، بضمان العلماء لهم ، فسعى محمد على لدى العلماء حتى كتبوا إلى قبطان باشا وإلى السلطان أنهم لا يستطيعون أن يضمنوا طاعة المماليك ، واستقامة أمرهم ، ولا خضوعهم للدولة . وأنهم يرون بقاء محمد على فى ولاية مصر ، لأن الجند يطيعونه . وأرسل إليه محمد على هذه الوثيقة التى كتبها العلماء ، مع ابنه إبراهيم . ثم سعى ، فى الوقت نفسه ، لدى قبطان باشا ، بالوسيلة

الناجحة فى ذلك الزمان ، فأرسل إليه ما أرضاه من مال ومن هدايا · وكان محمد على قد وضع سبباً للنفرة بين البرديسى والألفى ، كبير الأمراء المماليك ، فلم يجد قبطان باشا سبيلا لجمعهما على رأى واحد · وانتهى الأمر بأن أرسل قبطان باشا إلى إسطنبول يثنى على محمد على ، ويرجو من السلطان إبقاء ولايته على مصر ·. واستجاب السلطان إلى رجاء رسوله فأبقاه .

وقد استخدم محمد على حيلته الواسعة فى إضعاف شوكة المماليك ، وتفريق شملهم ، كما أشرنا من قبل · ولما مات الألفى ، جعل يتألف من بقى من كبار المماليك ، ويترضاهم ، ويستدرجهم للقدوم إلى القاهرة ، ليكونوا تحت سلطته ، استقدم شاهين بك ، أحد كبار المماليك الألفية ، وأسكنه قصراً فى الجيزة ، وأمر بأن تطلق المدافع تحية لقدومه . وأقطعه إقليم الفيوم ، وثلاثين بلداً فى « البهنسا » ، وعشرا فى الجيزة · وجعله كاشفاً عليها وعلى البحيرة ، وأرسل ابنه طوسون يستقبله عند حضوره . فلما استقر فى الجيزة ، دعاه إلى مضرب النشاب ، فتسابقا وتلاعبا بالسيوف والرماح . ثم أقام له فى القلعة وليمة غداء . وأراد شاهين بك أن يتزوج إحدى نساء المماليك ، فصرفه عنهـا محمد على بحجة أنه دعى ابنته للقدوم من قوله ، وأنه سيزوجها إياه ، ليكون صهراً له . وبعد ذلك بقليل زوجه إحدى جواريه · كما زوج مماليك آخرين ، ودفع عنهم المهور الطائلة · ولـكن شاهين ، لأمر ما ، ترك القاهرة إلى الصعيد ، ومعه كثير من المماليك · وترك ما أعطاه محمد على من مال · وما مهد له من نعيم · فساء ذلك محمد على ، وخشى عقباه . ولـكنه توجه بحيلته إلى « خشد اشين [1] » شاهين بك،وكانوا ينـفسون عليه ما نال من نعيم ومال ، فأطمعهم فى أن يتركوه ، ويعطيهم محمد على أكثر مما أعطاه . فأقبلوا عليه طائعين · وكان شاهين بك هذا من المماليك الذين استدرجهم محمد على بعد ذلك إلى وليمة القلعة ، ثم قضى عليهم فى المذبحة التاريخية فيهـا . وكذلك فعل بمرزوق بك ، ابن الأمير الـكبير إبراهيم بك . قربه إليه وقلده ولاية جرجا ، وإمارة الصعيد . ثم قضى عليه فى تلك المذبحة ·

(١) زملائه فى الرق . وقد سبق شرح هذا الاصطلاح فى الجزء الثانى . ص ٧٤ .

وقد بلغت مرونة محمد على وحيلته إلى حدٍّ خدع معه المماليك عن كيده وطبيعة نفسه من الغدر . فكان يعاهد من يخشى بأسه منهم « عهد الدم » بأن يجرح كلاهما يده ثم يمصّ من دمها تأكيداً للإخلاص والمودة . فعل ذلك مع عثمان بك البرديسى . وبعد قليل فر هذا مع إبراهيم بك وبقية الأمراء هاربين من كيد محمد على وسعيه عليهم لدى الجند والناس . ولم يدم حلف الإخلاص والمودة بين محمد على وبينهم سوى ثلاثة أسابيع خرجوا بعدها على أسوإ حال ، ونهبت بيوتهم ، وأخذت زوجاتهم سبايا .

ومن حيلته أن جماعة من رؤساء الجند ساءهم ما أدخله على نظم الجيش من تقليد جديد احتذى فيه حذو الفرنسيين . وكبر عليهم أن يلبسوا « اللابس المقمّطة » التى كان يلبسها جيش نابليون . فاجتمع هؤلاء الساخطون فى بيت عابدين بك وتآمروا على قتل محمد على . وكان عابدين بك على صلة به فأبلغه ما يدبره القوم من غيلته ، فصعد إلى القلعة حتى لا ينالوه . فلما فشل تدبير المتآمرين خرجوا ومعهم بعض الجند فنهبوا متاجر الناس وبيوتهم فى القاهرة . وأراد محمد على أن يستفيد من جرمهم ، فأمر السيد المحروقى ، كبير تجار القاهرة ، بأن يرســل إليه مقادير الخسائر التى خسرها التجار فى هذه الفتنة حتى يردها إليهم من ماله . وجمع البنائين والنجارين فعمروا ما تخرب من الأسواق ومن بيوت الناس ، على نفقته . ورأى المتآمرون أنهم فشلوا ، وأفاد محمد على مما فعلوا . فذهبوا إليه معتذرين ، وكان لا يزال محتاجاً إلى الحيلة ، فقبل عذرهم . وأمرهم بأن يردوا على الناس مانهبوه أو نهبه جنودهم .

ومن حيلته ما كان يفعله بمن لا يريده من الحكام وولاة الأقاليم . فيُلبس غضبه عليهم ثوب الغيرة على الناس والشفقة بهم . حتى يزيد تودده إليهم ، ويزيد حبهم له . وما كان يفعله بمن يخرج على طاعته من الجند .

أراد أن يعزل حكام الأقاليم ، لأنه لا يطمئن إليهم . فأمر بعزلهم جميعاً . وأظهر أنه فعل ذلك بسبب ظلمهم الفلاحين . وأخذ يحاسبهم ، ويأخذ أموالهم . وبعد

عزلهم ومصادرة أموالهم ، وجه بعضهم إلى حرب الحجاز ، والآخر إلى حرب بعض الخارجين عليه فى داخل البلاد .

وبذلك أخذ أموالا عظيمة ، وتقرب إلى الناس بإظهار العطف عليهم والغضب على من يظلمهم — ولو كان غضبه من ظلمهم لرد على الناس ما سلبه منهم حكامه —

وتخلص بعد ذلك من طائفة لا يريد بقاءها فأبعدها ووجهها إلى الحرب . ومن مظاهر الحيلة فى تودده إلى الناس ، فى بداية حكمه ، أنه طلب إلى السيد عمر مكرم أن يكون نائبا عنه عندما فكر فى الخروج لمحاربة خصمه القوى محمد بك الألفى . وكان محمد على يطمئن غاية الاطمئنان ، للسيد عمر ، ولا يخشى منه خروجا ولا غدرا . وكانت للسيد مكانة عظمى عند أهل مصر . ومشاكل محمدعلى ومتاعبه متشعبة وكثيرة . فلو أن السيد عمر قبل نيابته لخفف عنه كثيرا من المتاعب، وحل له كثيرا من المشاكل ، ولم يكن محمد على بخاسر على أى حال . لأن المصريين ، فى ذلك الوقت ، كانوا لا يرون أحدا منهم كفأً للحكم والولاية .

ومما فعله بالجند ، أن طائفة منهم خرجت عن طاعته . وائتمرت به ، فأحبط كيدها وبقى يتربص بها سنة . حتى أتيحت له فرصة أخرج فيها هؤلاء الجند من القاهرة إلى الثغور . وظهر فى ذلك بمظهر المشفق على أهل القاهرة من شرهم .

أما غدره فنحن نستطيع أن نكتفى فيه بمذبحة المماليك . وما ذكرناه من قبل عن غدره بالسيد عمر مكرم ، والبرديسى ، وغيرهما . ولكننا نذكر وقائع أخرى تدل على أن هذا الغدر كان إحدى الصفات البارزة فى خلق محمد على .

فمن أمثلة غدره ، مافعله بأحمد أغا لاظ ، فقد كان هذا الرجل حاكما على قنا . وكان من رؤساء الدولة الذين لهم نصيب كبير فى ترجيح كفة محمد على على المماليك . وهو الذى حاربهم فى الصعيد وتغلب عليهم بشجاعته وجرأته ، وكفايته الحربية . فلما فرض محمد على ابنه إبراهيم حاكما على الصعيد . كان أحمد أغا يعارضه فى كثير من تصرفاته . وخاصة ما يفرضه على الفلاحين من الضرائب . وقامت جفوة بين الرجلين أرسل أحمد أغا بسببها كتابا إلى محمد على فى القاهرة ، أعلن فيه أسباب

غضبه . فأرسل إليه محمد علي يستدعيه ويلاطفه ، ويقول له إنه سيعمل كل ما يرضيه ، وقدم أحمد أغا في عدد قليل من رجاله . والتقى بمحمد علي وكان بينهما حديث عنيف . وقد استطاع رجال محمد علي أن ينتهوا به إلى حيث يريد سيدهم . ثم أخذوا الأغا إلى مكان آخر يلاطفونه . ويهدئون من ثورته ، على أن يلتقي بمحمد علي مرة أخرى وقت السحور ، فقد كان ذلك في رمضان ، وتحايلوا على من معه من الرجال حتى انصرفوا . ثم دعى الأغا للدخول على محمد علي ، عند نصف الليل . فلما خرج من مكانه تلقفوه ونزعوا سلاحه ، وأوثقوا يديه تحت السلم ، ثم قطعوا رأسه . وأرسل محمد علي من استولى على دوره وأمواله .

وكذلك فعل بكبير من العرب في الصعيد . الشيخ كريم ، شيخ طرهونة ، وكان هذا الشيخ لم يتقدم لملاقاة محمد علي ، ولم يظهر له المودة . فأخذ ابنه إبراهيم يتودد إليه ويظهر له الحب . ويوهمه أنه يسعى للصلح بينه وبين أبيه . وصدق الرجل هذه الخدعة . وساق إلى محمد علي في القاهرة هدية ، ومعها أربعون من الإبل ، وقدم هو معها . فلما لقيه محمد علي ، قبل منه هديته ، وأمر برمي عنقه في الرميلة .

وقصته مع حجاج الخضري . مثل من أبرز الأمثلة على الغدر والخديعة والقسوة . وقد فصلنا أمره وأمرها في الفصل السابق .

وقد فعل مثل ذلك من الغدر أيضا ، بالشريف غالب في مكة . فقد تعاهد هو وابنه طوسون مع الشريف على الصفاء والمودة . وأقسم كل منهم على ذلك في جوف الكعبة . ثم استدرج الشريف إلى بيته وأسره . واحتال على أولاده الثلاثة حتى أسرهم وأرسلهم إلى مصر . ونصب ابن أخيه الشريف يحيى أميرا على مكة بدلا منه .

وقد أراد محمد علي أن يتخلص من خصمه العنيد ، محمد بك الألفي بالحيلة ، والغدر . بعد أن عجز عن التخلص منه بالمواجهة والحرب . فاتفق مع رجل من الأرنؤود اسمه رجب أغا ، على أن يذهب إلى الألفي مظهرا له الطاعة . ومعلنا الغضب والعصيان على محمد علي . موهما له بأنه قدم إليه ليحميه من ظلم محمد علي ، وخشية منه على حياته . ووعد محمد علي رجب أغا أن يعطيه خمسين كيسا — ما يقرب من ألفي جنيه — إذا أدخل هذه الحيلة على الألفي ثم قتله . وذهب الأغا

إلى الألفى وصاحبه زمنا على الخديعة . ولكن يقظة الألفى وحيطته لم تمكنه من إتمام مؤامرته وتدبيره . فلما يئس من ذلك عاد إلى محمد على ، فأمره بالخروج من القاهرة .

أما مذبحة المماليك ، فقد قتل فيها ما يزيد على ألف منهم ، دعاهم محمد على إلى القلعة لمناسبة تقليد ابنه طوسون إمارة جيش الحجاز . فى يوم ٦ من صفر سنة ١٢٢٦ — ٢ مارس سنة ١٨١١ م — فلما قدموا دعا كبارهم إلى مجلسه فشرب معهم القهوة . ثم بدأ سير الموكب وفيه المماليك على أبهى زينة . فلما خرجت الطوائف التى تسبقهم ، وبدأ خروجهم ، غلقت الأبواب . وسلط عليهم من أعلى ، الرصاص والموت ، وكانوا فى مضيق لا يستطيعون الخروج منه ، ومن لم يقتله الرصاص ، أخذ فقطعت رأسه [1] . ثم خرج جند محمد على يبحث عمن لم يحضر منهم ، وعلى صغارهم الذين لم يدعوا فقتلوهم فى بيوتهم ، ونهبوا أموالهم ، ونساءهم وأولادهم ، وأرسل إلى حكامه فى الأقاليم ففعلوا عن فيها مثل ما فعل بإخوانهم فى القاهرة ، وبقيت رؤوس من قتل من المماليك ، وجثثهم ، ملقاة فى القلعة ثلاثة أيام ، ودامت المذبحة ، فى داخل القلعة نهاراً كاملا ، وفى أحياء القاهرة التى يسكنها المماليك ، يومين كاملين .

حذر ونشاط وقاس

ومن الصفات التى نجدها عند محمد على ، شدة الحذر ، وسرعة الحركة ، فلا يكاد الجبرتى يذكر سفرا له ، أو عودة من سفر ، إلا وهو يقول إنه عاد على حين غفلة . وهو لا يصعد إلى مقره فى القلعة ، أو إلى بيته فى الأزبكية ، إلا بعد أن يقيم خارج القاهرة ، فى قصر شبرا ، يومين أو ثلاثة . وعندما خرج من القاهرة ليلحق بجيشه فى الحجاز ، كان خروجه عند طلوع الفجر .

ولما عاد من أسيوط ، بعد حرب المماليك ، نزل من السفينة متنكراً ، وركب إلى القلعة . وأمر رجاله ألا يعرف أحد قدومه ، إلا بعد أن يصل إلى القلعة ، وتطلق مدافعها . ويقول الجبرتى إنه سار من أسيوط إلى القاهرة فى ثلاثين ساعة . وقدم مرة أخرى ، ومعه دليل بدوى واحد ، من السويس إلى القاهرة فى أربع عشرة

---

(١) لم يستطع أحد من المماليك الهرب ، سوى أمين بك الألفى فقد قفز بفرسه من فوق سور القلعة ، ثم اختفى وهرب إلى الصعيد .

ساعة ، على هجين . وسافر على بغلة ، من بنى سويف إلى الفيوم ، فى أربع ساعات ، ومات بعض مرافقيه فى هذا السفر ، بسبب الإجهاد والتعب .

وكانت فى نفس محمد على ، كما تصوره الوقائع والأحداث ، قسوة بالغة . نذكر مثلا واحدا عليها . ولكنه مثل يغنى عن كثير ، ويدل على كثير . فقد سرقت من بيته فى شبرا أدوات للقهوة . فأحضر حارس الدار وأمره بإحضار السارق والمسروق ، وإلا أذاقه أشد العذاب . وأحضر الحارس بعد أيام ، خمسة من السراق ، ومعهم جميع ماسرق ، لم ينقص منه شيء . ولكن محمد على لم يكتف بعقابهم وحدهم . بل أخذ كل من تحوم حوله الشبهة . فأمر بالخمسة السراق فقتلوا بإجلاسهم على « الخازوق » فى أماكن متفرقة . ثم أخذ أكثر من خمسين رجلا فأمر بقتلهم جميعاً . وأرسل بهم إلى بلاد مختلفة فى الغربية ، والقليوبية ، والمنوفية فشنقوا فى بلادها وقراها .

وكأن محمدا علياً كان يأمر أبناءه وجنوده بأن يكونوا على نهجه فى هذه القسوة الشاذة البالغة . أوهم ساروا على نهجه بالمثل والقدوة . فإن الجبرتى يقول عن ابنه إبراهيم إنه ، عندما جعله أبوه حاكما على الصعيد ، فعل بأهله «مافعل التتار ، عندما جالوا فى الأقطار . وأذل أعزة أهله » وروى أنه ربط رجلا إلى خشبة . وأمسك رجال بأطرافها وجعلوا يقلبون الرجل المسكين على النار المشتعلة «مثل الكباب» .

كما ذكر أن رجلا أراد أن يستحلفه على أمر . فقال له : « وحق من أعطاك . فقال له إبراهيم : «ومن الذى أعطانى ... ؟ قال له : — ربك . فقال له : «إنه لم يعطنى شيئا ... والذى أعطانى أبى ... ! » .

ويقول إن إبراهيم تولى « إمارة الصعيد » وهو دون سن العشرين . جاهل غشوم .

وقد كان محمد على يوما فى « الرحمانية » من إقليم البحيرة ، وأرسل يطلب شيخ مدينة دسوق . فخاف الرجل على نفسه ، وأراد أن يدفع إلى رسله ما يطلب من مال . ولكن سفنا أخرى قدمت فى النيل تتعجل الشيخ لملاقاة محمد على . فزاد خوفه وساءت ظنونه بهذا الطلب . وانتهى الأمر إلى حرب بين الشيخ ومدينته

و بين الجند . فلما تغلب الجند ، بعد مشقة وعناء ، اقتحموا بيوت الناس فنهبوا ما فيها • وتهجموا على مقام السيد إبراهيم الدسوقى فذبحوا من فيه من طلبة العلم ، حتى العميان •

حب المال

وقد روى الجبرتى عن طمع محمد على ونهمه فى حب المال وشراهته فيه أشياء عجيبة •

ذكر أنه كان يبيع ما ينبت من زراعة أرضه ، وحدائق قصوره . حتى الفجل ، واللفت ، والكرنب ، والملوخية . فكان البائعون ينادون عليها يقولون : فجل الباشا ، وكرنب الباشا وملوخية الباشا • وكان يحتكر جميع التجارات ، حتى الخشب والحطب الرومى • يستولى عليها بثمن زهيد يحدده ، ثم يتاجر فيها . وكان ابنه إبراهيم يستولى على السكر الناتج من جميع بلاد الصعيد . ويرسله إلى القاهرة ليتاجر فيه أبوه . ويبيعه لطابخ البيوت . واستولى محمد على على جميع المحاصيل التى يزرعها الفلاحون فلا يبيع مالكها أى شىء منها . وأخذ جميع ذلك ، حتى ما كان فى بيوتهم • وفرض ثمانية عشر قرشا ثمنا للأردب من القمح ، وعلى الزراع نقله على نفقتهم إلى مخازنه . ثم يبيعه بمائة قرش • وفرض ضرائب على الأقمشـــة والملح والحصْر ، والأدوات المنزلية ، والأحذية • وعلى «البلانات» اللواتى يقمن على خدمة النساء فى الحمامات العامة • وأمر أصحاب المساكن والمهاز بأن يجـددوا أملاكهم . فمن لم يستطع منهم إصلاح ملكه قام هو بإصلاحه أو تجديده . وأخرج منه صاحبه ثم أضافه إلى ملكه • وكان ، هو ورجاله ، يأخذون أحجار المدارس ، والملاجىء ، والمساجد ، ويبنون بها بيوتهم وقصورهم •

ومن عجيب ما فعله أنه أصدر أمرا بتنظيم الربا بين الجنود وأفراد الشعب … ! فقد كان جنوده يجمعون بعض مالهم • أو ما يصـادرونه من أموال الناس ، ثم يقرضونه لمن يشاء ربا فاحش . ورأى هو أن فى ذلك تخفيفا عليه فيما يدفعه من أجور الجند . وملهاة لهم أيضاً . فأصدر أمراً إلى الشرطة ، وإلى الجنـد ، والناس ، يبيح هذا التعامل ويفرض أن يكون « ربى القرض من العسكر ستة عشر قرشا ،

فى كل شهر عن كل كيس » . ويقول الجبرتى تعليقا على هذا الأمر إنه « عدّ من غرائب الحكام . حيث ينادى على الربا جهاراً فى الأسواق ، من غير احتشام ولا مبالاة » .

وكان محمد على ، لشرهه فى حب المال ، لايجد حرجا ولا حياء فى أن يطلب الهدايا والهبات من الناس . ففى شهر رجب من سنة ١٢٢٩ أراد والد محرم بك — زوج بنت محمد على — أن يسافر إلى بلده . فأرسل هذا « إلى الأعيان تنابيه بالأمر لهم بهاداته ، ففعلوا . وعبّوا له بقجا وبنا ، وأرزا ، وأقمشة هندية ومحلاوية كل أمير على قدر مقامه » .

الانجليز وآثار الفراعنة

وكان لحبه المال ، وتفانيه فى خدمة الأجانب وتمييزهم ، ولجهله أيضا ، يفرط تفريطا معيبا فى آثار مصر القديمة النادرة . فقد ذكر الجبرتى أن جماعة من علماء الآثار الإنجليز قاموا برحلة إلى الصعيد ، جمعوا فيها كثيرا من التماثيل والنواويس والجثث المحنطة لقدماء المصريين . ويبدو مما ذكره عن قيمة المال الذى دفعوه أجرا لنقلها على النيل إلى القاهرة — وهو ستة عشر كيسا — يبدو من ذلك أنها كانت شيئا كثيرا . وقد نقل العلماء هذه الآثار كلها بعد ذلك إلى إنجلترا .

كما يذكر أن علماء آخرين نقبوا حول تمثال أبى الهول ، وكشفوا جوانبه ، فوجدوا بين مرفقيه صندوقاً مستطيلا أحمر اللون ، عليه نقوش فرعونية . وفى داخله تمثال سبع من حجر أحمر ، باسط ذراعيه . وهو فى حجم الكلب . فنقلوا هذا الصندوق إلى بيت القنصل الإنجليزى . وقال الجبرتى إنه ذهب فشاهد هذه الآثار وهذا الصندوق ، ومعه رجل اسمه سيدى إبراهيم المهدى الإنجليزى . كما قال إن الأولين أنفقوا مالا كثيراً فى تنقيبهم فى الصعيد الأقصى . وإن الآخرين ظلوا أربعة أشهر ينقبون حول أبى الهول ويكشفون ما يحيط به من الرمال .

ولم يأخذ محمـــد على ، فقط ، أحجار المساجد والملاجىء لتبنى بها قصوره وقصور رجاله . بل أخذ ما يملكه الناس من الأراضى والممتلكات . فقد أصدر

أمراً يهدر قيمة الحجج التي يمتلكون بها . وأمرهم أن يستخرجوا حججاً جديدة في نظير ضريبة فرضها . ومن لم يستطع ذلك منهم أضيفت أملاكه إلى الدولة ، أي إلى ملك محمد علي، وكان كثيرون جداً من الناس يملكون بالميراث أو بالشراء من غير حجة ولا توثيـــق . أو بكتابة غير موثقة ، فنزعت أملاكهم ، مهما علت قيمتها ، ومهما كان حقهم فيها واضحاً . وتملكهم لها يمتد إلى سنين طويلة . وقد فعـل ذلك أيضاً في أوقاف المساجد والأسبلة ، وجهات البر والصدقات . وقد أحصاها محمد علي فكانت ستمائة ألف فدان .

وقد أمر محمد علي بأن يأخذ لنفسه ، على كل فدان من هذه الأراضي الموقوفة ثلاثة ريالات ونصف ، وعلى غيرها سبعة ، فلما ذهبت إليه العلماء يشكون أن هذه الضريبة ستكون سبباً في خراب المساجد والأسبلة وما وقفت عليه هذه الأراضي ، لم يقبل منهم ، ولم يستمع إليهم .

قطارات الحمير :

أما في القاهرة ، فقد قام بحركة واسعة من البناء شغل بها جميع أهل المهارة . فكان من يريد بناء جـــدار أو حجرة أو « كانون » — كما يقول الجبرتي — لا يجد من يبنيه . والحمير — وهي أكثر من ألفين — تنقل طول النهار ، ما يوجد بالحمامات من الرماد . وتنقل الطوب ، وأنقاض البيوت وغير ذلك إلى عمائره في القلعة وغيرها . « فترى الأسواق والعطف مزدحمة بقطارات الحمير الذاهبة والراجعة » وكذلك كان يفعل ابنه إسماعيل وسليمان أغا السلحدار في بولاق وإمبابة والجيزة .. والأرمن المقربون إليه ، في مصر القديمة .

ولم تـكن سطوة القانون والمصادرة وحدها ، سبيل محمد علي لأخذ أموال الناس . بل كانت القوة والقهر أيضاً من وسائله في ذلك . فقد روى الجبرتي أنه أمر بعض رجاله بالذهاب إلى عرب أولاد علي ، ليحاربوهم . وساعد فريق منهم رجاله في هذه الحرب . فلما دهموهم في بيوتهم واستولوا على أموالهم . أودعوها عند قوم منهم في مدينة الفيوم . ثم قدموا إلى محمد علي في القاهرة ليبشروه بالنصر .

وكان معهم هذا الفريق من العرب الذى كان سبباً فى نصرة رجاله . وانتظر هؤلاء أن يشملهم محمد على ببره وتقديره ، وأن يكافئهم . ولـكنه أمر بسجنهم . ثم أرسل إلى الفيوم بمن جاء بأموال أولاد على . فكان منها ، من الغنم ، ستة عشر ألفاً ، ومن الجمال والنوق ، ثمانية آلاف .

الغلاء والقحط :

(وكان من الطبيعى أن يزيد الغـــلاء زيادة فاحشة ، بسبب هذه الضرائب والمصادرات ، والتحكم فى سوق البيع والشراء ، واحتكار الدولة لـكل شىء . وأن يصيب الناس من ذلك أشد الضيق . أما الغلاء فقد ذكر الجبرتى أن الشىء الذى ثمنه مائة ، كان يباع بألف . وأما ما أصاب الناس من ضيق ، فقد ذكر فيه أن كثيرين من الفلاحين خرجوا مهاجرين إلى الشـــام وغيرها ، فراراً من الضرائب والمغارم التى كان يثقل عليهم بها . وأن كثيرين من ذوى الثروة واليسار ، أصبحوا فقراء محتاجين . ثم يقول ، فى حوادث شهر جمادى الأولى من سنة ١٢٣٢ (١٨١٧ م) إن الغلال لم تعد موجودة فى الأسواق ، بسبب احتكارها ونقلها إلى الإسكندرية للمتاجرة فيها مع الأوربيين . وأن محمد على أمر كشافيه فى الأقاليم بألا يبيع الفلاحون أى قدر من غلالهم إلا له ، بالثمن الذى فرضه . ثم يقول إن الحال بلغت حدا بعيدا من الشدة ، حتى قل الخبز فى أسواق القاهرة . بل امتنع فى بعض الأيام وجوده . وأقبل الفقراء من الرجال والنساء بمقاطفهم إلى الأسواق والرقع التى يباع فيها القمح . ثم رجعوا من غير شىء . فلما رأى محمد على شبح المجاعة . أخرج من مخازنه الوافرة قدراً من القمح وأمر بألا يشترى أحد أكثر من نصف كيلة ، أو كيلة . بالثمن الذى يفرضه أيضاً .

ثم يقول إنه جاءت من الريف أغنام وجواميس فكانت هزيلة جداً ، من الجوع ، فلما ذبحت لم يجىء غيرها ، ولم يجد الناس ما يطبخونه . ولم يجدوا خضاراً ولا سمناً ولا زيتاً ، لأن محمد على أخذ ذلك كله ليتاجر فيه . فأغلقت المعاصر والسيارج ومتاجر الشمع . ولم يجدوا دجاجا ولا بيضاً لهذا السبب أيضاً . وكثيراً

.ما كانت تؤخذ بلا مقابل على أن يخصم ثمنها من الضرائب التى تستحق أو تفرض .فيما بعد .

كما أمر فى هذه السنة أيضاً ، بالاستيلاء على ما تغزله المغازل من القطن ، .والحرير والخيش والكتان ، وما يصنع من « الحصير » و « الزعابيط » و « الدفاق » فإذا أخذه رجاله ، دفع لأصحابه ثمنا قليلا ، ثم خصص أماكن لبيعه .بالثمن الذى يرتضيه . وكذلك فعل بكل شىء ، حتى البلح والعجوة ، والجريد ، .والخوص ، والليف ، والنشوق ، واللبان والصمغ ، والحناء .

هذا ما كان يفعله محمد على بأهل مصر فى سنة ١٢٣٢ ، مع أنه قبل ذلك بتسع سنين ، اعترف بأن « البلاد خربت » من كثرة ما تحمل الناس من المظالم والمغارم .

فى اليوم الحادى عشر من شوال ، سنة ١٢٢٥ (١٨١٠ م) عقد محمد على اجتماعا فى بيت ابنه إبراهيم بالأزبكية ، حضره كبار العلماء ورؤساء الجند • .وتحدث هو إليهم فقال إنه لا يريد أن يفرض ضرائب جديدة على البلاد « لأنها خربت ولا تستطيع أن تتحمل زيادة » . ثم عرض عليهم طريقة أخرى للحصول على ما يريد من المال .

وقد كان محمد على فى ذلك الوقت جديداً فى ولاية الحكم ، محتاجاً إلى عطف العلماء والتودد إلى الشعب ، لم ينته من البطش بخصومه ولم يقض على المماليك ، فكان طبيعياً أن يجمع العلماء ليستشيرهم . وكان طبيعيا أن يظهر بعض الرعاية للشعب ، وأن يعترف بما ناله من إرهاق وأنه لا يريد أن يزيد فى إرهاقه .

فلما تغير الحال ، وقضى على المماليك . وبطش بخصومه ، أو أغراهم بالمال .والمنصب واستدرجهم إليه ، لم يعد محتاجاً إلى عطف العلماء ولا إلى التودد للناس وإظهار الرفق بهم والرعاية لهم . ولم تعد مصر ذلك البلد الذى خرب « ولا يحتمل زيادة » بل يأخذ من أهله كل شىء ، بكل سبيل . حتى لا يجد الناس طعامهم .

ويذهب العلماء والناس والأطفال إلى مسجد عمرو يطلبون من الله الرحمة بهم « فخطبوا وصلوا . وأخبر بالمجتمعين الجوع ، فلم يجدوا ما يأكلونه » .

وحديث المظالم والمصادرات التي أوقعها محمد على بشعب مصر حديث طويل مثير . كتب فيه كثير من المؤرخين مثل ما كتب الجبرتي ، ولكنى لا أريد أن أتجاوز الجبرتي إلى غيره إلا بمقدار .

هدايا لأم العروس :

ولم يكن محمد على وحده محبا للمال كل هذا الحب . متخذا كل سبيل في الحصول عليه وحيازته . فقد ذكر الجبرتي عن زوجه في ذلك قصة عجيبة مؤلمة ، مثيرة .

ففي شهر المحرم من سنة ١٢٢٩ (يناير سنة ١٨١٤) زفت إحدى بنات محمد على إلى محمد بك الدفتردار[1] . وذهبت نساء الأمراء والمماليك والأعيان إلى أم العروس يقدمن إليها الهدايا « من الجواهر والتحف والأمتعة » وقد تحملن في ذلك فوق طاقتهن ، وكان والد العروس هو الذي صادر أموالهن وأموال أزواجهن ، وقتل كثيرين منهم وشتتهم في البلاد . فلما قدمت الهدايا إلى زوج محمد على أخذت تقلب « ما فيها من المصاغ والجوهر ، والمقصبات ، وغيرها . فإن أعجبتها تركتها . وإلا أمرت بردها قائلة : « أهذا مقام فلانة التي كانت بنت أمير مصر أو زوجته ... ؟ فتتكلف المسكينة للزيادة ، مع ما يلحقها من كسر الخاطر ، وانكساف البال » .

وقد صدق الجبرتي كل الصدق ، في إشارته المهذبة إلى ما في هذا التصرف من الغلظة ، والبعد عن اللياقة ، والمجافاة لكل كرامة ومروءة وخلق . ومن الطمع في موقف يجب أن يكون فيه البذل والإعطاء .

---

(١) الأميرة توحيدة .

الأجانب هم الحكام والسادة:

ومن الحقائق التى سجلها الجبرتى على محمد على، نظرته إلى المصريين كأنهم خدم له وأتباع. وإلى مصر كأنها مزرعة ليس لأصحابها فيها حقوق. ومظهر هذه النظرة نراه فى إهماله المصريين إهمالا شائنا معيبا، فى كل ماله شأن أو خطر من أمور الدولة والحكم والولاية العامة. واعتماده كل الاعتماد فى ذلك على الأجانب من كل صنف، وخاصة الفرنسيين، والأرمن.

وقد كان لمصر «ديوان» أنشأه نابليون، وجمع فيه طائفة من أهل الرأى والمكانة من المصريين. وكان هذا الديوان يناقش المسائل العامة، والقوانين ومشروعات الضرائب، فهو أشبه ببرلمان له شئ من السلطة، ويستطيع المصريون عن طريقه، أن يبحثوا أمور وطنهم العامة. وأن يعبروا فيه، بقدر الإمكان، عن رغبات الشعب ومشاكله وآلامه. ولكن محمدا عليا، أبطل هذا الديوان وحرم الشعب المصرى من هذا «التنفيس» الذى كان يعبر عن رغباتهم ويشعرهم بأن لهم بعض شئ فى توجيه الأمور العامة، والإشراف على تصرفات حكامهم، أو على الأقل، مشاورتهم.

وكان من الممكن، أن تستقر، أو توجد، فى مصر، حياة ديمقراطية صحيحة. لو جعل هذا الديوان نواة لها، وسبيلا لقيام «الرأى العام» السياسى فيها. ولكن سياسة محمد على، وفهمه لسلطة الحاكم، ومستوى الحكام فى الشرق لهذا العهد على وجه العموم، كانت بعيدة كل البعد عن هذا التفكير، بل مناقضة له.

كان محمد على يختار مستشاريه ومعاونيه فى الحكم، من غير المصريين، فكتخداه، أى نائبه. ألبانى، أو أرنؤودى. ووزير التجارة باغوص بك أو يوسف كنعان، أو المعلم منصور أبو سرعون. ومدير الجمارك. كرابيت الأرمنى. ومنفذ الأحكام، السلحدار، سليمان أغا — وكان من أفحش الناس قسوة بالمصريين — أو صالح بك، التركى. وكذلك وزير المالية، الخاندار، محمود بك. والدفتردار،

محمد بك صهره . والروزنامجى ، أغا مستحفظان . حسن أغا البهلوان . وقواد الفرق المختلفة للجند أيضا . والمحتسب ، مصطفى أغا كرد ، أو عثمان أغا الوردانى . وحاكم الوجه القبلى ، ابنه إبراهيم ، أو صهره محمد بك الدفتردار . وأصحاب الرأى والمشورة عنده عابدين بك ، ، وإسماعيل باشا ، ابنه ، وخليل باشا ، حاكم الإسكندرية . وصالح أغاقوج ، الذى كرهه فيما بعد . وشريف أغا ، وحسين بك دالى باشا ، وحسين الشماشرجى حاكم الفيوم ، وحجو بك ... إلى آخر هذه الأسماء ، التى لا نجد بينها اسما مصريا . والتى لم تكن تشعر نحو مصر وأهلها إلا شعور المقت والبغضاء ، والزراية .

قطارات من الفلاحين :

ونستطيع أن ندرك إحساس محمد على وقومه نحو الفلاحين من أهل مصر ، بتأمل هذه السطور التى كتبها الجبرتى فى حوادث شهر شوال من سنة ١٢٣٤ : « ... كان الباشا — أى محمد على — بجهة الإسكندرية ، بسبب ترعة الأشرفية — المحمودية — وأمر حكام الجهات بجمع الفلاحين للعمل . فكانوا يربطونهم قطارات ، بالحبال ، وينزلون بهم فى المراكب ... وتعطلوا عن زرع الدراوى الذى هو قوتهم . وقاسوا شدة بعد رجوعهم فى المرة الأولى . ومات الكثير منهم ، من البرد والتعب . وكل من سقط أهالوا عليه من تراب الحفر ، «ولو فيه الروح» ، ولما رجعوا إلى بلادهم للحصيد ، طولبوا بالمال . وزيد عليهم عن كل فدان حمل بعير من التبن . وكيلة فول . وأخذ مايبيعونه من الغلة بالثمن الدون ، والكيل الوافر . فما هم إلا والطلب للعود إلى الشغل فى الترعة ، ونزح المياه التى لا ينقطع نبعها من الأرض ، وهى فى غاية الملوحة . والمرة الأولى كانت فى شدة البرد . وهذه المرة فى شدة الحر . مع قلة المياه العذبة . فينقلونها بالروايا على الجمال مع بعد المسافة » .

ثم يقول بعد ذلك ، فى حوادث ربيع الأول من سنة ١٢٣٥ إن الفلاحين عادوا إلى بلادهم من العمل فى حفر هذه الترعة «بعد ماهلك معظمهم» . وكيف لا يموت

معظمهم وقد رأينا ، في وصفه السابق ، أنهم كانوا يربطون بالحبال ، ويرغمون على العمل المرهق ، في البرد القارس والحر الشديد . فمن ضعف عن العمل · وخارت قواه ، دفن في التراب وهو حي لم يمت .

هذا كان حال الفلاحين من المصريين · أما رجال محمد على من الأجانب ، فيذكرهم الجبرتي بقوله ، إنهم « ترأسوا ، وعلت أسافلهم ، ولبسوا الملابس الفاخرة · وركبوا البغال ، والرهوانات · وأخذوا بيوت الأعيان التي بمصر القديمة وعمروها وزخرفوها وعملوا فيها بساتين ، وجناين ، وذلك خلاف البيوت التي لهم بداخل المدينة . ويركب « الـكلب » منهم وحوله وأمامه عدة من الخدم ،والقواسة يطردون الناس من أمامه وخلفه » ·

ويقول عن أحد رجال محمد علي،وهو سليمان أغا السلحدار ، إنه كان « يتمم عمائره في أسرع وقت . لعسفه ، وقوة مراسه على أرباب الأشغال والمؤنه . ولا يطلق للفعلة الرواح . بل يحبسهم على الدوام إلى باكر النهار ، ويوقظهم من آخر الليل بالضرب · ويبتدؤون في العمل من وقت صلاة الفجر إلى قبيل الغروب . حتى في شدة الحر في رمضان · وإذا اضجوا من الحر والعطش أحضر لهم السقاء ليسقيهم · وظن أكثر الناس أن هذه العمائر لمخدومه — أي لمحمد علي — لأنه لا يسمع لشكوى أحد فيه · واشتد في هذا التاريخ — سنة ١٢٣٥ — أمر المساكن بالمدينة ، وضاقت بأهلها ، لشمول الخراب،وكثرة الأغراب » ثم يقول عن هؤلاء الأغراب إنهم « الآن أعيان الناس ، يتقلدون المناصب، ويلبسون ثياب الأكابر، ويركبون البغال ، والخيول المسوقة ، والرهوانات · وأمامهم وخلفهم العبيد والخدم ، يطردون الناس ، ويفرجون لهم الطرق · ويتسرون بالجواري بيضا وحبوشا · ويسكنون المساكن العالية الجميلة . يشترونها بأغلى الأثمان ، ومنهم من له دار بالمدينة ودار مطلة على البحر ، للنزاهة . ومنهم من عمر دارا وصرف عليها ألوفا من الأكياس» ·

ومن أعجب الأمور التي ذكرها الجبرتي في تمييز الأجانب على المصريين ،

أنه — أي محمد علي — كان يفرض على البضائع التي يملكها الأولون أو يتاجرون فيها ضريبة قدرها اثنان ونصف في المائة . أما المصريون فكانت الضريبة على بضائعهم عشرة في المائة ... !

لهذا كان من الطبيعي أن يظهر هؤلاء الأجانب سرورهم من حكم محمد علي ، وأن يحتفوا به إذا قدم إليهم . كما حدث عند زيارته الإسكندرية في صفر سنة ١٢٣٤ (ديسمبر سنة ١٨١٨) فقد نصبوا «طريقا من باب البلد إلى القصر الذي هو سكن الباشا ؛ وجعلوا بناصيتيه ، يمنى ويسرى ، أنواع الزينة،والتماثيل،والتصاوير والبلور والزجاج ، والمرايات ، وغير ذلك من البدع البديعة الغريبة»

وكذلك فعل الأجانب في خارج مصر . حيث يقول إن الإنجليز أرسلوا هدية إليه من بلادهم « فيها طيور مختلفة الاجناس والاشكال . كبار وصغار وفيها من يتكلم ويحاكي . وآلة مصنوعة لنقل الماء . يقال لها «الطلمبة» وهي تنقل الماء إلى المسافة البعيدة ، ومن الأسفل إلى العلو . ومرآة زجاج نجف كبيرة قطعة واحدة . وساعة تضرب بمقامات موسيقى في كل ربع يمضي من الساعة ، بأنغام مطربة . وشمعدان به حركة غريبة . كلما طالت فتيلة الشمعة ، غمز بحركة لطيفة ، فيخرج منه شخص لطيف من جانبه ، فيقط رأس الفتيلة بمقص لطيف ويعود راجعا إلى داخل الشمعدان » .

وكان من الطبيعي أيضا ، وهذه سياسة محمد علي في تفضيل الأجانب على المصريين ، أن يزيد عددهم ، بل يتضاعف ، في عدد قليل من السنين . فقد ذكر علي باشا مبارك أنهم في سنة ١٨٤٠ كانوا ١٥٠ر١٦ ثم زادوا إلى خمسين ألفا في سنة ١٨٤٦ أي بعد ست سنوات . ثم صاروا في سنة ١٨٧٠ مائة وخمسين ألفا[1]

وقد أشرنا في أول هذا الفصل إلى أن عاطفة الجبرتي نحو محمد علي لم تكن عاطفة المحبة والتقدير . ولكن ذلك لم يمنعه من الإشارة إلى ما فعل من عمل صالح أو نافع . بل من الثناء عليه في بعض المواقف أيضا .

---

(١) الخطط التوفيقية ص ٥٤ جزء ٧

إنصاف

فمن ذلك إشادته بإنشاء سد الإسكندرية ووصـــفه ذلك بأنه « من محاسن الأفعال » التي عجز السابقون عن فعلها . وإنشاء مصانع البارود ، وسبك المدافع وصنع القنابل ، ومصانع السفن وتسييرها في البحرين الأبيض والأحمر ، ومدرسة الهندسة . ومصانع نسج القطن والحرير بالآلات ، بعد أن كانت تنسج بالأيدي . وإنشائه مصــــنعا لنسج الصوف الملون ، المعروف « بالجوخ » . وكانت الآلة التي استخدمت فيه من صنع ناظر المهمات ، محمد أفندي الودنلي المعروف بطبل ، أي الأعرج .

وهو لا يضن على محمد على بذكر ذلك مفصلا في بعض المواطن . كما نجـد في حديثه عن دار الصناعة وإنشائها ، وهو : « في هذه السنة ١٢٣٣ هـ (١٨١٧ — ١٨١٨ م) أشار البـــاشا ، بناء على مشورة بعض الإفرنج ، بإنشــاء عمارة بين السورين وحارة النصارى المعروفة بخميس العدس ، المتوصل منها إلى جهة الخرنفش ليجتمع بها أرباب الصنائع الواصلون من بلاد الافرنج ، وغيرهم . وهي عمارة عظيمة بدءوا فيها من العام الماضي واســتمروا مدة في صناعتها بالآلات الأصولية التي يصطنع بها اللوازم ، مثل السفدالات ، والمخارط ، والحديد ، والقواديم ، والمناشير والترجات ، وغير ذلك . وأفردوا لـكل حرفة وصناعة مكانا وصنّاعا . يحتوي المـكان على الأنوال والدواليب ، والآلات الغريبة الوضع والتركيب لصناعة القطن ، وأنواع الحرير والأقمشة والمقصبات . وطلبوا مشايخ الحارات وألزموهم بجمع أربعة آلاف غلام من أولاد البلد ، ليشتغلوا تحت أيدي الصناع ويتعلموا ، ويأخذوا أجرة يومية . فمنهم من يكون له القرش والقرشان والثــلاثة . بحسب الصناعة وما يناسبها . ويرجعون إلى أهاليهم آخر النهار . وهي دار صناعة عظيمة ، صرف عليها مقادير عظيمة من الأموال . وربما تحتاج إلى عشرة آلاف غلام » .

وكذلك يذكر ، بشيء من التفصيل والإشادة ، إنشاءه لترعة الأشرفية ، المحمودية .

ويقول إنه أمر بجمع مائة ألف فلاح للعمل فيها . وصنع خمسين ألف فأس، ومسحة للحفر . وهو العمل الذى مات فيه ألوف من الفلاحين، كما رأينامنذقليل .

التوت والحرير

وكذلك سجل لمحمد على أنه أصلح منطقة فسيحة من الأراضى فى مديرية الشرقية ، تعرف باسم رأس الوادى . ونقل كثيرين من فلاحى هذه المديرية ،الذين لا يملكون أرضا ، فاستوطنوا هذه الأراضى المستصلحة .وزرعوا أشجارالتوت. وأقاموا فيها أكثر من ألف ساقية للرى . وكان دود القز يربى فى هذه الأشجار ، ويستخرج منه الحرير ، «كما بنواحى الشام ، وجبل الدروز» . فقداستقدم محمدعلى جماعة من المتخصصين فى تربيته ، وفى استخراج الحرير منه لتعليم الفلاحين المستوطنين هذه الصناعة . « سمع محمد على بخبرة اللبنانيين فى زراعة التوت وتربية دودة الحرير فاستدعى فى سنة ١٨١٦ نحو ثلاثين أسرة لبنانية للاشتغال بغرس التوت وتربية دودة القز وتدريب المصريين على ذلك ، وأحل تلك الأسر فى شبرا وبهتيم وأقطعها الأراضى الواسعة . ولما أعطت تجاربهم نتيجة طيبة استقدم من لبنان فى سنة ١٨١٨ جالية أخرى أكبر عدداً من الأولى ، ووهبها أربعة آلاف فدان فى رأس الوادى على مقربة من الزقازيق ، وحفرلها ألف ناعورة وأقام عليها أربعمائة معلم . وكان رؤساء هاتين الجاليتين متصلين رأساً بمحمد على .

ونمت أشجار التوت التى تغذى أوراقها دودة القز فى سنوات قليلة ،وراجت منتجات الحرير فى مصر ، وأثبت الباحثون أن مائةوخمسين ألفاًمن العمال كانوا يشتغلون فى نسج الحرير فى مصر . وبلغت إيرادات مصر منه فى إحدى السنين مليوناً من الجنيهات»[1] وذكر الجبرتى أن السواقى كانت تصنع فى القاهرة ثم تنقل على الجمال إلى رأس الوادى .

---

(١) من مقال للأب الدكتور مسعد بولس فى عدد خاص عن محمد على أصدرته مجلة « الكتاب » . عدد شهر نوفمبر ١٩٤٩ ص ٥٤٨ .

وأتى الفلاحين الذين نقلهم للعمل فيه ، أقيمت لهم الكفور والساكن . وصرفت لهم النفقات ، حتى يستخرج الحرير ويباع . فيكون لهم ربع ثمنه . وقد زار محمد على هذه المنطقة بنفسه. ويقول إنه زرع أشجار التوت فى شوارع القاهرة، وفى جسور الطرق فى بلاد الريف[1] . كما زرع بعض الأراضى بأشجار الزيتون، وأقام مصانع للصابون استخدم فيها زيت هذه الأشجار . وجلب من إنجلترا كثيراً من السواقى ، لتحسين حالة الرى . ولكن الجبرتى يقول إن تجربتها لم تفلح .

ونظم الدورة الزراعية فى مصر. حيث أمر بتحديد المساحات التى تزرع بالقطن والكتان والسمسم والحمص ، وغير ذلك من المحاصيل .

وذكر أنه أجرى ماء النيل ورفعه إلى القلعة ، فخفف ذلك من مشقات الناس . وكانت السواقى التى ترفع الماء إليها قد تخربت منذ زمن طويل .

بل إن الجبرتى لصدق عاطفته التاريخية ، وأمانته العلمية . أثنى على محمد على ثناء كبيرا ، لإقامته سد رشيد . وقال إن ذلك « من أعظم الهمم الملوكية ، التى لم يسبق بمثلها » .

العلماء والعسكر :

وسجل له أنه ترك للعلماء أن يختاروا شيخ الأزهر . بالانتخاب . فقد ذهبوا إليه ، بعد وفاة الشيخ الشرقاوى ، يستأذنونه فيمن يجعلوه شيخا . فقال لهم « اعملوا رأيكم ، واختاروا شخصاً يكون خاليا عن الأغراض » وتنازع الشيوخ فيما بينهم ، ثم اختاروا الشيخ محمد المهدى . ولكن محمدا عليا لم يعينه . وأمر بتعيين

---

(١) نقل على باشا مبارك عن كلوت بك ، أن ماغرسه محمد على من شجر التوت فى الوجه البحرى ، بلغ ثلاثة ملايين شجرة . فى عشرة آلاف فدان (ص ٤٣ ج ١٠ من الخطط)

الشيخ محمد الشنوانى. وكان قد ترك القاهرة عندما علم أن العلماء يريدون أن يختاروه للمشيخة[1] .

ومما ذكره الجبرتى أنه أمر بمنع العسكر ، حتى كبارهم ، من أخذ مزروعات الفلاحين حين مرورهم بها . أو أكل شئ منها . وكانوا يسرفون فى ذلك إسرافا شديدا يؤثر أسوأ الأثر على المحاصيل . كما يذكر أنه نزل يوما من القلعة، فى رمضان من سنة ١٢١٩ وقتل جنديا كان يغتصب حمل تبن من رجل آخر . ثم وجد سبعة جنود ، يغتصبون قصعة من الزبد ، من فلاح ، وهو يستغيث ، فقتل منهم ثلاثة ، وهرب الباقون . ونزل إلى قنطرة الدكة وبولاق ، فقتل أربعة رجال كانوا ينهبون. ويقول إنه قتل ، فى ذلك اليوم ، أكثر من عشرين شخصاً ، من النهابين . وكذلك منع الجند من التعرض للباعة فى دخولهم من أبواب القاهرة ، وأخذ شئ منهم .

ولكن يحسن أن نلاحظ أن ماذكره الجبرتى فى ذلك ، كان فى أول عهد محمد على . وكان فى ذلك الوقت محتاجا إلى تأليف الناس ، والظهور بمظهر الحاكم العادل . كما كان محتاجا إلى إقرار الأمن ، الذى كان مختلا إلى درجة خطيرة. وكانت هذه الصرامة وإظهار الغيرة على الشعب ، مما يساعده كل المساعدة على الإنفراد بالحكم . وتوجيه سخط الشعب نحو خصومه من المماليك وغيرهم .

ولعل هذا أيضا هو السبب الذى دعا محمدا عليا إلى تلك القسوة البالغة التى سجلها الجبرتى ، والتى أخذ بها التجار والباعة ، إذا زادوا فى أسعار السلع، عن الثمن الذى حدده لها . حتى إنه حكم على بعضهم بالإعدام .

ودعاه أيضا إلى إبطال بعض العادات الثقيلة التى اعتاد الجند أن يفعلوها ليأخذوا من الناس أموالا بغير حق ، كعادة الجمّيعة ، التى ذكرناها فى الحياة الاجتماعية[2] .

---

(١) أنظر فصل الأزهر والعلماء فى الجزء الثانى من الكتاب .
(٢) الجزء الأول من هذا الكتاب .

حسين عجوة :

ومما ذكره الجبرتى من الحسنات القليلة التى سجلها لمحمد على ، أنه علم أن مصريا « من أولاد البلد » اسمه حسين شلبى عجوة ، اخترع آلة لضرب الأرز وتبييضه . لاتحتاج إلى جهد كبير . فطلبه إليه ، وأعطاه مالا ، وأمره بأن يسير إلى دمياط ليقيم فيها مصنعا تستخدم فيه هذه الآلة التى اخترعها . وأمر بأن يسلم إليه مايحتاجه من الأخشاب والحديد وأدوات البناء . فلما أقامه حسين عجوة ، ونجحت آلته ، أمره بإقامة مصنع آخر فى رشيد ، وأنعم عليه بمال ، مكافأة له . ثم تنبه — أى محمد على — لما عند المصريين من قدرة ونشاط ، فأمر بإنشاء مدرسة ، فى فناء قصره ، جمع فيها طائفة من الصبية المصريين ، ومن مماليكه . وخصص لهم معلمين ، بعضهم من الأوربيين ، وأحضر لهم الأدوات الهندسية من إنجلترا ، وخصص لكل صبى راتبــاً شهرياً وكسوة ، وكانت هذه بداية مدرسة « المهندسخانة » .

وهكذا نجد أن الجبرتى ، لم يظلم محمدا عليا ، ولم يغمطه قدره ، ولم ينشر شروره ويطـوِ خيره ، بل كان منصفا أمينا ، يذكر ماله ، وما عليه . بل نجد أن الجبرتى ، فى موقف من المواقف ، لايضن عليه بالثناء الكثير ، والمدح الشامل ، مع تحفظ لاينكره محمد على نفسه ، كما سنرى بعد قليل .

فقد ذكر الجبرتى مشاريع محمد على لإصلاح سد الإسكندرية . ثم قال إنه كانت « له مندوحة لم تـكن لغيره من ملوك هذه الأزمان — أى ملوك مصر السابقين — فلو وفقه الله لشئ من العدالة — على مافيه من العَزم والرياسة ، والشهامة ، والتدبير ، والمطاولة — لكان أعجوبة زمانه ، وفريد أوانه »

الجبرتى لم يظلم محمد على :

وهذا التحفظ الذى أورده الجبرتى مشيراً به إلى تجاوز محمد على وإسرافه فى الظلم والاستيلاء على الأموال والأراضى . لم يستطع مؤرخ من أكبر مؤرخى محمد على أن ينكره ، وهو على باشا مبارك . فقد ذكر على مبارك أن محمدا عليا وجد أمامه مشاكل معقدة ، كان عليه أن يواجهها ، ويتغلب عليها « فمنها مااستعمل فيه الرفق واللين . ومنها مااستعمل فيه بذل الأموال . ومنهـــا ما استعمل فيه القهر ، والغلبة ، والسيف . حتى تمكن من جميع أغراضه (١) »

وعلى مبارك مدين باسمه ، ومجده ، لمحمد على . تعلم فى المدارس التى أنشأها . وسافر مع أولاده إلى فرنسا . وتولى أهم مناصب الدولة من يد أولاده وسلالته . ولقى عندهم — ماعدا سعيد — أكرم منزلة . وألف خططه ، وسماها باسم واحد منهم . وهو توفيق . فلا يمكن أن يتهم على مبارك بالتحامل على محمد على . بل المعقول أن يتهم بالتحيز له .

فإذا ترجمنا هذه الكلمات التى وصف بها محمدا عليا ، إلى لغة الجبرتى . نجد أن كلمات « الرفق واللين » لاتبعد كثيرا عن الرياء والمداهنة . ونجد كلمات « بذل الأموال » هى بعينها رشوة المماليك لتفريق كلمتهم ، وكسر شوكتهم . ثم لايبقى بعد ذلك سوى كلمات القهر ، والغلبة ، والسيف . وهذه قد التقى فيها كل من على مبارك والجبرتى أتم لقاء . وانفرد الجبرتى بتفصيلها والتدليل عليها . على أن محمد على نفسه لم ينكر فى آخر حياته ، هذه الكبائر التى اقترفها فى حق مصر ، والمماليك . ولا هذه الكبائر التى اجترأ بها على الفضائل والأخلاق . حتى تمكن من « جميع أغراضه » كما يقول على مبارك . فقد روى المؤرخون أن الأمير بكلر سكاوى ، أحد أصدقاء محمد على فى آخر حياته ، سأله عن تاريخ السنوات الأولى

(١) ص ٥٥ جزء ٧ من الخطط التوفيقية . طبع المطبعة الأميرية .

من حكمه — وهى التى أرخ لها الجبرتى — فقال محمد على : إنه لا يحب تلك الفترة من حياته[1] ، ولعل ضميره كان يحاسبه على ما اقترف فيها . أو لعله لا يريد أن يسجلها عليه التاريخ . أو كلا الأمرين معا ، جعله يكره هذه الفترة من حكمه .

هذه هى الصفات التى نجدها لمحمد على ، عند الجبرتى . وهذه صفحات من سيرته ، كما سجلها فى الست عشرة سنة الأولى من حكمه ، تسجيلا أمينا ، منصفا ولو أنه مشوب بعاطفة المقت ، والكراهية له .

محمد على القوللى :

وتبدو هذه العاطفة صادقة قوية ، فى السطور التى يبدأ بها الجبرتى تدوينه لأحداث طائفة من هذه السنين . فهو يبدأ حديثه عن سنة ١٢٣١ بهذه الكلمات :

«استهل شهر المحرم بيوم السبت . وحاكم مصر ، وصاحبها وأقطاعها ، وثغورها ، وكذلك بندر جدة ، ومكة ، والمدينة المنورة ، وبلاد الحجاز . محمد على باشا . وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » . ثم يذكر هذه الكلمات نفسها فى بدء حديثه عن السنة التالية ، ويزيد عليها وصف محمد على « بالقوللى » — نسبة إلى قوله — ثم يذكر أسماء وزيره ، ونائبه ، وكبار رجاله . وكأنه يقول إن مصر لا يحكمها أحد من أبنائها . ثم يفعل ذلك فى السنتين التاليتين أيضا . كأنه كان يترقب أمرا ، أو يرجو تغير الحال . فوجده كما كان .

وتبدو هذه العاطفة ، صادقة قوية أيضا . عندما يذكر نزاع المماليك بعضهم لبعض — وكان صديقا محبا لهم — فهو يقول ، مثلا ، إن هذا النزاع كان سببا فى أن انقلبت أوضاع الديار المصرية ، وزالت حرمتها بالكلية « وهو يقصد بذلك عهد محمد على . ثم يذكر فى ختام حديثه عن هذه المنازعات . كلمات « والحكم لله العلى القدير »

(١) ص ٦٠ من كتاب محمد على الكبير للأستاذ محمد شفيق غربال .

وأمثال ذلك . كما نجد طابع التشاؤم ، والحزن ، والألم · واضحا قوياً فى هذه الصفحات التي سجل فيها وقائع حكم محمد على . وكأنه كان يحس ، بوجدانه ، ماستلقى مصر فى أيامها المقبلة منه ، ومن ذريته ، وقد صدق وجدان الجبرتى وحسّـه . بما رأينا وعرفنا من تاريخ وطننا فيما تلا ذلك من السنين .

(لقد بذل محمد على كل دهاءه وحيلته حتى اختاره شعب مصر وزعماؤها والياً عليهم · على شروطهم . وهى أن يسير فيهم بالعدل، وأن يقيم الشريعة ، ويرفع الظلم . وألا يبرم أمراً إلا بمشورة العلماء والزعماء . وأنه متى خالف هذه الشروط ، عزلوه ، وأخرجوه . فلما مكّـن لنفسه من الأمر ، سار فيهم سيرته التى روينا طرفا يسيرا منها فيما مر من هذه الصفحات . وكانت هذه هى الخدعة الـكبرى والشر العظيم .

مصطلحات فى عجائب الآثار

شرحنا فى الأجــــزاء الثلاثة من الـكتاب كثيرا من الـكلمات والتعابير الإصطلاحية التى يذكرها الجبرتى فى تاريخه ، ولم تعد مفهومة فى عصرنا . وهناك كلمات ومصطلحات أخرى لم نشرحها فى كتابنا لأن سياق البحث لم يقتض ذكرها . ونحن نذكر منها طرفا يسهل على من يقرأ تاريخ الجبرتى فهم مدلولاتها ، أو يزيدها إيضاحا . وكثير من هذه المصطلحات يجده القارىء لتاريخ مصر قبل عهد الجبرتى بعدة قرون ، لذلك قد يعترى معناها بعض التغيير . وهى إما تركية أو فارسية ، وقليل منها محرف عن العربية :

الأمراء المصرية : المماليك

الغــــز : صغار المماليك « ولا يزال معروفا فى مصر المثــل العامى الذى يقول : آخر خدمة الغز علقة »

الجاكى ، أو الجامكية : مرتبات الجند

المهاترة : رجال الموسيقى الذين يعزفون النوبة فى أوقاتها .

الخزنة أوالخزينة : ما تبقى من جباية أموال مصر ، بعد إنفاق مارتبــه السلطان سليم منها لينفق فى مصر .

الصنجق : حاكم مديرية كبيرة . وكان الصناجق يحكمون مديريات : جرجا ، والشرقية والغربية ، والمنوفية ، والبحيرة

الـكشاف : حكام المديريات الذين هم أقل شأنا من الحـكام السابقين

القلق : مركز رجال البوليس ، ويطلق على ضابطه .

أمين الخردة : الأمين المعين لجمع الضرائب المفروضة على الملاهى والخواطى « البغاء » والحواة وأمثالهم .

الشاجرتية أو الجاجرتية	: المعلم أو المتعلم . وكانا من محررى دفاتر الأراضى
قلفاوات	: جمع « قلفة » وهى محرف « خليفة » العربية ، بمعنى وكيل الصنعة أو معلمها ، أو الـكاتب .
الرزقة	: أراض توقف على الخير ولا تفرض عليها ضرائب .
أرض الدشيشة	: أرض أو مجموعة أراض موقوفة لإطعام أهل الحرمين ، والدشيشة حساء يصنع من القمح .
الإلتزام	: أن يعهد إلى شخص ، عن طريق التكليف أو المزايدة ، إلتزام دفع أموال الحـكومة ، فى نظير ضرائب يفرضها على المديرية أو المنطقة التى التزم بدفع أموالها .
الداوات	: جمع « داو » إسم للسفن التجارية التى تسير فى البحر الأحمر خاصة
بصّاص	: بوليس سرى
ديوان المـكس	: الجمرك
صارى	: الأصفر
البيرشانة	: عمامة
مهدارة	: وقاية توضع على رأس المرأة
التفكـْجية	: حملة البنادق ، أو من يقومون بإصلاحها .
الينكجرية	: طائفة من الجند ولعلها الإنـكشارية
الـكلف	: الغرامات
القلقات	: حراس أبواب المدينة
ألجى	: سفير

ططرى	: رسول من الباب العالى قادم عن طريق البر «الشام»
قابجى	: » » » » » » البحر
البرق	: السوار
خشخانة	: السلاح
الألضاشات	: أتباع المماليك من العناصر الأخرى
صارى عسكر	: القائد العام
شلنج	: غطاء للرأس مرصع بالجواهر .
سلخور	: إحدى وظائف الدولة .
اليسق	: الحرس
القليونجية	: البحارة « نسبة إلى غليون ، أى سفينة »
السفاشية	: جند الخيالة
الفـردة	: ما يفرض من الضرائب على الأفراد .
قناطيش	: نوع من الثياب
المهم	: الحفلة
وجاق	: بالتركية: — أوجاق أى الموقد، ثم استعملت للفرقة من الجند
قش	: الشتاء
عزبان	: اسم قديم لرجال البحرية العثمانية ثم أطلق على طائفة من الجند
خاتون	: لقب احترام لـكل سيدة كبيرة المقام
كبـكبة	: جماعة من الناس
مستحفظان	: رئيس حرس أو فرقة الحرس المنوط بها حفظ الأمن

اختيار طائفة : كبار السن

دعا كيوى : الذين يقرءون الدعاء ويطلبون الرحمة

علوفة : بدل تعيين « طعام » للخيل أو للإنسان .

باش قلفة : قلفة معلم ، وباش رئيس . والمعنى رئيس المعلمين . فإن كانت امرأة فهي الرئيسة المكلفة بشؤون الملابس .

الحجا : كاتب السر والإيراد والمنصرف .

اختيار أغاسى : صاحب مفتاح القصر ، أى أمين القصر .

رنكار : شعار وجمعه رنوك .

دخولية : ضرائب تفرض على البضائع التى تدخل القاهرة والمدن الكبيرة .

الشحنة : المأمور أو الرئيس .

البلص : الرشاوى

جوربجى : عمدة

المشاعلية : المشتغلون بالأعمال الدنيئة ، مثل نزح الآبار والحامات والمجارى . وكان منهم السيافة والجلادون الذين ينفذون أحكام الإعدام والجلد . والذين ينادون فى الطرقات بأحكام الوالى . وكانوا يسيرون لذلك ليلا يحملون المشاعل . ومن هنا جاء اسمهم . وكان يسمون الضوية أيضا ، نسبة للضوء .

القنبر : القنابل

حرمدان : جراب أو صندوق

مراجع الكتاب

١ — تقويم النيل لأمين باشا سامى . الجزء الثانى

٢ — الخطط التوفيقية لعلى باشا مبارك .

٣ — ذكر تملك جمهور الفرنساوية الديار المصرية والأقطار الشامية للمعلم نقولا الترك طبع باريس ١٨٣٩ .

٤ — تاريخ الحركة القومية للأستاذ عبد الرحمن الرافعى ، الأجـــزاء الثلاثة الاول .

٥ — المماليك فى مصر للأستاذ أنور زقلمة .

٦ — فتح مصر الحديث ، أو نابليون فى مصر للمرحوم أحمد حافظ عوض بك

٧ — مصر من عهد المماليك إلى نهاية الحكم العثمانى تأليف جورج يانج وتعريب الأستاذ على أحمد شكرى .

٨ — تاريخ مصر من الفتح العثمانى إلى قبيل الوقت الحاضر تأليف عمر الإسكندرى وسليم حسن ومراجعة الميجر ا . ج سفـدج .

٩ — تاريخ دولة المماليك فى مصر لوليم موير ترجمة محمود عابدين وسليم حسن « وبخاصة الملحق الذى كتبه يعقوب أرتين باشا وأرسله للمؤلف ، ونشر فى آخر الكتاب »

١٠ — المنتخب من أدب العرب للأساتذة : الدكتور طه حسين ، وأحمد الإسكندرى ، وأحمد أمين ، وعلى الجارم ، وعبـد العزيز البشرى ، وأحمد ضيف .

١١ — المجمل فى تاريخ الأدب العربى للأساتذة : الدكتور طه حسين ، وأحمد الإسكندرى ، وأحمد أمين ، وعلى الجارم ، عبـد العزيز البشرى ، وأحمد ضيف

١٢ — بدائع الزهور ووقائع الدهور المعروف بتاريخ ابن إياس
١٣ — سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر للمرادى .
١٤ — مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس للجبرتى [مخطوط درسناه دراسة مفصلة فى الفصل الأول من الجزء الأول من الكتاب]
١٥ — رسائل العطار للشيخ حسن العطار .
١٦ — ترويح البال وتهييج البلبال للسيد عبد الرحمن العيدروس طبع المطبعة الأميرية ١٢٨٣ .
١٧ — تحفة الناظرين فى من ولى مصر من الولاة والسلاطين للشيخ عبدالله الشرقاوى .
١٨ — قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية للمرحوم الأستاذ أحمد أمين .
١٩ — زعيم مصر الأول ، السيد عمر مكرم ، للأستاذ محمد فريد أبو حديد
٢٠ — عبد الرحمن الجبرتى للأستاذ خليل شيبوب .
٢١ — محمد على الكبير للأستاذ محمد شفيق غربال .
٢٢ — محمد على الكبير للكاتبة الألمانية لويزا مولباخ . ترجمة دار الهلال
٢٣ — تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان « الجزء الرابع » .
٢٤ — تاريخ الشعوب الإسلامية فى القرن التاسع عشر لبروكلمان تعريب الدكتور نبيه فارس والدكتور منير البعلبكي .
٢٥ — أجزاء مختلفة من دائرة المعارف الإسلامية .
٢٦ — مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة [عدد مايو ١٩٣٦] دراسة الأستاذ محمد شفيق غربال لوثيقة « ترتيب الديار المصرية فى عهد الدولة العثمانية » لواضعها حسين أفندى الرزنامة فى عهد الحملة الفرنسية .
٢٧ — مخطوط فى مكتبة سوهاج مسجل برقم ١٠٠ تاريخ .

الفهرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة	ج — هـ
الفصل الأول	
شعبنا وماضيه	٣
فى سبيل العدل	٥
سردار الإسكندرية وجند بولاق	٥
قتل ياسف	٧
الشيخ الدردير يقود الثورة	٨
واعظ من الروم	١١
أحمد باشا الدفتردار	١٢
زحف الجياع	١٣
وثيقة حقوق الإنسان	١٤
خورشيد باشا والفلاحون	١٦
فى سبيل الحرية	٢١
الإنجليز والفرنسيون	٢٣
الإنجليز فى الإسكندرية ورشيد	٢٤
الحملة الفرنسية	٣٣
مراد وإبراهيم	٣٣
نابليون فى مصر	٣٦
فى الإسكندرية ورشيد والبحيرة	٣٧
شهادة الفرنسيين	٣٩
نابليون فى القاهرة	٤٤

الموضوع	الصفحة
القاهرة بعد الهزيمة	٤٧
التحفز للثورة	٤٩
ثورة القاهرة الأولى	٥٢
الأزهر والثورة	٥٢
خيل الفرنسيين داخل الأزهر	٥٦
إنتقام نابليون	٥٩
الثورة فى الوجه البحرى	٦٢
فى الشرقية	٦٢
فى الدقهلية ودمياط والسويس	٦٥
معركة المنصورة	٦٥
فى المنوفية والغربية	٧٠
فى البحيرة	٧٣
فى الوجه القبلى	٧٦
معركة نجع البارود	٧٨
مذبحة بنى عدى	٨٠
شجاعة صبى مصرى	٨١
شهادة القواد الفرنسيين	٨٣
الثورة الكبرى	٨٧
مصنع للبارود	٨٩
الخدعة	٩٠
القاهرة تحترق	٩٢
بولاق الباسلة	٩٢

الموضوع	الصفحة
شهداء تحت التراب والنار	٩٤
صلح وغدر	٩٥
إنتقام الشعب	٩٨
مقتل كليبر	١٠٠
أربعة من الشهداء	١٠٠
الأزهر يقفل	١٠٢
انتقام وقسوة	١٠٢
الفضل ما شهدت به الأعداء	١٠٥
مقاييس جديدة لدراسة تاريخنا الحديث	١٠٩
زعماء وأبطال	١١٣
حجاج الخضرى	١١٣
أبطال معركة رشيد	١١٦
السيد محمد كريم	١١٨
الشيخ حسن طوبار	١٢١
محمد المهدى أو الأمير محمد	١٢٤
الشيخ السادات	١٢٥
شهداء من العلماء	١٢٦
الحاج مصطفى البشتيلى	١٢٨
عمر مكرم والمحروق	١٢٩
عبرة الأيام والحوادث	١٣٤
اليهود والنصارى	١٣٥
الكرامة للمخلصين	١٣٦
سماحة وشرف	١٣٧

الموضوع	الصفحة
عبرة العبر	١٤٢
الفصل الثانى	
طرف من سيرة محمد على	١٤٩
التمهيد لمحمد على	١٥١
محمد على سر شمشمة	١٥٣
محمد على يسعى سعيه	١٥٧
الحيلة والغدر	١٥٨
حذر ونشيط وقاس	١٦٣
حب المال	١٦٥
الإنجليز وآثار الفراعنة	١٦٦
قطارات الحمير	١٦٧
الغلاء والقحط	١٦٨
هدايا لأم العروس	١٧٠
الأجانب هم الحكام والسادة	١٧١
قطارات من الفلاحين	١٧٢
إنصاف	١٧٥
التوت والحرير	١٧٦
العلماء والعسكر	١٧٧
حسين عجوة	١٧٩
الجبرتى لم يظلم محمد على	١٨٠
محمد على القـَوَلىّ	١٨١
مصطلحات فى عجائب الآثار	١٨٣
مراجع الكتاب	١٨٧



مطبعة الرسالة
شارع حموده الفارل ٣ عابدين